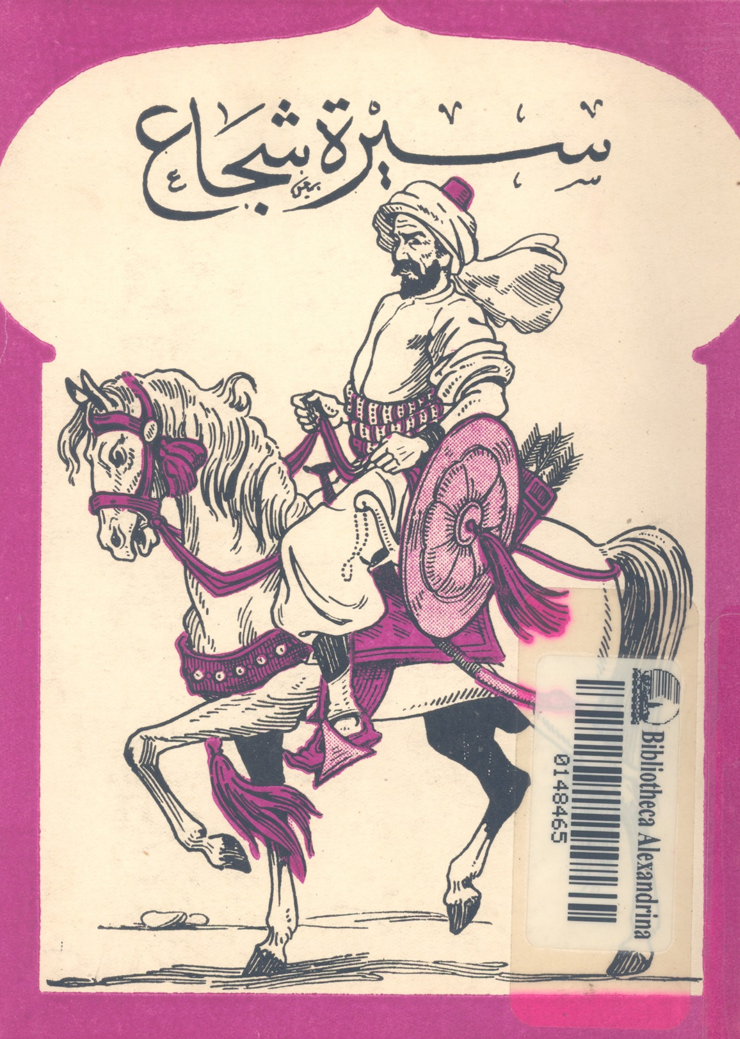
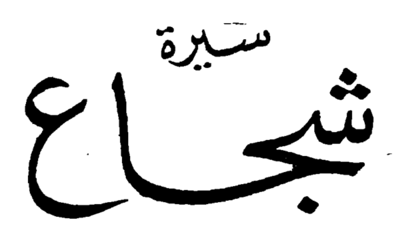

سيرة شجاع



تأليف

علي أحمد باكثير

١٢

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

«وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ. إِنَّ إِبْرٰهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ»

(قرآن كريم)

الإهـــداء

إليك ياجمال

وإلى رفاقك الأبطال

وإلى هذا الجيل الذى شهد هذا البعث الجديد

الذى أجراه الله على أيديكم

فأيقظ مصر بعد سبات وأحياها بعد موات

ودفع بها فى سبيل القوة والعظمة والمجد

ثم سرت روحه إلى سائر العرب فى مختلف أقطارهم

فأهابت بهم أنْ حيّ على القوة والعظمة والمجد

أهدى هذه القصة التى استقيت حوادثها وحقائقها من مسطور تاريخنا العظيم الحافل، واستوحيت معانيها ومغازيها من مشهود هذه الثورة العظيمة الخلاقة.

فالتقى فيها الماضى المجيد بالحاضر المجيد

واجتمعت بطولات الأمس وبطولات اليوم فى صعيد

وسقط ما بين ذلك من عهود الظلم والفساد والاستعباد

فكأنها لم تكن

إلا عبرةً لمن اعتبر وذكرى لمن اذّكر.

ولك بعدُ — إن شاء الله — الغد الأمجد يا جمال ولرفاقك الأبطال

ولهذا البلد الخالد وشعبه الناهض

وللامة العربية جمعاء

المؤلف

السفر الاول

١

هذه هى الليلة الثالثة منـــذ نشبت المعركة بين الوزيرين المتنافسين على كرسى الحكم : شاور وضرغام ، أو بالحرى منذ بدا لضرغام بن سوار اللخمى صاحب البـــاب ورئيس الحرس الخاص لقصر الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله ، فثار على الوزير شاور ابن مجير السعدى ليزحزحه عن كرسى الحكم وينصب نفسه وزيرا مكانه .

وكان الجيش جيش الدولة ، قد انقسم فريقين ، يكادان يكونان متعادلين من حيث القوة والعدد ، أحدهما يذب عن الوزير العتيد ، والآخر يناصر المغامر الجديد ، ولكن الجولة الاولى التى كسبها ضرغام بفضل المباغتة التى أذهلت خصمه ، كانت كافية فى تقرير مصير المعركة ، اذ أدرك الجميع حينئذ أن الذى يؤيده صاحب العرش من وراء الستار هو الذى سينتصر فى هذه المرة أيضا ، كما كان ينتصر دائما فيما سلف ، فأخذت كفة ضرغام ترجح ، وأخذ أنصاره يكثرون بمن ينحازون اليه ممن كانوا مع شاور ، فلما يئسوا من انتصـــاره انفضوا عنه وصاروا مع خصمه البا عليه .

ولم يكن ذلك بدعا من جند مصر فى تلك الحقبة من تاريخها ، فهكذا كان ديدنهم ينقسمون ما ينقسمون حين يبرز الى الميدان طامع جديد فى الحكم قد يدال له وقد يدال عليه ، حتى اذا ماتبين لهم الخيط الفاصل بين الغالب والمغلوب ، انضم بعضهم الى بعض

فاتحدوا جميعا لتأييد من يحكم البلاد غـدا على من يحكمها اليوم .

ويجىء دور صاحب القصر عقب ذلك ، فينعم بالوزارة على هذا المنتصر ويعلن رضاءه عنه ، وسخطه على المنهزم ولو الى حين .

أما عامة الناس من أهل هذا البلد الأمين وأبنائه الطيبين فقد صار قصاراهم اذ ذاك يتفرجوا من قريب أو من بعيد على هذه الفصول التى تمثل على مسرح بلادهم ، فيضحكوا اذا شهدوا ما يضحكهم ، ويبكوا اذا شهدوا ما يبكيهم ، ويحمدوا الله على كل حال اذا انحصر الصراع فى اللاعبين على المسرح ، دون أن يتعداهم الى المتفرجين ، أو اذا أصابهم منه أذى قليل .

حتى اذا رجعوا الى نفوسهم بعد ما يسدل الستار على المأساة أو الملهاة وبدأوا يفقهون ما تنطوى عليه من العبرة ، ويدركون أنهم هم الذين يمثل بهم ويعبث بمصالحهم ، وأنهم فى النهاية هم الخاسرون ، امتلأت نفوسهم حينئذ بالاسى الدفين ، فلا يجدون متنفسا عنها غير النكات اللاذعة يرسلونها على هذا الطاغية أو ذاك ، فلا يجد الطاغية من سبيل عليهم لأنها كالرسائل الأغفال تدور مفتوحة فى كل مكان بحيث يراها كل ذى عين ، ويسمعها كل ذى أذن .

٢

كانت القاهرة بميادينها وأحيائها وشوارعها ودروبها وأبوابها من الجهات الأربع والحصـون القائمة عليها مجال هذا العراك الدامى بين هذين المتنازعين على الحكم طوال هذه الأيام الثلاثة ، فتعطلت فى خلالها الاسواق وأغلقت المتاجر والحوانيت وأقفرت الشـوارع من المارة ، اذ لزم الناس بيوتهم خشية أن يصيبهم الأذى من جراء تطاحن الجنود وتعاركهم عن قصد أو عن غير قصد ، وخوفا من بعض الأشرار الذين ينتهزون فرصة اختلال الأمن فيسطون وينهبون دون أن يلحقهم عقاب أو حساب .

وكذلك كانت الحال فى مدينة الفسطاط أيضا وان كانت بمعزل عن معترك الجنود ، اذ لم تمتد اليها ساحة القتال فى هذه المرة بعد ، فقد لزم معظم أهلها بيوتهم أيضا ، و لاسيما فى الليل ، لأن حبل الأمن يضطرب فيها باضطراب حبله فى العاصمة ؛ وان كان المحتسبون من أهلها ، وهم المتطوعون حسبة لله تعالى ، يجولون بأسلحتهم فى الطرقات ليـلا ونهارا ، ويدورون على البيوت والمتاجر يحفظون الأمن ويصونون النظام .

والجميع يتسـقطون أنباء المعركة الدائرة رحاها فى تطلع واهتمام ويترقبون متى تنجلى هذه الغمة عنهم فيعودون الى معتاد حياتهم ومزاولة أعمالهم فى سكينة وأمن ، وقلما يعنيهم بعد ذلك أى المتنازعين ينتصر ، وأيهما ينهزم . نعم انهم ــ أهل الفسطاط جميعا ، وبعض أهل القاهرة ــ يتشيعون فى العادة للجانب الذى لا يؤيده صاحب العرش على الجانب الذى يلقى منه التأييد ،

وهم لذلك يتمنون اليوم فى أعماق نفوسهم أن ينتصر شاور على ضرغام ، ولكن الأيام قد علمتهم أن يقتصدوا فى تشيعهم لهذا ، وتعصبهم على ذاك ، عسى أن يخلف هذا ظنهم فيكون شرا عليهم اذا ولى الحكم من ذاك .

على أن ذلك لم يحل دون تزايد قلق الناس كلما اقتربت المعركة من نهايتها ، اذ كان هواهم فى الجملة مع شاور ، وقد استخلصوا من الأنباء المتضاربة أن الرجاء فى انتصاره قد انقطع أو كاد . وبلغ هذا القلق أوجه فى ليلة هذا اليوم الثالث من أيام المعركة ، فقد بات كثير من الناس ساهرين حتى آخر الليل يتوقعون فى كل لحظة أن يسمعوا النتيجة الحاسمة بعد ما ترامت اليهم الأخبار المتضاربة عن مصرع شاور أو فراره من القاهرة ، ولكنها جميعا تؤكد أن أتباعه قد أسلموه أجمع وانفضوا عنه ، وأن أبناءه الثلاثة قد وقعوا فى قبضة ضرغام ، فقتلهم أو حبسهم ، ولكن من يدرى بعد ؟ لعل النتيجة الحاسمة تنقض كل ما سمعوه وتأتى بخلاف ما يتوقعون .

وطال بهم الانتظار وقد أرهقهم السهر وأغراهم برد الشتاء بالاضطجاع والتدثر فلما وجدوا لذة الدفء تسلل النعاس الى عيونهم ، فلم يستطع أن يغالب النوم منهم الا القليل .

٣

وخيم السكون على مدينة الفســـطاط بعد ما نام أهلها في بيوتهم ، واطمأن المحتسبون على سلام المدينة وأمنها حين انسلخ الشطر الأكبر من الليل وأوشك الفجر أن ينبلج فآووا أيضا الى مضاجعهم ليأخذوا قسطهم من النوم فيستعينوا به على سهر الليلة القادمة .

وساد الظلام ، اذ انطفأت المصابيح والقناديل ، فما بقي مضيئا الا قنديل واحد في حجرة واحدة من بيت واحد في حي واحد ، أما الحي فحي الليث بن سعد ، على غلوة سهم من الجامع العتيق، جامع عمرو ، وأما البيت فبيت أبي الفضل الحريري من كبار تجار الحرير في الفسطاط والقاهرة ، وأما الحجرة فلابنته الوحيدة سمية البالغة من العمر ستة عشر ربيعا ، وهي مستلقية على فراشها لوعكة أصابتها منذ أيام ، وقد جلست أمها « أم الفضل » على أريكة صغيرة مجاورة لسرير العليلة ، وعليها عباءة ثقيلة من الوبر تتدثر بها من البرد ، وتحت قدميها فوق البساط المفروش على الحصير ، جلست جاريتها السوداء مسيكة ، لتقوم على خدمة سيدتها اذا احتاجت الى شيء : وهي تنظر في حنان بالغ الى سيدتها الصغيرة التي تحبها حبا جما ، وترنو من خلال الضوء الخافت للقنديل المتدلي من سقف الحجرة الى وجه دقيق الملامح مليح القسمات ، قد استطاعت العلة أن تنقص من نضارته وتورده ، ولكنها لم تستطع أن تغض من حسنه وفتنته اذ كسته شحوبا زاده جمالا وروعة ، وتهدل شعرها الذهبي المغدودن صوب كتفيها

فجعل يتموج على جبينها من الجانبين كأنه يحاول جاهدا أن يضرم وجنتيها بتلهبه ليعيد اليهما ما سلبت العلة من توردهما الحبيب .

وتحركت العليلة الحسناء فى فراشها كأنها تريد أن تنهض أو تستوى جالسة ، فنهضت الجارية لتساعدها ، وتحركت أمها أيضا لتعينها ، فما أمهلتها «سمية» أن رفعت الغطاء عن صدرها بقوة ، فجلست ثم جذبت الوسادة التى كانت تحت رأسها فنصبتها لتتكىء عليها وهى تقول :

ـ استريحا ... أنا قادرة أن أجلس وحدى ...

ـ هل تريدين شيئا يا سمية ؟

ـ نعم...لوتأوين ياأماه الىفراشكفتنامى قليلا وتستريحى!

ـ أنى يأتينى النوم يا بنتى ونحن فى هذه الحال ؟

ـ ان كان من أجلى فانى الليلة بخير ...

ـ ومن أجل أبيك الذى لم يعد من القاهرة منذ يومين ...

ـ لا تقلقى يا سيدتى فسيعود سيدى غدا فى الصباح ...

ـ أجل يا أماه ... لعله رأى من الحكمة ألا يعرض نفسه لأخطار الطريق فبقى عند أخى الفضل فى بيته ...

ـ ما كان ينبغى أن يذهب البتة الى القاهرة والحرب فيها قائمة .

ـ أراد أن يطمئن على متجره هناك وعلى الفضل ....

ــ بل أراد أن يطمئن على شيء آخر ••• أنا لا يعجبنى هذا العمل منه يا سمية وأخشى أن يناله منه شر •••

ــ كلا يا أماه ، لا خوف على أبى من ذلك •• فالناس يعلمون أن ليس بينه وبين عمى شاور الا صلة الصهارة ولا شيء غير ذلك •

وهنا تذكرت أم الفضل شقيقتها زبيدة زوجة شاور ، فانبرت تقول : « ترى ما حال أختى زبيدة الآن ؟ لابد أنها فى ذعر وقلق ! » •

قالت ذلك ثم وجمت كأنما ندمت على أن بدت من لسانها هذه الكلمة ، ولا سيما اذ نظرت الى وجه ابنتها فرأته قد اربد وجللته غاشية من الحزن واللوعة ، ثم أخذت عيناها تبرقان بالدمع ، وهى تزم شفتيها متجلدة تحاول أن تغلب البكاء ولكن اللوعة كانت أقوى منها ، فانهمر الدمع من عينيها ، وارتمت على فراشها تنشج وتنتحب ، ولم تستطع أم الفضل أن تحبس لوعتها هى كذلك ، فارتمت بجانب ابنتها تشاطرها البكاء والنشيج •

أما الجارية الوفية المخلصة فقد حارت لا تدرى كيف تواسى سيدتيها وكيف تسرى عنهما ، ولكنها لم تعجب لما حدث ، فهى تعرف السبب الذى بكتا ذلك البكاء من أجله ، بل تعرف أيضا أنه مصدر هذه العلة التى أصابت سمية فألزمتها الفراش •

انه القلق على حبيبها وخطيبها وابن خالتها شجاع بن شاور !

٤

ولم تكن أم الفضل تعلم حين أرسلت كلمتها معربة عن قلقها على شقيقتها ، أن شقيقتها قد تركت منذ ضحى ذلك اليوم دار الوزارة التى كان يقيم فيها شاور مع أهله وانتقلت بحاشيتها وخدمها وحشمها الى « بيت سعيد السعداء » الذى يملكه زوجها والذى كان قد نزل بأهله فيه أول مقدمه من الصعيد قبل أن يلى الوزارة بقليل .

وما كانت تعلم أيضا أن رجال ضرغام لم يتركوها وشأنها بعد ما تركت لهم دار الوزارة ، بل ظلوا يتعقبونها فى بيتها الجديد ، فطرقوا بابه عليها ليلا فروعوها وروعوا حاشيتها ، ثم اقتحموه ، فطفقوا يفتشونه حجرة حجرة وركنا ركنا وهم يبحثون عن شاور لعله أن يكون مختبئا فيه ، فلما لم يجدوا له أثرا ، أقبل رئيس الجماعة نحوها فى وقاحة وسوء أدب فقال لها فى غلظة وتهديد :

ــ خبرينا الآن يا هذه ... أين هرب زوجك ؟

فاستشاطت أم سليمان غضبا وصاحت فى وجهه :

ــ قبح الله من أرسلك ؛ ألم يجد رجلا غيرك يعرف كيف يخاطب النساء ويحترم آداب البيوت ؟

ــ ويلك أما تعرفين من أنا ؟

ــ من تكون ؟

ــ أنا همام بن سوار أخو ضرغام الذى ألصق أنف زوجك بالرغام !

ــ حقا قد نم عن أصلك سوء أدبك . والله لئن يكن أخوك مثلك ليكونن سبة هذا البلد الى الأبد !

ــ آه لو لم تكونى امرأة !

ــ ماذا كنت تصنع أكثر مما صنعت ؟

ــ خبرينى أين اختبأ زوجك ؟ !

ــ لو كنتم تفقهون لعلمتم أن أبا سليمان لايختبىءفى البيوت كالنساء .

ــ فأين ذهب ؟

ــ يا لك من أريب ألمعى ! ترانى قابعة فى بيتى وتسألنى أين ذهب ، ذهب ليضرمها نارا عليكم !

ــ هيهات ! لنمسكنه غدا فلنصلبنه على باب القنطرة !

ــ ان ظفرتم بأبى سليمان فلا تستشيرونى فيه !

فانتفض همام غضبا ، وتهدج صوته وهو يقول متشفيا :

ــ اذن فاعلمى يا أم سليمان أن سليمان قد ذبح .

فانتفضت أم سليمان جزعا ثم تجلدت وقالت :

ــ ان يكن ما تقول حقا فلا بأس، قد بقى لى طيىء وشجاع.

ــ وطيىء أيضا قد ذبح !

فوجمت أم سليمان هنيهة ونظرت الى من حولها من الحاشية فوجدتهم جميعا واجمين ، وكأنما أشفقت أن يقول لها : « وشجاع أيضا » فصمتت ولم تجب .

ولكن هماما مضى يقول : « ولولا أن ضرغاما أخى قد غلبه الكرم وهزته الأريحية لألحق شجاعا أيضا بأخويه » !

وهنا استعبرت أم سليمان اذ قطعت هذه الجملة كل شك عندها فى صدق ما سمعت ، فلو كان يريد ترويعها بالكذب لزعم لها أيضا ذبح شجاع . فلاذت بمنديلها تجفف به دمعها ، ثم التفتت الى همام وقالت له فى صوت هادىء :

ـ اذا رجعت الى أخيك ضرغام فبلغه عنى السلام وقل له : تقول لك أم شجاع جزاك الله عن ابنها خيرا ؟

فأطرق همام لما سمع هذه الكلمة كأنما يلوم نفسه على ما بدر منه فى حق هذه السيدة الثكلى من الغلظة والجفاء ، ثم رفع رأسه فى حياء ، وتمتم قائلا دون أن ينظر اليها :

ـ سأبلغه رسالتك يا أم سليمان !

قال ذلك وأومأ الى رجاله فخرجوا خلفه .

٥

وأشرق فجر اليوم الرابع فهب الناس فى القاهرة وفى الفسطاط على سماع أصوات الصائحين ، وبأيديهم الطبول يدورون فى كل حى وكل زقاق ، وقد اختلطت أصواتهم ودقات طبولهم بأصوات المؤذنين لصلاة الفجر ، وهم يرددون :

بيان للناس فى كل مكان
بأمر أمير المؤمنين العاضد لدين الله
شاور المخذول قد عزل
وتقلد الوزارة أبو الأشبال ضرغام .
الأمان مستتب فى كل مكان
ادعوا لمولانا العاضد بالنصر والتأييد

والعمر المديد السعيد !!!

وطفق أهل القاهرة يعلنون الفـرح والاستبشار ، وانطلقت حناجر النساء يرسلن الزغاريد،واستعد كثير من وجهائهم وأعيانهم للسـعى الى دار الوزارة ليرفعوا تهنئاتهم الى الوزير الجديد ثم الى القصر الشرقى ليعربوا عن ولائهم واخلاصهم للعرش والجالس عليـه .

وكأى من شاعر أخذ يقدح زناد فكره ، وطفق يتصفح أبواب المديح والتهنئة من دواوين الشعراء القدامى ، يحرك بها قريحته ، ويلتمس الوزن الذى يروقه أو القافيـة التى يستحسنها لينظم قصيدته الجديدة على المنوال الذى يرتضيه ، وهو يمنى نفســه بصلة من الخليفة أو منحة من الوزير ، وان كان لا يخفى جزعه من أن يكون جزاؤه على مديحته الخيبة والحرمان ، فقد تغـير الزمان ، وذهب الملوك والامراء الذين يهتزون لكريم القـول ويجيزون عليه ، على أن حسبه ـ اذا لم يجز على شعره ـ أن يغيظ حساده ومنافسيه من الشعراء ، فما ينبغى أن يتفوق أحدهم عليه ، فيذهب بفخر هذا اليوم المجيد دونه .

هب الجميع هكذا يعلنون الفرح والاستبشار لا عن حب للوزير الجديد أو ايثار له على سلفه الذى غرب نجمه ، ولا عن ولاء للخليفة أو اخلاص له ، ولكن بعضهم يفعلون ذلك جريا على العادة المتبعة فى مثل هذه الاحوال من حيث لا يشعرون ، وأكثرهم يقومون بذلك خشية أن يعـرف عنهم أنهم من المعادين لصاحب العرش أوالضائقين بأسرتهالحاكمة أوالمناصبين لمذهبها الاسماعيلى

الذى لم يستطع بعد مضى قرنين من الزمـان أن يزحزح المذهب السنى الذى يتمسك به أهل البلاد عن بصيرة وايمان .

وليس فى وسع هؤلاء الذين يقيمون بقاهرة المعز أن يجاهروا بكراهيتهم للعاضد وأسرته ومذهبه ، ماضين فى ذلك على سـنة آبائهم وأجدادهم الذين كانوا يؤثرون السـلامة بمجاملة هذه الاسرة ومداراتها أن يبطش بهم ، أو تتعرض مصالحهم للسوء ، ولا سيما فى عهود الاقوياء من خلفائها السـالفين الذين كانوا لا يتوانون عن القضاء على من يرتابون فى اخلاصـه لبيتهم أو يؤنسون لديه أى مناهضة لمذهبهم فى السر بله العلانية .

فكان أحدهم اذا ضاق ذرعا بهذه الحال . ولم يسـتطع بعد صبرا عليها ، انتحل عذرا من الأعذار ، يترك به القاهرة ، وينتقل بأهله الى الفسطاط مأرز السنة وملاذها العتيد وحصنها المنيـع حيث يستطيع أن يستروح شيئا من نسيم الحـرية . وان كان لا يأمن فيها أيضا أن تمتد اليه يد البطش والاضطهاد ، اذا لم يقتصد فى اعلان عداوته للبيت الحاكم وسخطه عليه .

أما أهل الفسطـاط أو مدينـة مصر ـ اذ كانوا يؤثرون أن يطلقوا هذا الاسم على مدينتهم ، ولهـذه التسمية دلالتها كأنهم لا يريدون أن يعترفوا بأن القاهرة عاصمة القطر كله . وانما هى عاصمة هذه الدولة القائمة ، وستدول يوما ما كما دالت من قبلها دول ، فأما العاصمة الباقية الثابتة على الأيام فهى مدينتهم العتيقة المجيدة التى كانت أول مدينة أسسها الاسلام على التقوى فى هذا الوادى الأمين ، أول ما أشرق فى سمائه نوره ، فخليق بها أن تكون

عنوانا لهذا القطر الكريم . وأن تحمل هذا الاسم الحبيب الذى اختصه الله بالذكر فى محكم كتابه فزاده شرفا على شرف - أما أهل هذه المدينة فقد وجموا لسماع النبأ ، ثم أخذوا يتباثون حزنهم وأسفهم لما وقع . اذ أدركوا ببصيرتهم أن ضرغاما لم ينتصر حين انتصر ، وانما انتصر العاضد . فهو الذى دفع ضرغاما من وراء الستار للوثوب على شاور حينما رأى أن شاور قد سطع نجمه وزادت قوته على الحد الذى ينبغى فى رأيه ألا يتجاوزه ، لئلا يتعرض سلطانه هو للخطر . فهو يعلم كره الشعب له خاصة، ولحكم أسرته عامة ، وأن هذا السخط يتضاعف على الأيام ، ولا يؤمن أن ينفجر يوما فيأتى على عرشه وعرش آبائه من القواعد .

فلتكن سياسته اذن أن يوازن بين القوى ويضرب بعضها ببعض فيؤيد اليوم هذا الزعيم ليضرب به زعيما آخر يخشى منه، ثم يعود فيضرب هذا الزعيم بزعيم جديد وهكذا دواليك . وقد خيل اليه أنه بذلك يستطيع أن يلهى الناس عنه ويصرفهم عن السخط عليه بما يشغلهم به من الاهتمام بتطاحن هؤلاء الزعماء وتنافسهم على كرسى الوزارة . ذلك الكرسى الذى يتزعزع على الدوام ولا يثبت لوزير الا ريثما يزيحه عنه وزير ، والعرش من وراء ذلك ثابت لا تناله الزعازع ولا ترقى اليه الخطوب .

وكان أشد ما يريب العاضد من أحد الوزراء وأقوى ما يدفعه الى الكيد له والسعى لاسقاطه أن يرى منه تقربا الى الشعب وتزلفا له بما يقوم به من اصلاح أو عمران يعود بالنفع على عامته . فهو حينئذ يظهر الرضا عن هذا الوزير ما ظل ينسب فضل هذا العمل

الى الخليفة ويضيفه الى مآثره ومآثر أسرته . حتى اذاما آنس من الناس ميلا الى الوزير واقبالا عليه وأنهم لا يعترفون بالفضل الا لصاحبه وأن كرههم للعرش باق كما كان فانه لا يمهله حينئذ بل يعصف به ويقضى عليه بنفس الطريقة التى أقعده بها على كرسى الحكم .

٦

ولقد بلغ من كره الناس للجالس على العرش أن كانوا ربما يضيقون بوزير من الوزراء ، ويبغضونه أشد البغض وتلعنه ألسنتهم وقلوبهم ثم يتفق أن يضطهده العاضد لأمر ما ، فاذاقلوبهم تعطف عليه وتأسى لما أصابه . وكذلك كانوا ربما يحسنون الظن بأحد الكبراء ، ويصفونه الحب حتى اذا ما رأوا الجالس على العرش قد قربه اليه واجتباه ، أساءوا الظن به وأبغضوه .

وانهم ليذكرون ــ وما بالعهد من قدم ــ كيف ضاق العاضد ذرعا بوزيره الاسبق طلائع بن رزيك ، لما سمع الناس يلهجون بالثناء عليه ، لما رأوا من عدله وكرمه واهتمامه بما يصلحهم ويسعدهم فما لبث العاضد أن أوعز سرا باغتياله ، اذ لم يكن له سبيل الى التخلص منه الا بالقتل . ثم كيف أنه أراد تسكين خواطر الناس بعد مقتله فأسند الوزارة الى ابنه رزيك بن طلائع . ولم يلبث أن ضاق برزيك أيضا ، فما شعر الناس الا بشاور بن مجير السعدى يتحرك من الصعيد حيث كان عاملا على قوص ، ويقدم الى القاهرة فيحارب رزيك حتى يغلبه ، ثم يقتله فيوليه العاضد الوزارة مكان الوزير القتيل ابن الوزير الشهيد .

وانهم ليذكرون كيف استقبلوا عهد شاور أول ما ولى الحكم بالتذمر والسخط دون أن يعرفوا من سيرته وطباعه شيئا الا أن العاضد قد اصطنعه واتخذه أداة لتحقيق غرضه، فكان هذا وحده كافيا أن يحملهم على بغضه والازراء به .

غير أن ذلك لم يستمر طويلا ، فسرعان ما نسى الناس أو تناسوا أن العاضد هو الذى اصطنعه ، منذ بدأ شاور يستقل شيئا فشيئا بسياسته عن سياسة مولاه ، فأخذ يتحبب الى الشعب بما يظهر من الاهتمام بمصالحه ، ويتصل بذوى الرأى من العلماء والوجهاء ، ونقباء التجار والصناع وأهل الحرف ، يفتح لهم بابه ويستمع الى مشورتهم ومقترحاتهم وشكاواهم ، فيحقق لهم ما يستطيع من ذلك ، ويعتذر عما لا يستطيع ، متلطفا فى ذلك مفضيا اليهم بالتلميح والايماء أنه ليس مطلق اليد ، كما يظنون ، وأن القصر قد يعترض على بعض ما يقترحون ، فينصرفون من عنده وقد وقر فى قلوبهم ، أن هذا العرش القائم فى بلادهم انما يبقى ليحول دون ما يبتغون .

ولم تكن عين الخليفة غافلة عن شاور . فللخليفة عيونه وجواسيسه الذين ينقلون اليه كل ما جل ودق من أخباره : كيف يتصل بذوى الرأى من الشعب ويتحبب اليهم ، وكيف يعمل على تأريث عداوتهم للقصر بذلك الاسلوب الخفى الناعم الذى يجيده شاور والذى يسوقه لهم مساق العذر للخليفة ونفى اللوم عنه فى أغلب الأحيان . حتى اذا أتيحت له فرصة للافضاء بذات نفسه أمام قوم يأمن جانبهم من الساخطين على العرش المتذمرين

من سوء الحالة كشف لهم عن حقيقة رأيه فى الخليفة ، ووعدهم بقرب الخلاص وأوصاهم بالصبر والكتمان ، حتى يحين الأوان المناسب للوثوب وتغيير الحال .

وكان العاضد قد استعد لمثل هذا الاحتمال حتى قبل أن يبلغه عن شاور ما بلغه ، فلم يكد شاور يتربع على دست الوزارة حتى شرع العاضد يبحث عمن يمكن أن يخلفه فى الحـكم اذا دعت الضرورة للتخلص منه :

ومن أصلح لهذا الغرض من ضرغام بن سوار .. ذلك القائد الشجاع الذى يحمل القلم ، والأديب الشاعر الذى يحمل السيف؟ نعم ان ضرغاما كان من صنائع الوزير الأسبق طلائع بن رزيك . فطلائع هو الذى عرف فضله فرفع قدره وجعله مقدم العساكر ، وقد أبت مروءة ضرغام وشهامته الا أن يعلن سخطه واستياءه يوم اغتيل طلائع ، ثم ينحاز الى ابنه رزيك بعد ذلك فى العراك الذى دار بينه وبين شاور متحديا بذلك رغبة الخليفة حتى استوجب بذلك غضبه وغضب وزيره ، فأقصاه شاور عن منصبه فى قيادة العساكر .

ولكن ذلك لم يمنع العاضد حين احتاج الى ضرغام أن دعاه اليه فأعلن عفوه عنه وشمله برضاه وقال له : « انى راجعت نفسى فى أمرك فوجدتك غير ملوم فى تعصبك لآل رزيك عرفانا منك لفضلهم عليك ، وقد ساءنى اقصاؤك عن منصبك ، ولكن لا حيلة لى فى ذلك ما بقيت تجهر بعداوتك لشاور » ! فأجابه ضرغام :

« ان كان مولانا يريد منى أن أخضع لوزيره شاور حتى يعيدنى الى منصبى فانى أشكر عنايته وأستعفيه .

ـ كلا لا أريد أن أكرهك على الخضوع لمن لا تحب ... سأسند اليك منصبا أفضل . سأجعلك رئيس حرس القصر اذا أحببت .

وأدرك ضرغام ما يرمى اليه العاضد . ووجد فيما اقترحه سبيلا الى الانتقام من عدوه شـاور ، اذا واتته الظروف فى المستقبل . فأعلن قبوله للمنصب .

واستاء شاور لمـا بلغه أن الخليفة قد ولى ضرغاما رياسة حرس القصر دون أن يستشيره فى أمره..ولكنه لم يشأ أن يعترض على هذه التولية لعلمه أن اعتراضه لن يجديه شيئا . فقد أدرك هو أيضـا مرمى الخليفة من ذلك ، فآثر أن يغض الطرف عنه ، بل رأى من الكياسة أن يبدى رضاه وموافقته ، غير أنه استعد منذ ذلك الحين لمواجهة ما يسفر عنه المستقبل ، اذا بدا للخليفة أن يثير ضرغاما عليه .

٧

وكان لهذا العمل من الخليفة أثره فى دفع شاور الى المضى قدما فى السياسة التى انتهجها ، تلك التى تقوم على التودد الى الشعب والاتصال بزعمائه ونقبائه ليكونوا له ردءا يوم يجد الجد ولا يجد محيصا من تحدى القصر .

ولم يعرف قبل شاور وزير بلغ فى مناهضة سلطان القصر وتأليب الناس عليه فى السر ، ذلك المدى الذى بلغه شاور . ذلك أنه كان أبلغ ادراكا ممن سبقوه ، وأصح فهما لما يعتلج فى نفوس طبقات الشعب من الضيق والسخط ، وقد أعانه على ذلك اتصاله بأبى الفضل الحريرى منذ شبابه الأول ، اذ تجمعهما رابطة الصهارة ، فزوجته زبيدة هى شقيقة أمينة زوجة أبى الفضل . وأبو الفضل هذا فيما يعرف الناس تاجر كبير من تجار الحرير لا تقتصر تجارته على القطر المصرى وحده ، بل تبلغ الى بلاد الشام والعراق والى الحجاز واليمن وطرابلس الغرب ، وله عملاء من تجار تلك البلاد يراسلهم ويراسلونه ، ويتبادل معهم البضائع والسلع . وقد تردد الى تلك الأقطار كثيرا وتجول فيها ، ولا سيما بلاد الشام . ولكنه فيما يجهل الناس ثائر قديم ، يضطرم غيرة على وطنه مصر خاصة ، وعلى بلاد العرب والاسلام عامة ، وهو يتلظى سخطا ، لما وصلت اليه الحال فى بلده من طغيان القصر وفساد الحكام من الوزراء والمستوزرين ، وبغى الجند وضياع مصالح الشعب ، فاذا خلا الى خاصة أصحابه ممن يثق بهم اندفع كالبركان

يندد بهذا الفساد ويدعو الى تغيير الحال ، وينذر بسوء المصير ، ولكنه حريص على الكتمان يبالغ فى الحذر والحيطة ويؤمن أن النجاح حليف السعى الدءوب المتواصل .

وقد استمع شاور الى كثير من آرائه وأحلامه منذ كان قائدا صغيرا من قواد الجند فى القاهرة ، قبل أن ينتقل الى الصعيد الأعلى عاملا على قوص . فلما رجع الى القاهرة وتولى الوزارة مكان رزيك ، عاد اتصاله بأبى الفضل كما كان ، بل زاد قوة لأن أبا الفضل كان يأمل أن يتحقق على يد شاور كثير من الاصلاح الذى يحلم به ، ولكنه ظل يكتم عنه من باب الاحتياط وجود جماعة من أصفيائه ، سماهم « جماعة المصلحين » قد تخيرهم على مر الأيام واستطاع أن يجمعهم حوله من مختلف طبقات الشعب ، فمنهم الفقيه والمتصوف والكاتب والخطيب فى الجامع والمحتسب ، وفيهم التاجر والسقاء والجزار ، قد تعاهدوا جميعا على القيام بحركة سرية ثابتة منظمة ترمى الى تخليص البلاد مما فيها من الفساد .

فلما بدأ شاور ينتهج سياسته الجديدة ، لقى كثيرا من تأييد أبى الفضل وتشجيعه ، وأفاد من رأيه ومشورته ، وتردد عليه نفر من أولئك الجماعة ، فسمع منهم وسمعوا منه ، دون أن يعرف تلك الرابطة الخفية بينهم ، بل كان لا يدرى أن كاتب انشائه عبدالرحيم بن على البيسانى المعروف بالقاضى الفاضل كان من هؤلاء

وكان شاور خليقا أن ينجح فى سياسته هذه ، فقد كان شجاعا مقداما وكان ذكيا داهية ، وكان قوى العارضة ، فصيح القول ، ناصع الحجة ، يستطيع أن يقنع من يشاء بما يشاء فى كلمات قليلة

معدودة ، يرسلها فتجرى أحيانا مجرى الأمثال تؤثر عنه ، وتحفظ ويكون لها صدى عميق فى نفوس السامعين . وكان كريما سخيا من ذلك الطراز النهاب الوهاب الذى يحب المال حبا جما ، لا ليجمعه أو يؤثله ، بل لينفق منه ويتكرم به ، ويصطنع به الرجال والأعوان ، ثم كان مديد القامة عريض المنكبين ، مفتول الذراعين ، شامخ الأنف ، واسع العينين ، بشوشا أنيسا اذا رضى ومرهوبا اذا غضب .

ولكنه كان ضعيفا فى محاسبة أبنائه ، لشدة حبه لهم ، فاستغلوا نفوذه وسلطانه ، فأطلقوا آيديهم فى أموال الدولة وأموال الشعب بما يتحيفون من الأوقاف آو الصدقات العامة ، ويتقبلون من الرشا والهدايا على قبول الشفاعات ، وتولية المناصب ، وتنفيذ الأحكام ، وجر المغانم ، أو دفع المغارم . وجرى على آثارهم فى ذلك بعض حاشيته وبطانته حتى ضج عقلاء الأمة منهم . وكان شاور يسمع ويرى ولكنه كان يتغاضى عنهم ، فاذا عوتب فى ذلك انتحل لهم المعاذير ، أو وعد بأنه سيردعهم عن ذلك ، ولكنه لا يفعل شيئا ، حتى اذا اشتد النكير عليه من بعض خواصه ، قال لهم :

ـ دعوهم ... هذه دولة أبيهم ... فاذا لم يجمعوا فيها . فمتى يجمعون ؟

ثم كان يقول لهم :

ـ حدثونى عن وزير واحد لم يأخذ أبناؤه وحاشيته من أموال الدولة فى عهده شيئا ...

وكان أشد الناس نكيرا عليه أبو الفضل ، فطالما لامه وعنفه وأنذره بسوء العاقبة وذكره بالعهد الذى قطع على نفسه بأن

يستن سنة الاصلاح فى وزارته ، فكان شاور يقبل رأسه وما بين عينيه وهو يقول متلطفا :

ـ يا أخى ، يا أبا الفضل... انك ترانى لم أجمع لنفسى شيئا.. أما أبنائى ـ وهم أبناؤك ـ فليسوا ملائكة..وهم يرون نظراءهم من أولاد الوزراء .. فلا يريدون أن يكونوا دونهم . وعامة الناس بخير لا يشكون شيئا .. وما يلغط بالنكير والتشهير غير الحساد !

ولم يعد شاور الحقيقة حين قال ان عامة الناس لا يشكون من ذلك ولا ينكرون عليه ، فقد صار عندهم أمرا مألوفا وحقا مشروعا ، وحسبهم عرفانا لجميل شاور أنه أسقط عنهم بعض الرسوم وخفض بعض الضرائب .

ولم يقتصر أبو الفضل على نصيحة شاور ، بل اتصل بأبنائه الثلاثة ينصحهم ويعنفهم ، فكان سليمان وطيىء يعدانه بالكف مرة بعد مرة دون أن يكفا ، ثم صارا يتهربان من لقائه لئلا يحرجهما أو يحرجاه ، ولكن شجاعا وهو أصغر الثلاثة قد استمع لنصحه فكف أو اقتصد ، لأنه كان أطهرهم نفسا ، وأرقهم شعورا ، وأميلهم الى الخير والاستقامة ، ولأنه كان كثير التردد على بيت أبى الفضل شديد الاعجاب به والتوقير له ، ولأنه فوق ذلك كله كان يحب سمية !

وقد تزعزعت ثقة أبى الفضل من جـراء ذلك بشاور ، وقل أمله فيه ، ولكنه لم يفقدهما جملة ، فما زال يرى فى شاور أجرأ وزير على مناهضة القصر للحد من طغيانه ، ويرى فى عهده أصلح عهد لنمو الحركة السرية التى يقوم بها هو وأصحابه .

ولكن العاضد ، وهو يرقب سياسة شاور فى قلق ، ويتربص لاسقاطه ، قد وجد فيما ارتكبه أولاده معينا عليه ، وبشيرا له بأن الساعة قد حانت ، فما هو الا أن وثب ضرغام وثبته تلك ، فاذا نصف جنود الدولة قد صاروا فى صفه ، واذا البرقية - وهم من أقوى الفرق وأشجعها - قد وثبوا على أبواب العاصمة واحتلوا حصونها فسيطروا على الموقف ، وأعلن ضرغام أنه مؤيد من العاضد ، فتخاذل أنصار شاور من أول يوم ، وطفقوا ينحازون عنه حتى لم يبق معه منهم الا قليل . وأدرك شاور فى اليوم الثالث أنه سيحاط به ان بقى فى العاصمة فيقبض عليه ، فجمع أولاده الثلاثة وجماعة من رجاله الأوفياء وفرسانه الشجعان فانطلق بهم صوب الشمال ، فهاجموا باب الفتوح ، واشتبكوا مع حاميته فى قتال عنيف استطاع شاور فى خلال ذلك أن ينجو بنفسه دون أن يلحظه أحد ، وكان فارسا لا يشق له غبار ، فاختفى من موضع المعركة فى طرفة عين .

وقبض على من بقى من جماعته ، ومنهم أولاده الثلاثة ، فسيقوا الى ضرغام فعذبهم ليستخرج منهم سر شاور : أين ذهب ، فلما أعياه ذلك منهم أمر بهم فقتلوا جميعا الا شجاعا ، فقد أبقى عليه ، واكتفى بحبسه فى دار الوزارة .

وانطلق رجال ضرغام يبحثون عن شاور فى كل مكان ، فقد كان العاضد حريصا على قتله ، ولا يأمن مكره ، الا اذا رأى رأسه محمولا اليه فى طبق ، ولكنهم حتى آخر الليل لم يعثروا له على أثر ، ولم يتضح لهم أنه هرب الى الشام الا بعد ذلك بيومين .

٨

واستاء العاضد كثيرا لمـــا علم بنجاة شاور ، وأنحى باللائمة على ضرغام اذ لم يستطع رجاله أن يقبضوا عليه ، غير أنه سرى عنه قليلا اذ تذكر أن خروج شاور من القطر كان أهون على كل حال مما لو اعتصم بالصعيد ، فالتجأ الى أشياعه هناك . اذن لربما استطاع أن يجمع منهم ومن عربان الصحراء جيشا فيكربهم على القاهرة كما فعل من قبل حين أوعز اليه العاضد ليقضى به على وزيره رزيك .

وما كان يعلم حقيقة مقصد شاور من هربه الى الشام اذ ذاك غير أبى الفضل وجماعته المصلحين . ذلك ان أبا الفضل كان فى دكانه بالفسطاط حين بلغه وثوب ضرغام ، ولم يكد يقفل دكانه ويعود الى داره حتى هاله ما سمع من رجحان كفة ضرغام من أول يوم ، فأشفق أن يقضى على شاور فيقضى على الأمل الذى عقده عليه ، فبات مؤرقا طول الليل ، لم تكتحل عينه بنوم ، وأخذ يستعرض ما انتهت اليه الأمور ، وما يتوقع أن تنتهى اليه إذا تمت هزيمة شاور . فسيزداد العاضد طغيانا ، وسترسخ قواعد عرشه القائمة على الفساد ، وستظل البلاد ترزح تحت نيره فى حالتها الفوضى ، حتى تفضى بها فى يوم قريب أو بعيد الى الكارثة ، وما أدراك ما الكارثة : سقوط مصر ، هذه القلعة الكبرى الباقية للاسلام فى أيدى أعدائه المغيرين من فرنج الشام ، ويومئذ تكون الطامة الكبرى .

فلما أصبح الصباح قال لأهله أنه ذاهب الى القاهرة ليزور ابنه الفضل ويطمئن على متجره الكبير هناك ، فحاولت أم الفضل أن تثنيه عن ذلك خوفا عليه من خطر الحرب القائمة ، فشرح لها ضرورة ذهابه وأكد لها ألا خوف عليه ، وكانت تعلم أن زوجها اذا صمم على أمر فلا سبيل الى رده ، ففوضت أمرها الى الله وابتهلت اليه بالدعاء أن يصون زوجها من السوء . ونظر أبو الفضل الى ابنته سمية ، فلمح عبرة تترقرق فى عينيها ، فأدرك ما يعتلج فى قلبها ، فدنا منها ومسح رأسها بيمينه ، وهمس فى أذنها قائلا :

ــ لا تقلقى عليه ... فستنتهى الأمور الى خير .

فتورد وجهها حياء وغضت طرفها وهى تقول :

ــ صانك الله يا أبى ... سلم لى على أخى الفضل .

وتوجه أبو الفضل على بغلته الشهباء صوب القاهرة ، وأمامه خادم يخب أمامه فى الطريق حتى بلغا باب زويلة فحمدا الله اذ وجداه فى أيدى رجال شاور بعد ، فلما رأوه أوسعوا له ، فاكتفى بتحيتهم ومضى فى سبيله يتوخى الدروب الصغيرة الآمنة من المدينة ، ويصل الى سمعه الفينة بعد الفينة حس الفرسان يطارد بعضهم بعضا فى الشوارع والسكك ، حتى بلغ سالما الى دار ابنه الفضل .

وهى دار كبيرة لها عدة مداخل من أزقة مختلفة ، وتشتمل على قاعات متعددة وحجرات كثيرة تفصل بينها دهاليز وأبواب معظمها مخازن لحفظ السلع والبضائع ، وتتوسطهما القاعة



ـ لا تقلقى عليه ‥ فستنتهى الأمور الى خير ٠

فتورد وجهها حياء وغضت طرفها وهى تقول :

صانك الله يا أبى ‥ سلم لى على أخى الفضل ٠

الكبرى لاستقبال العملاء ، وعرض السلع عليهم . ويقيم الفضل وأهله فى الطبقة العليا من هذا الربع .

وفى هذه الدار كان أبو الفضل يعقد اجتماعاته مع أصحابه المصلحين يدخلونها فرادى من أبوابها المختلفة ، كأنهم من زوار الفضل أو من عملائه ثم يجتمعون فى قاعة جوانية يغلقون عليهم بابها ، فلا يشعر بوجودهم أحد .

ولم يكن بالربع أحد من الزوار والعملاء اذ ذاك ، فقد أقفلت الحوانيت ولزم الناس دورهم ، فلما دخل أبو الفضل وصاحبه تلقاهما ابنه الفضل مرحبا ، ثم أخبره والده أن بعض الجماعة قد حضروا من الصباح وهم مجتمعون فى قاعتهم ينتظرونه ، فالتفت أبو الفضل الى صاحبه قائلا :

ـ اسبقنى يا نعمان اليهم وسألحق بك ...

وصعد أبو الفضل مع ابنه فحيا زوجته وأولاده وجلس معهم قليلا ثم نزل الى قاعة الاجتماع ، فاذا ثلاثة منهم رابعهم السقاء الذى قدم معه من الفسطاط ، أما الثلاثة فهم نجم الدين الخبوشانى الصوفى الزاهد ، وأبو الليث المحتسب ، وابن حكيم امام الجامع الأقمر .

ـ الحمد لله اذ وجدتكم هنا ...

ـ لقد توقعنا أن تحضر فحضرنا ...

ـ نعم ما فعلتم .

وأخذ الجماعة يتحدثون عن المعركة القائمة ، ويروى بعضهم

لبعض ما سمعوا من أخبارهم وتطوراتها حتى اذا انتهوا من ذلك ، التفت اليهم أبو الفضل وسألهم :

ـ ماذا ترون الآن ؟ ماذا ترى يا نجم الدين ؟

وكان نجم الدين مستغرقا فى تسبيحه وهو يقلب حبات سبحته كالذاهل ، فكأنما انتبه من ذهوله : حين التفت الى أبى الفضل فقال:

ـ الرأى رأيك يا أبا الفضل ... فتكلم أنت .

ـ بل تكلم أنت أولا فاننا نتبرك بحديثك ...

فوضع نجم الدين سبحته وأخذ بطرف لحيته يمسحها ويقلب شعراتها وهو يقول :

ـ يفعل الله ما يشاء ... ولله حكمة فيما قضى ... وانكم لتعلمون رأيى فى شاور ... فلست آسف عليه اذا غلب ...

فقال ابن حكيم :

ـ وهل يعجبك ضرغام يا نجم الدين ؟

ـ انا لم نجربه بعد ، وقد جربنا شاور فوجدناه رجلا يعتبر البلد ضيعة له ولأولاده ...

ستترحمون غدا على عهد شاور اذا بلوتم عهد ضرغام !

ـ من يدرى ؟ يقال انه ذو عفة وشهامة ، وفى موقفه من آل رزيك مصداق لذلك .

ـ قد باع نفسه للعاضد بعد ذلك .

فتنحنح أبو الفضل حينئذ وقال :

ـ ماذا يعنينا الآن أن نوازن بين شـاور وضرغام ؟ ان علينا أن نقرر ماذا نصنع ؟

فقال أبو الليث مؤيدا :

ـ أجل يا قوم ، قرروا ماذا نصنع .

ـ اذا شئتم درت على أصحابنا من نقباء أهل المهن والحرف ليهيبوا برجالهم الى عمل شيء ...

قال نجم الدين :

ـ ويحك يا نعمان . الام تريد أن تدفع بهؤلاء ؟ الى قتال الجند؟

فقال ابن حكيم :

ـ ولم لا يا نجم الدين ؟ انهم يقدرون أن ينتصروا لمن نريد !

ـ بأى شيء يا ابن حكيم ... بهراواتهم وعصيهم ؟

فقال نعمان :

ـ لعلك لا تعلم يا سيدى الشيخ أن كثيرا منهم قد اقتنوا السيوف والحراب ، وعندهم جميعا الشفار والفئوس !

فقال أبو الفضل :

ـ كلا يا نعمان ... لم يحن أوان مثل هذا العمل بعد ، ثم انه لا فائدة منه اليوم بعد ما ظهر أن كفة ضرغام هى الراجحة ...

فقال ابن حكيم :

ـ رجحت كفة ضرغام لأن العاضد معه ولم ينتصر لشاور أحد . حتى عامة الناس الذين من أجلهم ناهض شاور القصر أسلموه وتركوه لعدوهم العاضد! حتى نحن الذين أيدنا سياسته صرنا اليوم لا نأسف عليه اذا غلب ...

ـ بالله يا ابن حكيم لا تسىء فهم ما أريد . انى ما أتحامل على شاور لأمر بينى وبينه ، ولكننا نرمى الى التخلص من حكم

العاضد وأسرته ، وليس شاور بالرجل الذى يصلح للنهوض بهذا الأمر ...

فسأله ابن حكيم :

ــ ومن يصلح لذلك ؟

ــ لا أدرى متى يقيضــه الله لنا ، ولكنه لن يكون شاور بحال ... لأنه لو نجح لأقام من نفسه عاضدا جديدا .

ــ أتعلم الغيب يا نجم الدين ؟

ــ الله وحده يعلم الغيب ، ولكنى أتفرس ذلك وأتوسم من طباعه وفعاله ...

فقال أبو الفضل :

ــ أنا أيضا لا أثق بشاور كل الثقة ... ولكني أرى عهده ذا فائدة لنا اذ يدنينا خطوة مما نريد .

فسأله نجم الدين :

ــ واليوم يا أبا الفضل ، أما زلت تراه كذلك ؟

ــ نعم ... بل لعلنا نستطيع أن نفيد منه اليوم أكثر مما أفدنا منه أمس ...

ــ كيف ؟

ــ ألا تذكرون خطر الفرنج الذى يتهددنا من الشرق ؟

فأجابوا جميعا : بلى !

واستطرد نجم الدين قائلا :

ــ هذا بلاء عظيم قد وقع علينا منذ وطئت أقدامهم أرض

الشام الى أن تمكنوا من معظم مدنها وسواحلها ، وقد أكل الثور الأحمر يوم أكل الثور الأبيض !

قال ابن حكيم :

ـ صدقت يا نجم الدين ، ولولا نور الدبن فى دمشق لما تأخر زحفهم الى بلادنا حتى اليوم ...

ـ بل قد زحفوا على بلادنا بالفعل يوم اقتطعوا منها عسقلان ، فلم نحرك ساكنا ، ثم فرضوا علينا الجزية ثلاثة وثلاثين ألف دينار فى السنة فقبلناها صاغرين !

فقال أبو الفضل :

ـ هذا بيت القصيد يا قوم ... لعلكم تذكرون أننى طالما حدثتكم أن وجود هذا العدو الدخيل فى فلسطين وسائر بلاد الشام قد جعل مصير الأقطار العربية واحدا مرتبطا بعضه ببعض. ولن يتم لها الخلاص من هؤلاء الدخلاء الا اذا تعاونت جميعا على اخراجهم وطردهم ...

قال ابن حكيم :

ـ هذا حق ، ولكن أكثر الناس هنا لا يدركون هذه الحقيقة.

قال أبو الفضل :

ـ الفرنج أنفسهم يدركونها ويدركها أيضا نور الدين ...

فقال نجم الدين :

ـ لكن خبرنى يا أبا الفضل هل يدركها شاور صاحبك ؟

ـ أظن أنه قد صار يدركها بعد ما كلمته كثيرا فى هذه المسألة.

ـ فماذا فعل ؟ هل قطع الجزية عنهم ؟

ـ لم يحل موعد دفع الجزية فى عهده .

ـ هل بعث الى نور الدين فى أمر هؤلاء للتعاون معه على دفعهم ؟

ـ كلا ما فعل شيئا من ذلك ...

ـ أفترجو يا أبا الفضل أن يفعل شيئا اليوم من ذلك ؟

ـ نعم ...

فعجب نجم الدين من جوابه كما عجب الآخرون ، ولكن أبا الفضل مضى يقول :

ـ انى فكرت البارحة فى الأمر ، فرأيت أن شاور منهزم لا محالة ، فماذا لو انتهزنا هذه الفرصة فأشرنا عليه أن يهرب الى الشام ويستنجد بنور الدين ...

ـ على من ؟ على العاضد اذ طرده من الحكم ؟

ـ نعم ...

ـ وهل يوافق نور الدين ؟

ـ أرجو أن يوافق ، ولا سيما اذا شرح له شاور حقيقة الحال فى مصر ووجوب اصلاحها وتقويتها خشية أن تقع فى أيدى الفرنج .

فاستصوبوا جميعا هذا الرأى الا نجم الدين فانه استدرك قائلا :

ـ لو قام بهذه السفارة رجل غير شاور ... فانى أخشى ألا ينال ثقة نور الدين الخبير بالرجال ...

فقال أبو الفضل :

ـ لا تنس يا نجم الدين أن شاور هو النائحة الثكلى فى هذا

الشأن ... وليست النائحة الثكلى كالمستأجرة ، ومهما يسوء رأيك فيه فلن تستطيع أن تنكر حسن بيانه وقوة حجته .

ـــ أجل انه يقدر أن يلبس الباطل ثوب الحق ...

ـــ فأحر به أن يقدر على الباس الحق ثوب الحق ، ولا سيما لرجل مثل نور الدين حريص على أن تتاح له مثل هذه الفرصة لتحقيق ما يصبو اليه من توحيد كلمة العرب والمسلمين ...

فاستنار وجه نجم الدين وقد انشرح صدره ، فقال وهو يضرب بيده على كتف أبى الفضل :

ـــ الله ... الله يا أبا الفضل، ان الله اذ جعل الاخلاص يتقد فى قلبك قد جعل الحكمة تقطر من لسانك ...

ثم أخذ القوم يتشاورون كيف يتصلون بشاور ليفضوا اليه بذلك الأمر ، على أنه مشورة من أبى الفضل وحده ، وأن أبا الفضل يعده بأن يكاتب نور الدين من ناحيته وبوسائله الخاصة مؤيدا طلب شاور ومؤكدا وجوب نصرته ، الى أن اتفق رأيهم على أن ينتدب نعمان السقاء لابلاغ ذلك الى شاور عن طريق كاتبه القاضى الفاضل .

٩

كان شاور قد أيقن بالهزيمة واعتزم الفرار الى الصعيد ليحتمى بأشياعه هناك ويستنجد بهم ، وقد أخذ يعد العدة لذلك ، فأخبر أبناءه الثلاثة بعزمه ، وأوصى زوجته بأن تترك دار الوزارة من الغد ، وتنتقل بحاشيتها الى دار سعيد السعداء . فلما أسر اليه القاضي الفاضل برسالة أبى الفضل جعل يوازن بين الخطتين أيتهما أفضل ، وكان أكثر ميلا الى الخطة الأولى لولا أن القاضى الفاضل جعل يراجعه جهده ، ويشرح له مزايا الخطة الثانية حتى اقتنع بها بعد لأى . وأوصاه القاضى الفاضل أن يكتم وجهته هذه حتى عن أولاده خشية أن يقع أحدهم فى قبضة ضرغام فيستخرج منه سره بالقوة والتعذيب ، فعمل شاور بنصيحته ، فلم يعلم بوجهته يوم نجا بنفسه أحد غير شجاع ابنه ، أسر اليه بذلك القاضى الفاضل دون علم شاور ليحمله بذلك على شد أزر أبيه والاجتهاد فى معاونته على تحقيق مهمته ، وهو على ثقة أن شجاعا يؤثر أن يلقى الموت على أن يبوح بسر خطة أشار بها أبو الفضل .

وقد تحقق ما قدره القاضى الفاضل حينما وقع أولاد شاور وبعض فرسانه فى الأسر ، فأمر ضرغام باستنطاقهم وتعذيبهم ، فأقروا جميعا أن شاور قد اعتزم الفرار الى الصعيد ما خلا شجاعا ، فقد لزم الصمت ولم ينطق بكلمة ، واحتمل العذاب فى صبر وشجاعة الى أن حضر ضرغام ، فلما رأى ذلك أمر فعزل شجاع من بينهم وقتل الباقون .

وعجب رجال ضرغام ، ومن بينهم أخواه همام وحسام ، لمــا علموا أن ضرغاما قد نقل شجاع بن شاور من الحبس فأنزله عنده فى دار الوزارة ، الا أنهم ظنوا فى أول الأمر أنه يريد أن يستنطقه بنفسه ، ثم يقتله بعد ذلك ، ولكن أخويه وبعض خاصته ما لبثوا أن علموا أنه بالغ فى تكرمته وحسن معاملته ، حتى اختار له نفس الحجرة التى كان يقيم بها من الدار فى عهد أبيه ، وأمر بتوفير كل ما يحتاج اليه من أسباب الراحة ، فكان لا ينقصه شىء الا أنه معتقل فى ذلك الجناح لا يغادره • وكان ضرغام يدخل عنده الفينة بعــد الفينة فيقضى معــه بعض الوقت يؤانسه ويطيب خاطره ثم يخرج •

قال له حين دخل عليه ثانى يوم بعد ما اعتذر له عما أصابه من مس السياط :

ــ أتدرى يا شجاع لمــاذا صنعت بك هذا من دون أخويك ؟

فأجابه شجاع فى شىء من السخرية :

ــ لعلك تعمل بسنة الأريحيين الكرام ••• اذا ملكت فاسجح

ــ كلا يا شــجاع ••• لو كنت كذلك لأبقيت على أخــويك أيضا • ولكنك أسديت الى يدا ••• فأردت أن أجزيك عليها •••

ــ أى يد تعنى ؟

ــ ان كنت حقا لا تذكرها •• كان ذلك أعظم لك فى نفسى • ألا تذكر كلمة قلتها لأبيك يوم أراد أن يقصينى من منصبى فى قيادة العساكر ؟

ـ بلى تذكرتها الساعة ... ولكنا كنا وحدنا اذ ذاك ... فكيف علمت ؟

ـ قد بلغتنى من بعض من حضر فحفظتها لك ...

ـ ولكنها لم تصنع لك شيئا ...

ـ هـذا ذنب أبيـك .. وليس بذنبـك .. وأنا لا أنسى الحسنة يا شجاع كما لا أنسى السيئة .

وسكت ضرغام قليلا وهو ينظر الى الفتى ، كأنه يريد أن يتبين أثر كلامه فيه ، فرآه قد وجم وسرح ذهنه فى أودية الفكر ، فقال له :

ـ ان كنت ترغب فى شىء فاقترح ما تشـاء .. أجبك اليـه فى الحال ...

ـ قد جزيت الحسنة بالحسنة .. فما بقى لى عندك شىء !

ـ بل اقترح على ما تشاء فما جزيتها لك بعد ..

ـ ربما أطلب منك شيئا يعز عليك !

فتوقف ضرغام هنيهة وجال فى ذهنه أنه قد يطلب اطلاق سراحه ، فهم أن يستثنى ذلك من الطلب ، ولكنه لم يفعل ، بل قال له :

ـ كلا لن أضن عليك بما فى مستطاعى ...

فتهدج صوت شجاع وهو يقول :

ـ اذن فهل لك يا ضرغام أن توصى رجالك بأمى خيرا ، فلا يزعجوها ولا يروعوها فوق ما أصابها من الكريهة والثكل ؟

ولم يكد يتم كلمته حتى غامت عيناه بالدمع .

فتأثر ضرغام لما رأى وسمع ، وعضه الندم على ما كان من رجاله الليلة البارحة اذ فتشوا بيت شاور ، فروعوا من فيه ، فقال لشجاع :

ـ لا تبتئس يا شجاع ... فستكون والدتك محل الرعاية منى ومن رجالى منذ اليوم ...

فقال شجاع وهو يمسح دمعه متجلدا :

ـ الآن استوجبت شكرى يا أبا الاشبال .. فشكرا لك !

ـ أما عندك طلب آخر ؟..

ـ لا ، وأشكرك .. حسبى هذا منك .

وخرج ضرغام من عنده وهو يتعجب من سلوك هذا الشاب ، وكمال خلقه ، ويحمد الله اذ ألهمه فأبقى عليه .

وخلا شجاع الى نفسه ، وقد أسره ضرغام برقته ومروءته حتى كاد قلبه يميل اليه ، لولا أنه تذكر أنه عدو أبيه اللدود الذى طالما ناصبه العداء ، ثم وثب عليه واغتصب منه كرسى الحكم ، فهو اليوم شريد طريد مجهول المصير . وهل يستطيع أن ينسى أنه ذبح شقيقيه طيئا وسليمان ليطفىء نار الانتقام فى نفسه ؟ وماذا تكون حال أمه الواهنة العجوز اذا بلغها مصرع ابنيها فى يوم واحد ؟ ولعلهم قد أبلغوها ، فهى الآن تعانى وحدها أشد الكرب ، وأمض الثكل لو أنهما صرعا فى الميدان لاحتمل الخطب ولأمكن العزاء ، أما أن يذبحا وهما فى القيد كما تذبح الأنعام فجرح غائر فى القلب ، ليس الى اندماله سبيل !

ولكن خيال ضرغام يعود فيتمثل أمامه جميل الطلعة ، وضاح الجبين ينظر اليه فى عطف ، ويعتذر اليه فى رقة ، ويتودد اليه فى صدق واخلاص ويسأله أن يقترح عليه ما يشاء فى لطف ، ثم يجيبه الى ما سأل فى أريحية وكرم . وقد ذكره بكلمة قالها يوما فيه لم يقصد بها الا خير أبيه ، ولكن ضرغاما عدها يدا تجزى ولا تنسى ، أفيستحق البغض رجل هذا نعته وهذه شمائله ؟

عدو لأبيه ؟ نعم ، ولكن أباه أيضا قد عاداه وأقصاه عن منصبه . انتزع منه الحكم ؟ أجل ، ولكن أباه أيضا قد فعل هذا مع رزيك . قتل طيئا وسليمان ؟ ترى ما كان يفعل أبوه لو ظفر بحسام وهمام ؟

وانطلق فكره يوازن بين الخصمين من حيث لايشعر ، كأنما ليعلم أى الرجلين أجدر بهذا الكرسى الذى كان التنافس عليه سبب كل ما حدث ، ولكن ميزانه لم يلبث أن مال به الهوى فى كفة أبيه ، فقد أخذت ذكرياته مع أبيه تنتفض فى ذهنه من خلال عشرين عاما أو تزيد ، حاملة فى أعطافها صورا لا تحصى من عواطف الحب والحنان ، ودلائل الرعاية والعطف ، متواشجة مع ذكريات أمه الحبيبة فى موكب واحد ، منذ كان طفلا يدرج ، فصبيا يلعب ، فيافعا يحلم ويتفتح ، فشابا يخوض غمار الحياة ويحب !

ويتوارى الموكب من مسرح ذهنه ، فاذا سمية وحدها تقبل فى موكب من الجمال والفتنة والنضرة والشباب ، تتراءى خلفها

ذكريات هواه ، وتتواثب حولها وأمامها آماله وأحلامه فى المستقبل السعيد !

أواه ! أين هو منها الآن ، وأين هى منه ؟

لقد كان آخر عهده بها يوم زار بيت خالته أمينة ، قبل الواقعة بأيام ، فلقيته سمية فى ثوبها اللازوردى ، وجلست معهما أمها ، فطفقوا يتحدثون فى أمور شتى ، ثم استدرجها بلطف الى حديث الزواج ، فتعللت سمية حينئذ ببعض شئون البيت وخرجت من عندهما ، ففاتح خالته برغبته فى تعيين موعد الزفاف ، فقد طال انتظاره لذلك ، وكاد صبره أن ينفد من تأجيـله مرة بعد مرة ، فوعدته خالته بأن تكلم أبا الفضل فى ذلك ، وقالت له :

ـ ان شاء الله يا شجاع يتم ذلك فى أواسط الربيع القادم ...

ـ ولم لا يكون قبل ذلك ؟

ـ ويحك يا ابن أختى ... انا لن نفرغ من اعداد جهازها اذا بدأنا فيه من اليوم ، قبل مضى أربعة أشهر أو ثلاثة على الأقل

ولمـا أراد الانصراف ، دعا سمية ، فهمس فى أذنها ، وهى تشيعه الى الباب :

ـ هذا آخر شتاء تقضينه عند أهلك يا سمية !

فسألته متجاهلة :

ـ ولمـاذا ؟

ـ لأنك فى الربيع القادم ستقيمين فى بيتى !

ما كان يدرى فى ذلك اليوم السعيد أن الدهر له بالمرصاد ، وأن مثل هذا الخطب الجسيم يوشك أن يقع بعد ذلك بأيام

فيعصف بين عشية وضحاها بذلك الحلم الجميل . وا حسرتاه ! ان الشتاء سينقضى بعـد فى حينه ، وسيقدم من بعده الربيع فى ميعاده ، ولكن ماذا يعنيه الآن أن يطول الشتاء ويتخلف الربيع ؟

١٠

ودخل ضرغام عنده يوما آخر ، أنبأه بأنه قد أرسل الى والدته من أخبرها بأن ابنها مقيم عنده فى دار الوزارة بخير حال ، ففرح شجاع وشكره على ذلك .

ثم قال له ضرغام :

ــ ووالدك يا شجاع ألا تحب أن تعرف أين هو اليوم ؟

فاضطرب شجاع قليلا ثم قال :

ــ أين ؟

ــ فى الشام ...

ــ الحمد لله !

ــ كأنك كنت تعلم من قبل أين توجه ؟

ــ نعم ...

ــ فلم لم تزعم لنا أنه توجه الى الصعيد ... فتضللنا بذلك عن حقيقة مقصده كما فعل أخواك !

ــ غفر الله لهما ... كانا يظنان حقا أنه توجه الى الصعيد .

ــ أنت وحدك الذى كنت تعلم الحقيقة ؟

ــ نعم ..

فنظر اليه ضرغام مليا كأنه لا يصدق ما يسمع .

ـ ان كنت يا ضرغام قد ندمت الساعة على أن لم تستخرج السر منى بالقوة والتعذيب فاعلم أنى ما كنت لأبوح به ولو عذبتنى حتى الموت •

ـ لا والله يا شجاع ما ندمت على ما فعلت ••• وانما ازددت اعجابا بهذا الصنيع منك •

ثم قال له :

ـ وددت يا شجاع لو خليت سبيلك •• ولكنى أخشى عليك من العاضد ••

ـ يريد قتلى ؟

ـ نعم ••• قد طلبك منى ليقتلك ••• فسألته أن يهبك لى على أن تبقى أسيرى ولا أطلق سراحك الا اذا أذن ••• فقبل بعد لأى •

فظهر الاغتمام فى وجه شجاع ولم يتكلم •

قال له ضرغام :

ـ لا تبتئس •• فلن يلقاك هنا عندى الا كل خير ••

١١

ولما بلغ العاضد أن شاور ذهب ليستنجد بنور الدين ، وأن نور الدين ربما يلبى دعوته ، اغتم لذلك ، وحسب له ألف حساب• وخطر له أن يستنجد هو بالفرنج ، وفاتح ضرغاما فى ذلك وهو على يقين أن وزيره سيحبذ هذا الرأى ليتقى به عودة شاور الى الحكم بقوة نور الدين ومعونته ، ولكن ضرغاما لم يكد يسمع ذلك حتى استنكره قائلا :

ـ كيف تريد منى يا مولاى أن أفتتح عهدى فى الحكم بمثل هذه الخيانة للدين والوطن ؟

فبهت العاضد ولم يكد يصدق ما يسمع ثم قال له :

ـ ويلك ياضرغام •• أتريد أن تتهمنى بخيانة الدين والوطن؟

ـ كلا انى لا أريد أن أتهم أحدا ، ولكن هذا الفعل فى ذاته خيانة ، ومن يرتكبه أو يرض به فهو خائن •••

فغضب العاضد فى الباطن وحقدها على ضرغام ، وأدرك منذ تلك اللحظة أنه ليس هو الوزير المطلوب ، ولكنه تجلد وأظهر له قلة الاكتراث بما قال ، بل أظهر له شيئا من الرضا اذ أجابه مبتسما :

ـ هذه صراحة تعجبنى منك يا أبا الأشبال ، ولكن فاتك أننى لا أقصد تسليم بلادنا للفرنج بل حمايتها منهم ومن نور الدين••

ـ ان نور الدين ليس عدوا لنا كالفرنج •• وما يعنيه من مصر الا أن تكون بمنجاة من الوقوع فى أيديهم حتى لا يتقووا بها عليه •••

ـ هب هذا صحيحا ••• ولكن ما تقول فى شاور ؟ أيرضيك أن يعود الى الحكم على رغم منى ومنك ؟ عجبا لك يا ضرغام أنا أسعى الى تمكينك لتمسكى بك وثقتى فيك وأنت تسعى الى تمكين عدوك من نفسك •••

ـ شكرا لك يا مولاى ••• ولكنى قد فكرت فى سبيل آخر خير من هذا السبيل •••

ـ ما هو ؟

ـ سأكتب الى نور الدين •• أشرح اليه حقيقة شاور وحقيقية

نيته ، وأنقض دعواه فى ميلنا الى الفرنج ومحالفتهم ...

فقاطعه العاضد قائلا :

— ومن أدراك أن شاور ادعى علينا ذلك عند نور الدين ؟

— لا ريب أنه فعل ... فلن يستجيب له نور الدين الا اذا ادعى له ذلك . ولكنى سأؤكد له أننا سنذود عن حياضنا دون الفرنج ، واننا على استعداد للتحالف معه عليهم ...

ووقف العاضد فى مناقشة وزيره عند هذا الحد ، اذ لم يجد عنده ما يريد . ورأى أن يستقل من ورائه بتدبير ما يراه ، فعرض الأمر على دهاقين السياسة فى القصر ، ويقال لهم الأستاذون ، وهؤلاء هم الذين يحفظون أسرار السياسة التى يجرى عليها القصر منذ زمن قديم ويتوارثونها أستاذا عن أستاذ ، وهم دائما موضع ثقة الخليفة ، لا يقطع فى أمر دون مشورتهم ، ولا يتصرف فى شأن من الشئون العامة الا بعد موافقتهم . وبفضل هؤلاء اطردت سياسة القصر منذ عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الذى كان أمة وحده ، على سنن واحد لايختلف الا باختلاف الظروف والأحوال ، على تعاقب الخلفاء الذين يجلسون على العرش ، واختلافهم فى الكفاية والسن ، فقد كان بعضهم أطفالا لم يبلغوا الحلم أو لم يصلوا الى سن الرشد . وهذا العاضد نفسه كان عمره حين ولى الخلافة دون العاشرة ولم يزل حتى اليوم دون العشرين فما كان فى الامكان أن يبدى ما أبدى من الدهاء وبعد النظر ، وسعة الحيلة والبراعة فى تدبير الأمور واحكام الخطط ، وفى التلاعب بأقدار الرجال — لو لم يكن هؤلاء الأستاذون من ورائه يبصرونه

ويسددونه ، وكان عنده ذكاء خارق فأعانه ذلك على أن يعى عنهم من أسرار السياسة المتوارثة فى القصر ما جعله وهو فتى دون العشرين يتصرف تصرف الكهول بل يناطحهم دهاء وحكمة . وكأنما كان يشعر فى أعماقه بقرب نهاية حكمه وحكم أسرته ، فتجمع فيه ما تفرق من مواهب آبائه وأسلافه ، كاللمعة الاخيرة قبل انطفاء السراج !

وبعد ما انتهى العاضد من التشاور مع دهاقينه المحنكين ، استقر رأيه على أن يكتب سرا الى الفرنج ليمنعوا نورالدين عنه ، ويكتب فى الوقت نفسه الى نور الدين يستنجد به ليخلص البلاد من بغى ضرغام وطغيانه .

١٢

أما أبو الفضل وجماعته ، فقد سرهم نبأ وصول شاور الى دمشق بسلام ، ثم زاد سرورهم لما أطلعهم على رسالة سرية وردت اليه من شاور عن طريق بعض عملائه التجار يذكر فيها ، ما لقى عند نور الدين من الحفاوة والتكرمة ، وما وجد عنده من الميل الى تلبية الأمر الذى فاوضه فيه ، وما كان للرسالة التى تلقاها نور الدين من أبى الفضل من جميل الأثر عنده ويطلب منه لذلك أن يوالى الرسائل اليه ليستثير بها حماسته ويستنهض بها عزمه .

ثم كان عيدا عندهم لما أطلعهم أبو الفضل على كتاب جاءه من نور الدين بتوقيعه وختمه جوابا على رسالته ، يعلن له فيه أن الله قد شرح صدره لتلبية الدعوة التى وجهها شاور اليه بلسان

المخلصين من أهل مصر عسى أن يوفقه الله الى حفظ هذا البلد العظيم من الخطر العظيم .

وكانوا فى خلال ذلك قد اجتهدوا بمختلف السبل والوسائل فى اشاعة هذا الامر بين الناس وتبشيرهم به ودعوتهم الى تأييده ، فأخذ كثير من خطباء الجوامع يذكرون الفرنج فى خطبة الجمعة ، وما أوجبه الله على المصلين من جهادهم ويدعون الله أن يخلص فلسطين وبلاد الشام منهم ، وأن ينصر كل من يجاهدهم فى سبيله ، دون أن يذكروا نور الدين بالاسم ، خشية أن يتخذ ذلك دليلا على تشيعهم لشاور فيستوجبوا نقمة العاضد وضرغام .

غير أن واحدا منهم وهو امام جامع عمرو بالفسطاط ، قد تحمس ذات جمعة فذكر اسم نور الدين صريحا ، ودعا المصريين الى التآزر معه لحماية مصر من خطرهم ، ولطردهم من بلادالشام فأشفق المصلون على امامهم الجرىء ، وان طربتأسماعهملخطبته

ولم يكد يفرغ من صلاته حتى سيق الى العاضد ، فلما مثل أمامه ، وكان ضرغامحاضرا ، سأله العاضد : ماذا حمله علىمافعل؟ فأجابه الامام بأنه لا يعلم أنه سيغضب أحدا من المسلمين ، بله خليفتهم العاضد لدين الله ، أن دعا الله لنور الدين بالنصر على الفرنج وأن أهاب بأهل مصر أن يحموا بلادهم من خطرهم .

فقال له العاضد :

ـ بل قصدت بخطبتك أن تدعو الناس الى المخذول شاور وتحرضهم على وزيرنا القائم أبى الأشبال ضرغام ... فمن حقه أن يعاقبك ...

وأدرك ضرغام بعض ما قصد اليه العاضد ، فقال :

ـ شكرا لأمير المؤمنين اذ حكمنى فى أمر هذا المتطاول ...

ثم سيق الرجل الى دار الوزارة ، وهو لا يشك فى أنه مقضى عليه ، فوطن نفسه على الصبر والشهادة ، فلما رأى ضرغاما هناك التمس منه أن يمهله حتى يكتب وصيته لأهله وعياله ، فما كان أشد دهشه وسروره ، اذ قال له ضرغام :

ـ بل ارجع الى أهلك وعيالك ، فما ينبغى أن أعاقبك على كلمة حق قلتها ، ودعوة صالحة دعوتها للمجاهدين فى سبيل الله .

وانتهى الى العاضد ما فعله ضرغام فزاد من حفيظته عليه ، وان لم يبد ذلك له بل أثنى عليه حين لقيه بعد ذلك ، اذ خلى سبيل الرجل وعفا عنه .

وكان ضرغام قد كتب فى الرسالة التى بعثها الى نور الدين أنه قد قرر أن يقطع الجزية التى فرضها الفرنج على مصر ، منذ أغاروا على عسقلان فاقتطعوها من مصر فى عهد الخليفة الفائز بالله ، الذى ولى العرش قبل العاضد ليثبت لنور الدين بذلك أنه على استعداد للتحالف معه لمحاربة الفرنج ، ولكنه لم يذكر هذه الفقرة الخاصة بقطع الجزية للعاضد ، فلما سمع العاضد يثنى عليه ، اذ خلى سبيل الرجل وعفا عنه ، انتهز ضرغام هذه الفرصة ، فأفضى اليه بما اعتزمه من قطع الجزية عن الفرنج ، وقال له :

ـ قد لمست من مولاى هذا الميل القوى الى مناهضة الفرنج ، فأثبت ذلك فى الكتاب الذى بعثته الى نور الدين ...

فتغير وجه العاضد ، وقال له :

ـ لقد تسرعت يا ضرغام .. هذا شأن خاص بيننا وبين الفرنج لا ينبغى أن تدخل أنف نور الدين فيه ..

ـ أردت يا مولاى أن أبطل به دعوى شاور لديه ..

ـ هذا عهد كتب بيننا وبينهم ... وما ينبغى لنا أن ننقض العهد لغير سبب ...

ـ بل هذا عار علينا فرضوه ، وذل علينا ضربوه ... وقد آن لنا أن نغسل عنا العار ونرفع عنا الذل !

ـ انه لم يكتب فى عهدى بل فى عهد سلفى !

ـ عهدك يا مولاى ينبغى أن يكون خيرا من عهد سلفك .

فسكت العاضد قليلا ، ثم قال له ليستر غضبه وهزيمته :

ما أغضبنى منك فى هذا يا ضرغام الا أنك لم تأخذ رأيى فيه ولم تكاشفنى به قبل اليوم ...

١٣

كان هذا الصراع الخفى يجرى بين الخليفة والوزير دون أن يعرف الناس عنه شيئا ، بل كانوا يظنون أن ضرغاما آلة صماء فى يد العاضد يصرفها كيف يشاء ، ويترقبون عودة شاور بمعونة نور الدين ليخلصهم من طغيان العاضد ووزيره معا .

ذلك أن ضرغاما ليس معنيا بالتحبب الى الناس فى قوله ولا فى عمله ، ولا أن يجلو لهم حقيقة سياسته ومقاصده ، ونما يمضى فيما يراه واجبا عليه دون أن يشاور أحدا حتى أقرب الناس اليه ، وألصقهم به ، فقد كان سيىء الظن بالناس جميعا ، قليل الثقة فيهم ، لا يراهم الا طلاب منافع خاصة ، ينظرون فى مشورتهم اذا

استشيروا الى تلك المنافع ، كيف يحققونها . هذا وحسام وهمام أخواه ما كادا يريان أخاهما قــد تسلم كرسى الحكم حتى خيل اليهما أنهما قد أصبحا شريكيه فيه وأن من حقهما اذا استأثر هو بالأمر والنهى أن يدع لهما الانتفاع بما يتيحه الحكم لأربابه من المغانم والمكاسب ، فلما اعترض سبيلهما دون ذلك وحاسبهما حسابا عسيرا على ما امتدت اليه أيديهما من أموال الدولة ، تأففا وتململا وظنا به الظنون ، ولن ينسى أبدا حين وجدهما ذات يوم يتناجيان دون أن يعلما بحضوره فسمع أحدهما يقول للآخر :

— ماذا صنعنا اذن ؟ ان كان هذا جزاءنا فعلام خضــنا الغمرات معه ؟

فلما استوفيا حديثهما أظهر لهما نفسه ، ووقف ينظر اليهما مليا وهو صامت لا يتكلم ، فطفقا يعتذران ويتنصــلان ، ويقبلان رأسه ، ويناشدانه الرحم أن يهب لهما ما سمع ، ويعاهدانه أن يكونا بحيث يحب ، فلم يشأ أن يقول لهما شيئا ، بل خرج من عندهما صامتا كما دخل .

وهؤلاء البرقية الذين كانوا سواعده فى الوثبة وتولوا معه كبر القتال والصراع ما كادوا يضعون السلاح بعد انهزام شاور وفراره حتى أخذوا يحلمون بزيادة الرواتب والأعطيات . واذا لم يصنع لهما شيئا من تلقاء نفسه أقبل أمراؤهم اليه يذكرونه بما نسى من شأنهم ، فلما صارحهم بأنه لم ينس شيئا ، وأنه لن يعطى أحدا منهم فوق ما هو معلوم له على حسب قدره ورتبته صاحوا فى وجهه :

ــ أتريد أن تسوى بيننا وبين أولئك الذين قاتلوك مع شاور ؟

ــ نعم ... أنتم جميعا جند الدولة ...

ــ اذن فعلام خاطرنا بأرواحنا معك ؟

ــ لو لم تقوموا معى ... أفكنتم تقبعون فى بيوتكم والحرب دائرة بينى وبين شاور ؟

ــ بل كنا نقاتلك مع شاور ...

ــ اذن فستخاطرون بأرواحكم كذلك ... فأى فرق بين الحالتين ؟

ــ ما كنت لتنتصر حينئذ عليه !

فألان لهم لهجته قائلا :

ــ يا اخوانى فى السلاح ! انى لا أجحد فضلكم ولا أنكر شجاعتكم وبلاءكم .. ولكن ما قمتم به هو حق الدولة عليكم.. وحقكم عليها محفوظ لم يضع .. وموفور لم ينقص .

ــ لو كنا مع شاور فانتصر لأعطانا ما نريد ...

فبدا الغضب فى وجهه ولكنه تجلد قائلا :

ــ صدقتم ، وهذا فرق ما بينى وبين شاور .. أفتظنوننى كنت أرضى أن أثور عليه لو كنت أريد أن أفعل مثل ما يفعل ؟

ــ ان مولانا العاضد هو الذى أوعز اليك ...

ــ أجل .. ولو علم العاضد أننى سأفعل مثله ما أوعز الى ..

فسكتوا يتميزون من الغيظ ، اذ كان الجواب على أطراف ألسنتهم ولكنهم لم يجرءوا أن ينطقوا به . أفى وسعهم أن يقولوا له ان العاضد قد أراده لأمر آخر ؟

ورأى ضرغام ما هم فيه ، فقال :

ـ انى بعـد لا أعتب عليكم فيما تطمعون .. ولكن اصبروا قليلا وانتظروا حتى تغزو بلاد العدو أو تلقوا العدو فى بلادنا .. ويومئذ ستظفرون بالغنائم والأسلاب ، وما أشك أن نصيبكم منها سيكون عظيما لأن بلاءكم سيكون عظيما ..

فسألوه متجاهلين :

ـ هل تعنى نور الدين ورجاله اذا قدموا مع شاور ؟

ـ كلا .. بل أعنى الفرنج .

فتضاحكوا مستهزئين ، ثم قالوا :

ـ هل تطمع أن تغلب هؤلاء ثم تغزو بعدهم الفرنج ؟

فضاق صدره باستهزائهم ، ولم يستطع أن يملك نفسه ، فانفجر فى وجوههم صائحا :

ـ ويلكم يا شراة المال وباعة الشرف !! اغربوا عن عينى فلا شيء لكم عندى !

فصاحوا جميعا :

ـ أتطردنا يا ضرغام مثل الشحاذين ؟

ـ بل مثل الكلاب !

احمرت وجوههم عند ذلك من شدة الغضب ، ثم اصفرت من فرط الحقد ، ونظر بعضهم الى بعض ، ثم خرجوا متسللين واجمين .

واسترد ضرغام وعيه فى الحال ، وفكر فى الأمر كسرعة البرق فأسرع الى الشباك وأطل منه على القوم ، وهم يعبرون الفناء نحو السدة فناداهم ، فوقفوا والتفتوا اليه فقال لهم :

ـ أيها الاخوة لا تؤاخذونى فيما ند من لسانى عند الغضب . أذهبوا الآن فاجتمعوا وتشاوروا فيما بينكم ، عسى أن تدركوا حسن نيتى فيما قلت لكم فتعذرونى ولا تحقدوا على ..

فحركوا رءوسهم ثم مضوا فى طريقهم دون أن يجيبوه بشىء .

واجتمع القوم فى دار أحدهم فأخذوا يتشاورون ويتآمرون حتى الليل ، فأجمعوا على الوثوب بضرغام ، وأرسلوا أحدهم ليقابل العاضد سرا ويرى ما عنده ثم يعود اليهم بالخبر ، فلما وصل الى القصر ، قيل له ان ضرغاما عند العاضد ، فانسل راجعا من حيث أتى ليعود فى وقت آخر ، ولكنه حين دنا من الدار التى كانوا فيها ، انقض عليه رجال ضرغام فساقوه الى دار الوزارة ، فلما بلغ الفناء الخلفى نظر من خلال ضوء السراج الباهت فرأى نحو عشرين جثة مبعثرة فى الأرض فأدرك أنها جثث أصحابه وقبل أن يبدى حـــركة أو يرجع قولا بصر بالسيف يلمع حوله ، فاذا هو جثة فوق الجثث !

وثار البرقية لأمرائهم ، فكان ضرغام لهم بالمرصاد ، اذ ضرب على أيديهم وأوسعهم قتلا وتشريدا ، حتى ذهب أبطالهم ، واستكان الآخرون .

وذهل الناس لما سمعوا أنباء هذه المجزرة ، واقشعرت أبدانهم من هولها وقسوتها وقالوا : ان فعل هذا بأنصاره وأشياعه ، فما عسى أن يفعل بالآخرين؟ فتضاعف كرههم له وسخطهم عليه وأصبح اسم ضرغام منذ ذلك اليوم عنوانا على البطش وسفك الدماء ، غير أن اشمئزازهم من عمل ضرغام ما لبث أن تحول الى فرح

خفى اذ رأوا فيه فأل خير يبشرهم بأن ضرغاما بعد ذهاب أبطاله من أولئك البرقية لن يثبت لشاور اذا أقبل بحملة نورالدين معه .

١٤

وأقبلت الحملة بعد طول ترقب ، يقودها أسد الدين شيركوه من كبار رجال نور الدين وأبطاله فى ألفين بين فارس وراجل ، واجتاز بهم الحدود ولقى الصعاب من اعتراض حاميات الفرنج ، فقد كانوا مسيطرين على السواحل كلها وعلى الطرق العامة دون حدود مصر .

وكان ضرغام قد أعد عدته لملاقاتهم ورسم خطته بنفسه دون أن يطلع أحدا من رجاله على سرها خشية أن يعلم العاضد بحقيقة قصده منها فيفسدها عليه .

وتراءى الجيشان دون بلبيس ، ونظر أسد الدين ، فعجب من قلة عدد الجيش المصرى والتفت الى شاور يسأله ، فقال له شاور : ان ضرغاما لم يجىء الا بقلة من الفرسان لعله لا ينوى أن ينهى المعركة فى بلبيس بل يريد أن يستدرجنا الى الداخل ، وقد وزع جيشه على طول الطريق الى القاهرة فيهاجمنا بهم فى كل مكان الى أن يحدقوا بنا فى النهاية .

ونظر أسد الدين مرة أخرى فرأى فارسا ينهب الأرض نحوهم ، فأمر رجاله بألا يعترضوا سبيله ، لعله رسول من ضرغام اليه ، فلما دنا الفارس منهم أفسحوا له الطريق فجعل يخترق صفوفهم متمهلا على جواده وقد تعلقت الأبصار به ، ولم يكد يترجل من جواده حتى صاح شاور فى دهش : شجاع ! ابنى !

ـ ابنك ؟.

ـ نعم يا أسد الدين .. هذا ابنى الاصغر .

قال ذلك وانطلق فاعتنقا وتبادلا القبلات فى شوق زائد وحنان غامر . ووقف أسد الدين ينظر اليهما متعجبا ، أيكون ابن شاور مع عدوه ضرغام .

وأراد شاور أن يسأل ابنه هذا السؤال ، فما أمهله شجاع أن انفتل منـــه وأقبل على أسد الدين فحياه ، ثم قال له : « ان ضرغاما يهديك التحية ، ويرغب فى مقابلتك على انفراد لتسمع ما عنده ويسمع ما عندك لعلكما تتفقان على خير فتحقنان دماء المسلمين » .

فصاح شاور :

ـ كلا ليس بيننا وبينه غير السيف !

ـ رويدك يا شاور .. دعنا ننظر فيما يقترح .

ـ هذه خدعة يا أسد الدين .

فقاطعه أسد الدين قائلا فى حدة :

ـ قلت لك انتظر يا شاور حتى أؤامر أصحابى .

وانتحى بابن أخيه صلاح الدين وبالفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى جانبا فتداول الرأى معهما ، فكان من رأى الهكارى أن ليس من حقه أن يرفض المقابلة ، ولكن لا ينبغى أن يذهب بنفسه بل يرسل أحدا من قبله ، فاستحسنه أسد الدين ، وقال لابن أخيه :

ـ اذهب أنت يا يوسف لمقابلته ...

ثم أقبل على الرسول فقال له :

— قل لضرغام انى لا أستطيع أن أترك جيشى ، فان شاء قدم هو عندى وان شاء بعثت يوسف ابن أخى مكانى فهو بمنزلتى ..

وذهب شجاع ثم عاد يعلن لأسد الدين أن ضرغاما قد قبل ابن أخيه مكانه . وانطلق الشابان صلاح الدين وشجاع ، وشاور ينظر اليهما فى غيظ وقلق ، حتى غابا عن الأبصار .

وخلا ضرغام بصلاح الدين فى خيمة نصبت لهما ، فما انتهيا من حديثهما حتى أعجب كلاهما بالآخر . أعجب ضرغام بذكاء صلاح الدين وألمعيته على حداثة سنه ، وأعجب صلاح الدين بمهابة ضرغام وفصاحته وصراحته .

ورجع صلاح الدين فقص على عمه عجبا : ان ضرغاما يعظم نور الدين ويريد أن يحالفه على الفرنج لا أن يحاربه ، وأنه قد كتب اليه بذلك ، فلم يتلق منه جوابا ، وأنه قد قطع الجزية عن الفرنج ، ولم يبال بغضب العاضد ، وأن العاضد قد أراد أن يتصل بالفرنج فمنعه هو من ذلك ، وأنه يقترح الآن أن تعود حملتهم ادراجها ويعززها هو بالعتـــاد والرجال فتهاجم عسقلان وتأخذها من يد الفرنج وتعيدها الى مصر .

فتردد أسد الدين قليلا ، ثم قرر أنه لا يعرف غير شاور وأنه لا يستطيع نقض الاتفاق الذى بين نور الدين وبينه حتى يظهر منه خلاف ذلك .

وحاول صلاح الدين أن يقنعه بقبول مااقترحه ضرغام قائلا :
هذا خير يا عم وانه لصادق .. وسيفرح نور الدين بهذا الحل .

ولكن أسد الدين أصر على رأيه ، وأبلغ ذلك لشجاع الذى

كان واقفا مع أبيه على حــدة يتناجيان فى انتظار الجواب ، فلما سمع شجاع الجواب التمس من أسدالدين أن يأذن له ، فيستأنف الحديث قليلا مع أبيه ، فأذن له بذلك •

ولم يعلم أسد الدين ولا أحد من رجاله ما دار بين الابن وأبيه الا أنهم لحظوا عند انصراف الابن أن الكآبة بادية فى وجهه ، وآنسوا فى وجه شاور بعض الغضب •

وقرأ ضرغام الجواب فى وجه شجاع قبل أن ينطق به لسانه ، فلما سمعه قال له :

ــ وهل كلمت أباك فى الأمر ؟

فتلجلج شجاع وهو يقول :

ــ نعم كلمته •• ولكنه رفض ••

ــ فاشهد اذن أننى قد نصحت لدينى ووطنى •• وأبرأت ذمتى الى الله •• وأن أباك هو المسئول •

فسكت شــجاع ولم يجب ، وجعــل يغالب عبرة تترقرق فى عينيه :

ــ أما أنت يا شجاع فقد أديت واجبك •• وأنت الآن فى حل منى •• فاختر لنفسك ما يحلو لك ••

فأطرق شجاع صامتا لحظة قصيرة من الزمن ، الا أنها اتسعت لفكره أن يستعرض كل الاعتبارات التى عنده ليفاضل بها بين سبيل وسبيل ، فأخذت تتلاحق فى ذهنه فى مثل ومضات البرق عشرات المعانى والصور ووجوه الأشخاص أيضا : وجه سمية ووجه أبيها ووجه أمها ، ثم وجه أمه ووجه أبيه ، ووجه أسد

الدين نائبا عن نور الدين .. وهلم جرا ، وسمع جليسه يقول مؤكدا :

ـ قرر الآن يا شجاع .

فرفع رأسه فى حياء وقال :

ـ انه والدى يا ضرغام ولا يسعنى الا أن أكون معه ..

ـ أجل ، لا ملام عليك . لست بدعا فى ذلك . هذان أخواى همام وحسام .. انما يقاتلان معى لانى أخوهما فحسب !

وعجب أسد الدين اذ رأى شجاعا قد انضم الى أبيه ، وأبدى بعض رجاله ارتيابا فى أمره ، ولكن أسدالدين اعترض عليه قائلا :

ـ ويحك انه ابن صاحبنا . فماذا نخشى منه ؟

وانتبذ شجاع وأبوه وأخذ كلاهما يروى للآخر قصته . وانهما لكذلك اذ أقبل رسول آخر من ضرغام ، فأنهى الى أسد الدين أن ضرغاما يدعو شاور لمبارزته .

قال أسد الدين :

ـ ماذا ترى يا شاور ؟

فأجابه شاور قائلا :

ـ يا سيدى .. انه يعلم أنه مقتول لا محالة ، فأراد أن يبارزنى .

ثم التفت الى الرسول قائلا :

ـ ارجع الى ضرغام وقل له : يقول لك شاور ان الميت أشجع من الحى !

ثم همس شجاع فى أذن أبيه :

ـ انظر يا أبت الى رقة شعوره .. لم يشأ أن يحملنى هذه

الرسالة لمكانى منك فكلف بها رسولا آخر .

فتأفف شاور قائلا :

ــ دعنى من حديثك عنه . تذكر يا شجاع أنه عدو أبيك وقاتل أخويك ومثكل أمك ...

١٥

وبدأت المعـــركة بعد ذلك بقليـــل ، وانتهت بانهزام ضرغام وانسحابه الى القاهرة بعد ما أظهر من الشـــجاعة والفروسية ما أدهش أســـد الدين ورجاله ، وكان أشـــد الناس اعجـــابا به صلاح الدين ، اذ ظل طول المعركةيراقب حركاته ويتابع صولاته وجولاته فى نشوة وتطلع حتى كأنما يتفرج منه على لاعب لا على خصم محارب وكم ود لو يتعرض له لينازله أو بالحرى ليلاعبه ، فما تمكن من ذلك لأنه كان على الميمنة ، وكان ضرغام يوجه جل هجماته الى القلب حيث كان أسد الدين وشاور ، كأنه كان موكلا بلقاء شاور ولكن شاور كان يتقيه جهده .

وكان واضحا للجميع أن ضرغاما قد انسحب مختـــارا من المعركة ، اذ لم يقتل من رجاله اذ ذاك أكثر ممن قتل من رجال الحملة ، فتقدم أسد الدين برجاله صوب القاهرة فى حذر شديد خشية أن يفاجئه كمين فى الطريق ، ولكنه لم يجد من يعترضه .

ونشط شاور فى أثناء الطريق فجعل يلم بكل بلد وكل قرية ، فيخبر الناس بانهزامضرغام ، ويبشرهم بقرب الخلاص منطغيانه وطغيان القصر ، بفضل هذا الجيش الذى بعثه نور الدين .

وما أن وصل أسد الدين الى ظاهر القاهرة حتى بلغه أن

الجيش قد انشق على ضرغام وأن أهلها جميعا مستبشرون بقدوم الحملة ، فالتفت الى ابن أخيه وهمس فى أذنه :

ـ ويحك يا يوسف ! ماذا لو أطعتك وعملت بمشورتك ؟ ألا ترى كيف أن الناس كلهم مع شاور ؟

وبدأت المعارك تدور خارج القاهرة ثم فى قلبها ، وأخذت القيادة فى واقع الأمر تنتقل من يد أسد الدين الى يد شاور ، فكان يرى وجهه فى كل معركة ، ويسمع صوته فى كل معمعة ، حتى صار رب الموقف ومالك الزمام ، ولا سيما بعد ما انضم اليه الكثير من جنود البلاد ، وأصبح يعتمد عليهم ويستغنى شيئا فشيئا عن جنود الحملة . ولم يجد أسد الدين فى نفسه حرجا من ذلك ، بل سر لمـا أبداه شاور من النشاط والهمة والشجاعة والبطولة ، مما كان له الأثر الأكبر فى التعجيل بالنصر .

ووقف العاضد فى أول الأمر يتفرج كأن الأمر لا يعنيه . لقد اطمأن أنه باق على العرش مهما تكن النتيجة ، أليس قد كتب الى نور الدين يستغيث به هو أيضا من طغيان ضرغام ؟ بل لعله الآن يميل الى انتصار شاور لأنه لم يفقد الأمل فيه كما فقده فى ضرغام . هل بلغ شاور قط من الجرأة عليه بعض ما بلغه ضرغام ؟ ولكنه لم يجاهر بميله الى فريق شاور وأسد الدين ، الا حين أيقن أن الدائرة ستدور على ضرغام .

أما ضرغام فقد أحس أنه يقاتل فى المعـركة وحده ، فالقصر يكرهه ويضيق به ، والناس يكرهونه لظنهم أنه فى صف القصر ، وأسد الدين لم يستجب الى ما دعاه لأنه لا يثق بغير شاور ،

والجند قدانشقوا عليه كعادتهم حين يظهر فى الميدان منافس جديد، فامتلأت نفسه يأسا وتنزى قلبه ألما ، ولكنه لم يجد بدا من المضى فى القتـــال ، فقاتل مستبسلا وهو يرى جنـــوده يتفرقون عنه ويتسللون ، ويرى الناس يلقون عليه وعلى رجاله الطوب والحجارة والماء السخن من سطوح منازلهم ، ثم اجترأوا عليه بعد ذلك ، وقد تفرق عنه رجاله جميعا ، فأدركوه فى الجسر الأعظم بين القاهرة والفسطاط ، فأردوه عن فرسه ، ثم قتلوه ، وهو يقول :

ويح فتى ضـــيعه قـــومه يرجو لهم خيرا وهم ضده !
يريد أن يكشف ظـــلامهم عنهم ، فظنوا أنه عبـــده
غدا يرون الويل من شـــاور واليوم هم ـــ ياويحهم ـــ جنده!

١٦

كان يوم مصرع ضرغام وانتصار شاور عيدا للناس ، أهل عليهم بعـــد طول انتظار فتلقوه بالبشر والترحاب ، واحتفلوا به احتفالا عظيما ، فأقاموا الزينات ، وتبادلوا التهنئات ، وسموه يوم النصر .

عم الفرح كل بيت من بيوت القاهرة والفسطاط فى ذلك اليوم السعيد ، ولكن بيتين منهما كانا أعمق شعورا به ، وأشد اهتزازا له ، أحدهما فى القاهرة تقيم به أم شجاع ، والآخر فى الفسطاط تقيم به حبيبته ! وقد حار شجاع لا يدرى أبلقاء أمه هو أفرح أم بلقاء حبيبته ؟ هنا الحنان الغامر ، وهناك الحب الآسر ، هنا تثوى ذكريات الامس ، وهناك ترفرف أحلام الغد ، وقضى يومين موزع القلب بينهما يتنقل بين القاهرة والفسطاط ، كأنما يريد أن يتملى

من هذه ومن هذه قبل أن تفرق الايام بينه وبينهما مرة أخرى ، فمن ذا الذي يأمن غدر الأيام ؟ وما كان أشد فرحه لما اجتمع شطرا قلبه ذات يوم وذلك عندما انتقل أبوه بأهله من دار سعيد السعداء الى دار الوزارة ، فحضر أهل سمية اليهم زائرين مهنئين

وكان مجلس جميل اجتمع فيه الشمل بالشمل ، والتقى الأهل بالأهل وتحدث صديق الى صـديق ، وخنت أخت الى أخت ، وتناجى حبيب وحبيبة . ثم امتد المجلس الى سمر ممتع ، قدمت فيه الألطاف وأديرت الأكواب ، وتشقق الحديث بينهم فى شئون مختلفة بين عامة وخاصة ، فتتهلل وجوههم بالبشر اذ ذكروا شيئا يفرح ، وتكتئب حينا اذا مال بهم الحديث الى ذكرى مؤلمة ، ولكنهم فى الجملة يشعرون كأنما قد خلعوا الأحزان ، فألقوها وراء ظهورهم ، وانهم لن يسـتقبلوا بعد ذلك غير الأعراس والأفراح .

هذا شاور يقص عليهم ـ وعلى أبى الفضل خاصة ـ ما جرى له من الأحداث منذ هرب من القاهرة ناجيا بنفسه ، الى أن رجع اليها سالما منتصرا ، فذكر كيف وصل الى الشام ، وكيف أكرمه نور الدين ، وأخذ يحدثهم طويلا عن نور الدين وصفاته وأخلاقه ، ونشاطه فى حرب الفرنج واستغراق فكره فى ذلك ، ثم حدثهم كيف سارت الحملة من الشام ، وما لقيت فى طريقها من مناوشات الفرنج ثم كيف فوجىء قبل معركة بلبيس بظهور شجاع ابنه رسولا من ضرغام .

وهذا شجاع يترحم على ضرغام ويقص عليهم كيف وقع فى

أسره ، وكيف أبقى عليه ، وكيف اعتقله فى نفس الحجرة التى يسكنها من الدار ، وكيف كان يعامله معاملة طيبة ، ويتردد عليه فيجلس عنـده يحادثه ويلاطفـه ، حتى صارا صديقين حميمين ، وكيف فاوضه بعد ذلك فى أمر التوسط بينه وبين أبيه وقائد الحملة التى أرسلها نور الدين ليتفقوا على حقن الدماء ، وجهاد الأعداء ، وكيف رحب بهـذا الأمر فأطلق ضرغام سراحه ، واستصحبه معه فى الجيش الى بلبيس حتى كان هناك ما كان .

وكانوا جميعا يصغون الى شجاع متعجبين ، ما خلا شاور ، فقد كان ضيق الصدر ، وكثيرا ما قاطعه فى أثناء الحديث محاولا وصف ضرغام بالمكر وسوء القصد فيما فعل ودبر ، وانه استطاع أن يخدع شجاعا عن حقيقته ليستخدمه فى مصلحته ، وأنه هو لو وثق بصدقه فيما عرض يوم بلبيس لوافق على اقتراحه ، ولسعى حتى يقنع أسد الدين بقبوله .

ولم يعجب شجاع لذلك من أبيه ، ولكنه عجب من أمه ، اذ أيدته فى أول حديثه عن ضرغام ، فذكرت لهم ما لقيت من حسن الرعاية طول عهده ، فيما خلا الليلة الاولى من حكمه ، ولكنها انقلبت فى النهاية لمـا سمعت مقال أبيه ، فقالت :

ـ أجل يا شجاع لقد صدق أبوك ... ما أحسن ضرغام معاملتى ومعاملتك لوجه الله ، بل ليستغلك فيما بعد ، وقد فعل ، لولا أن والدك فهم مكره فأحبط تدبيره !

ثم أخذت تروى مصداقا لذلك ما جرى لها من أخيه همام ، اذ اقتحم بيتها تلك الليلة فروعها وروع من فيه .

وزبيدة أم شجاع امرأة فى الخمسين سمراء البشرة مليحة الوجه كأختها أمينة التى تصغرها بأعوام ، الا أنها أطول منها قامة ، وأميل منها الى البدانة ، وقد وخطها الشيب ، وزاد اشتعالا فى شعرها الأسود بعد فجيعتها بولديها طيىء وسليمان ، اذ حزنت عليهما أشد الحزن وبكتهما أحر البكاء ، حتى عمشت عيناها ، وكانتا من قبل كعينى أختها واسعتين حوراوين .

وهى تمتاز على أختها أمينة الوديعة الدمثة بقوة الشكيمة وصلابة الارادة وشجاعة القلب ، وذكاء الرأى ، الا أنها تحب زوجها شاور حبا يشبه العبادة ، ويجعلها تعمى عن مساوئه ولا ترى غير محاسنه ، فهو عندها المثل الأعلى فى كل شىء لايعلو على رأيه رأى ، ولا يفوق سلوكه سلوك . وانها لترى الرأى أو تقول القول فاذا وجدت عنده ما يخالفه ، رجعت الى رأيه أو قوله ، دون مراجعة أو مناقشة . وزوجها يبادلها حبا بحب ، فهو يعزها ويدللها ولا يضن عليها بأى شىء تطلبه .

وقد نشأت أولادها على هذا النهج فى النظر الى أبيهم ، واتخذوا أمهم قدوة لهم فى ذلك ، فنشئوا وهم يعظمونه تعظيما شديدا ويرونه المثل الكامل فى كل شىء .

أما أبو الفضل فلم يشترك فى الحديث الا قليلا ، بل كان صامتا طول الوقت يستمع ويفكر فيما يسمع ، ولا سيما فيما رواه شجاع من قصة ضرغام ، وذلك العرض الذى عرضه على أسد الدين وشاور ، فقد اهتم به اهتماما عظيما ، الا أنه لم يبد لهم رأيا فيه أو يعلق عليه بشىء . أحقا كان ضرغام بتلك الصورة اللامعة ؟

أما ما عامل بهشجاعا من الرقة والـكرم فانه على روعته غير مستغرب كثيرا من ضرغام ، فقد أثر عنه من الفعال ما ينم على شهامة وأريحية ، ولكن أحقا كان ينوى أن يعاهد أسد الدين على محاربة الفرنج والبدء أولا باسترداد عسقلان من أيديهم ؟ ثم أحقا كان من الحرص على ذلك بحيث يقبل أن ينزل لخصمه شاور عن الوزارة بعد استنفاذ عسقلان ؟ ان كان ذلك حقا فقد أخطأ أسد الدين وأساء شاور !

ثم مضى يقول لنفسه : « ماذا يجـدى كل ذلك الآن ؟.. قد ذهب ضرغام مظلوما أو غير مظلوم ، ولن يعود ! ولكن ماذا نقول فى شاور هذا الذى عقدنا الآمال على رجوعه الى الحكم ؟ أحقا شك فىصدق ضرغام وخشىأن يمكربه فرفضهذا العرضمنه ؟ »

ولم يستفق أبو الفضل من سرحان فكره ، الا لمـا نبهه شاور قائلا :

ـ ماذا بك يا أبا الفضل ؟ فيم سرح فكرك ؟

فأجابه :

ـ لا شىء يا أبا شـجاع .. انما قلت لنفسى .. ماذا لو صدق ضرغام فيما عرض فقبلتماه أنت وأسد الدين ؟

فتضاحك شاور قائلا :

ـ ويحك يا أبا الفضل . حاشاك أن تنخدع به ميتا كما انخدع به ابنى حيا . انما كانت منه توبة الفاجر فى السفينة الغارقة !

أما سمية فقد كانت فى أثناء استماعها الى حديث شجاع عن ضرغام تراقب وجه أبيها خلسة ، وتلاحظ ما يرتسم عليه من أثر

ذلك الحديث ، فاستطاعت أن تدرك بعض ما يضطرب فى ذهنه ويختلج فى صدره من الأفكار والخواطر .

وسمية فتاةرقيقة الحس عميقة الشعور ، تدركببصيرتها أكثر مما تدرك بذكائها . وهى صموت خجول منطوية على نفسها ، قلما أن تنطق أو تميل الى الكلام . وقــد ورثت عن أمها وداعة النفس ودماثة الطبع ، فكانت تبدو للناظر من رقتها ولينها كأنها قارورة من قوارير الزينة ، مصنوعة من البلور الهش تتصدع من أهون رجة وتنكسر من أيسر صدمة ، غير أنها تنطوى على شجاعة فى القلب وقوة فى الارادة ، تظهران عند الشدائد والملمات ، فاذا قارورة الزينة هذه ليست من رقيق البلور ، بل من أصلب المعادن كلها .. من الالماس !

وقد نزعت فى هاتين الخلتين الى أبيها فى خلقه ، كما نزعت اليه فى كثير من صفات خلقه ، فالوجه الأبيض المشرب بالحمرة ، والعينانالزرقاوان ، والشعر فىلون الذهب ، والشفتانالرقيقتان ، كل أولئك قد تحدر اليها من أبى الفضل ، وما اختلست من أمها الا استطالة فى الوجه ، وامتدادا فى الجيد ، وشمما فى الأنف .

وكان هذا الشبه الغالب بينها وبين أبيها قد جعلها أشد التصاقا به منها بأمها ، فنشأت شديدة التعلق به والحدب عليه والاهتمام بمشاركته فى همومه وشواغله العامة .

ولعل مما قوى هذا الميل فيها أيضا ما ترى من قلة غناء أمها فى هذا السبيل فهى امرأة بسيطة التفكير محدودة الأفق ، لا يعنيها غير تدبير منزلها ، وخدمة زوجهــا فى شئونه الخاصة ، واذا امتد

اهتمامها الى أبعد من ذلك ، فالى الأحوال المتعلقة بتجارته من زيادة ونقصان ، أو رواج وكساد . أما ما وراء ذلك مما يهتم به زوجها من شئون السياسة والاصلاح فقلما تدرك شيئاً منه ، وقصارى ما تشعر به حيال ذلك أنها تشفق على زوجها من عواقب الدخول فيما لا يعنيه وتود لو وهبت شيئا من الشجاعة وقوة المنطق ، فاستطاعت أن تقنعه لينفض يده من ذلك كله . واذ لم يكن ذلك فى وسعها صارت تكتفى بالدعاء الى الله أن يهدى زوجها الى قصد السبيل ويجنبه غوائل السوء .

وأبو الفضل ليس يميل بطبعه الى اشتراك النساء فى غير شئون البيت ، فهن عنده ضعيفات الرأى ، قصيرات النظر ، لغلبة أهوائهن على عقولهن ، فلا يكدن يميزن بين الحسن والقبيح والنافع والضار ، الا فيما يتصل بشئون معيشتهن وزينتهن من الأطعمة والثياب والحلى . وتميل ألسنتهن الى الثرثرة ولغو القول ، فاذا ضمهن مجلس ، فأشهى شىء عندهن الخوض فى حديث جاراتهن ومعارفهن ، لا يتأثمن من غيبة ، ولا يتكرمن عن شماتة ، وأمثل ما تلغط به ألسنتهن وأبعده عن السوء أن يقلن : فلانة تزوجت ، وفلانة طلقت ، وفلانة راجعها زوجها ، وفلانة حملت ، وفلانة توشك أن تضع !

هكذا كان رأى ابى الفضل فى النساء ، فلم يفتقد فى زوجته شيئا مما يحببها الى قلبه من كمال الطاعة والاستقامة وحسن الأدب وأداء الواجب على أحسن وجه .

أما حسن الرأى والمشورة والمشاركة فى الاهتمام بالشئون

العامة فلم يلتمس ذلك منها قط حتى يفتقده ، فعاش ما عاش معها لم يحاول يوما أن يشركها فىشىء من همومه العامة ، أو يستشيرها فيه . وماذا يفيد من ذلك لو فعل الا أن يثقل كاهلها فوق ما ينوء به من هموم البيت والزوج والولد دون أن يخفف ذلك عن كاهله شيئا ؟ ونه لقادر على أن يضطلع بحمل أعبائه وحده فعلام يحمل زوجته منها مالا تطيق ؟ انها لأغلى عنده من أن يثقل قلبها بما لا شأن لها من همومه وآلامه ، وحسبه منها أن تسريها عنه جهد ما تستطيع بما تغمره به من حب وحنان ورحمة وعطف .

ولكن سمية استطاعت — على الايام — أن تتسلل الى مكمن هذه العقيدة الثابتة فى نفسه فتزعزعها شيئا فشيئا ، من حيث لا تشعر هى أو تقصد ، ومن حيث لا يشعر هو أيضا . فاذا به يفضى اليها ببعض همومه مما ليس بخطير ، فيجد عندها فوق ما يتوقع من فهم وعطف ، ويستشيرها فيجد عندها رأيا لا يخلو من الأصالة والرجاحة ، ثم يبلوها فيرى عندها من كتمان السر حتى على والدتها ما يجعلها محلا لثقته ، واذا هو بعد لأى يفضى اليها بالخطير من همومه وأحلامه، ثم بأخطر الخطير دون خشية ولا حرج ، واذا هو يجد من راحة القلب وطمأنينة النفس كلما أفضى اليها بذات نفسه بين جدران بيته فوق ما يجد من خاصة أصحابه فى مجتمعاتهم السرية .

ولكن أبا الفضل لم يشأ بعد ذلك أن يغير عقيدته فى النساء ، وانما استثنى ابنته وحدها منهن ، والمستثنى عنده لا ينسخ القاعدة بل يثبتها .

وهكذا أخذت سنية تعقل شيئا فشيئا حقيقة ما يجرى من الأحداث فى مصر خاصة وفيما وراءها من بلاد العرب والاسلام عامة . حتى صارت ملمة بكثير من دقائق أحوالها وأسرار سياستها وأخذ شغفها بذلك يزداد واهتمامها يتضاعف يوما بعد يوم حتى شغلها عن كثير مما يشغل قلوب الفتيات فى مثل سنها من حب الزينة والتطرية ، وان لم يشغلها عن حبيبها شجاع . ومن يدرى لعلها كانت تشغل عنه أيضا ، لو لم تكن تتوسم فى حبيبها الشاب من سلامة الفطرة وطهارة النفس ونقاء الضمير ما عسى أن يكون عونا لأبيها فى مستقبل الأيام على تحقيق آماله وأحلامه ؟ ولا سيما اذ تذكر أنه ابن وزير ، فليس بعزيز أن يجلس يوما على كرسى الحكم ، فيتم على يديه من الاصلاح ما لم يتم على يد غيره من تجار السياسة وعبيد السلطان ومطايا الطغيان .

وقد أثبتت الأيام فى كثير من الأحوال — وما زالت تثبت — صـدق فراستها فيه . ألم يكن هو وحده الذى شذ من أبناء شاور وبطانته فكف عن استغلال نفوذ أبيه فى وزارته الاولى ، حتى شهد الناس بفضله فأثنوا عليه من حيث لعنوا أخويه ؟

ألم يعجب به حتى ضرغام عدو أبيه اذ بلغته كلمة خير قالها فيه فهزت من أريحيته ما جعله يبقى عليه من دون أخويه ، ثم لا يكتفى بذلك حتى يستبقيه عنده فى دار الوزارة ليقيه من بطش العاضد ، ثم يتخذه صديقا حميما بلغ من ثقته به أن كاشفه بسره ، واختاره رسولا يحمل الى أبيه والى أسد الدين تلك الخطة التى كتمها عن الناس أجمعين ؟

نعم ، انها احبته قبل أن تعرف هذه المعانى فيه ، أحبته منذ كانا صغيرين يلعبان معا فى البيت والشارع . وهى لا تذكر اليوم سر انجذابها اليه اذ ذاك ، فربما لا يعدو انجذاب الصبية الى رفيق صباها الذى تجمعها به القرابة والرحم ، غير أنها تذكر أن أخويه طيئا وسليمان كانا يتحببان اليها أيضا ، فكانت تعرض عنهما ولا تقبل الا عليه . ألأنه كان أصبح منهما وجها وأرق حديثا ، وأحب الى قلب خالتها زبيدة ، التى كانت لا تفتأ تقول حين تراهما يدرجان معا : « سنزوجها لك ياشجاع ، سنزوجك له ياسمية ؟! »

ولكنها تدرك يقينا أن حبها الصحيح له ، انما بدأ فى الحقيقة يوم عاد مع أهله من الصعيد ، فما كاد الصراع ينتهى بين أبيه وبين زريك حتى ترك أباه وأهله منهمكين فى تهيئة نزولهم بدار الوزارة ، وأقبل هو مسرعا الى بيت أهلها ، فتقدم الى أبيها يخطبها بنفسه . ونظرت اليه يومئذ ــ وكان مرتديا بذلة الفارس متوشحا سيفه ــ فرأت فى عينيه السوداوين من خلال أهدابهما الوطف معنى لم تره من قبل . وتسنى لها أن تتأمله ، اذ كان لا يرفع بصره اليها حياء ، ولا ينظر اليها الا مسارقة ، فأحست ــ لا تدرى كيف ــ أن لهذا الفارس الجميل شأنا ، وأنه ينطوى على شىء لا تدرى ما هو على التحديد ، غير أنها تستطيع أن تثق به ، وتعتمد عليه !

ثم رأت أباها بعد ذلك يحب هذا الشاب ويدنيه ، ويعزه ويجله ، ويتوسم فيه كما توسمت ، فنما حبها وازدهر ، فكان

مثل قلبها كمثل التربة الصالحة ألقى فيها البذر الطيب ، لينمو على هينته بما يتيسر من ماء ، فاذا غمـام صيب جادها يوما فرواها ، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج !

١٧

وأوشك السمر أن يبلغ نهايته حين تذكر أبو الفضل أنه يريد أن يعود صديقه القاضي الفاضل في بيته ، فهو عليل منذ كان في السجن حيث بقي محبوسا طوال عهد ضرغام حتى أطلقه عهد شاور الجديد .

والقاضي الفاضل عبد الرحيم بن على البيساني صـــديق قديم لأبي الفضل ، لقيه أول ما لقيه في غزة حيث كان قاضيا بها ، وكان أبو الفضل عائدا من احدى رحلاته في الشام ، فأحبه من أول اجتماع ، ولا سيما اذ قص عليه كيف كان هو وأهله في عسقلان حين حاصرها الفرنج ، ثم كيف هربوا منها لما سقطت فيأيديهم .

واستمرا بعد ذلك زمنا يتكاتبان وما يزداد أبو الفضل الا حبا له واعجابا بأسلوبه البديع في رسائله ، فخطر له أن يستقدمه الى القاهرة ليدفع به الى حيث يهيئه له فضله ، فيتولى (كاتبانشاء) في ديوان الوزارة ، عسى أن يفيد من وجود مثله هناك في خدمة حركته السرية .

ولبى القاضي الفاضل دعوته ، فقـــد بأهله الى مصر ، فتلقاه أبو الفضل وأحسن ضيافته ، واستأجر له بيتا حسنا فيالفسطاط ريثما يسعى لتوليته المنصب الذي يريده . وفي خلال ذلك كثر

اجتماعه به ، وتوثقت علائق الصداقة بينهما ، فصار أبو الفضل لا يصبر يوما عنه ، ولكيلا يثير الريبة كثرة تردد صاحبه الغريب عليه التمس منه أن يتولى تعليم ابنته سمية وتأديبها ، فقبل القاضى الفاضل ذلك عن طيب خاطر •

وقد سبق لأبى الفضل أن صنع مثل هذا مع الشيخ نجم الدين يوم بدأ اتصاله به ليصطفيه ويضمه الى جماعته ، فقد طلب اليه أن يعلم ابنته القرآن والفقه ، فكان يتردد على بيته كل يوم فيخلو اليه بعد أن يفرغ من درسه لابنته •

ولم يلبث أبو الفضل أن وثق بالقاضى الفاضل فأطلعه على سر جماعته وعرفه بهم فصار من أقطاب حركته منذ ذلك اليوم • ولكنه لم ينجح فى السعى للقاضى الفاضل لتوليته المنصب فى ديوان الوزارة ، اذ كان ذلك فى عهد رزيك بن طلائع ، وقد أخذت الأمور تضطرب فى يده ، منذرة بوشك سقوطه ، فلما تولى شاور الحكم بعده ، رأى أبو الفضل أن يستأنف مسعاه للقاضى الفاضل فقدمه الى شجاع بن شاور ، اذ كان يختلف اليه بعد ما صار خطيب ابنته ، ولم يلبث شجاع أن شغف بالقاضى الفاضل وأعجب بفضله وأدبه ، فحدث عنه أباه ، واقترح عليه أن يجعله كاتب انشائه ، فلما استدعاه شاور واجتمع به بهره فضله ، فلم يتردد فى توليته ، وسرعان ما سطع نجمه فى الديوان ، وظهر تفوقه على الأقران ، حتى كان شاور كثيرا ما يقول له : « اقتصد يا عبد الرحيم ، فانى أخشى أن يحسدنى العاضد عليك فيطلبك لنفسه ! »

١٨

فلما نهض أبو الفضل مستأذنا ليعود صديقه أبدى شاور رغبته هو أيضا فى أن يعوده معه ، فللقاضى الفاضل فضل كبير عليه ، ولن ينسى أبدا أنه أوذى فى سبيله ، وعذب ليقر أين فر شاور ، فاحتمل العذاب صابرا وأبى أن يقر . ولو فعل لأعلى ضرغام منزلته ، ولجعله كاتب الانشاء فى ديوانه كذلك .

وتحركت أم الفضل لتنصرف أيضا ، فصاحت أختها بصوتها الجهورى :

ــ الى أين يا أمينة ؟

فأجابت أم الفضل بصوتها الخفيض الناعم :

ــ ائذنى لنا يا أختى ننصرف !

ــ تنصرفون ! لا والله لا تبيتون الا عندنا الليلة !

ــ نريد أن نروح الى دارالفضل ابنى فنبيت عندهم !

ــ هيه ... الفضل وامرأته أعز عندك منى ؟!

ــ كلا يا زبيدة ... ولكننا قد وعدناهم اليوم .

ــ وعدتموهم ؟ نلغى الوعد الآن .. ميمون .. تعال ياميمون

فأقبل ميمون مسرعا :

ــ نعم يا مولاتى ...

ــ انطلق الساعة الى دار الفضل ابن أختى ...

ــ لكن يا زبيدة ...

ـ اسكتى أنت ! اسمع يا ميمون ••• قل لهم ان الجماعة سيبيتون الليلة عندنا فلا تنتظروهم ••

ـ حالا يا مولاتى ••

قال ذلك وانطلق •

ونظرت آمينة الى زوجها كأنها تستنجد به ، وكان لا يزال واقفا مع شاور اذ استوقفهما هذا الحوار بين الأختين ، فاستمعا اليه يضحكان ، وكان شجاع أيضا واقفا ليشيعهما الى الباب ، وسمية واقفة خلف أمها تسمع وتبتسم •

ولم تنتظر زبيدة حتى يتكلم أبو الفضل اذ أسرعت فقالت لأختها :

ـ أتظنين زوجك يستطيع أن ينفعك ؟

فضحكوا جميعا ومضت أم شجاع تقول :

ـ اشهد يا أبا الفضل بنفسك ، انها تريد أن تتخلص منى بكل سبيل !

ـ أبدا والله يا أختى !

ـ أختك ! لو كنت أختى حقا لما هان عليك أن تتركينى الآن ولم ير بعضنا بعضا من شهور !

ـ سنعود لزيارتكم عن قريب •

ـ كلا •• لا ترين وجهى ولا أرى وجهك •• لا عن قريب ولا عن بعيد •

وتمتم شاور مبتسما : « سبحان من جعلهما أختين شقيقتين ! »

قال أبو الفضل حينئذ وهو يغالب ضحكه :

ــ وجب يا أمينة .. رضا أم شجاع عندنا بالدنيا !

ــ تسلم يا أبا الفضل .. ويسلم حسك !

ثم التفتت الى زوجها قائلة :

ــ والآن رح يا سيدى مشوارك مع أبى الفضل ثم عد به معك ! حذار أن يفلت منك ..

فأجابها شاور :

ــ اطمئنى يا أم شجاع !

وقبل أن يتحرك أبو الفضل وشاور صوب الباب ، التفت أبو الفضل الى شجاع قائلا :

ــ وأنت يا شجاع ألا تحب أن تعود معنا صديقك القاضى الفاضل ؟

فأجاب شجاع :

ــ قد عدته اليوم يا سيدى ..

ونظر اليه أبوه نظرة ذات معنى ، كأنه يقول له ، قد فهمت قصدك ، ثم قال لأبى الفضل :

ــ دعه هنا ، فانه لم يقض الشوق بعد من خالته ولا من أمه .

فتبسم أبو الفضل ، وخرج ، وتبعه شاور .

وخف المجلس بعد خروج الشيخين ، ورقت حاشيته ، وأخذ الباقون يتحدثون فى جو أقل وقارا وأكثر طلاقة .

قالت زبيدة لأختها :

ــ لم لا تخلعين هذا الشال يا أمينة .. فان الدنيا حر ؟

ـ الجو متقلب يا أختى .. تارة حر وتارة برد ..

ـ كل سنة وانت طيبة يا أمينة ، نحن فى آخر الصيف ... لكن الساعة حر .

ـ صدقت !

قالت ذلك وخلعت شالها ، فتناولته سمية منها وعلقته على المشجب .

ـ وأنت يا شجاع .. لم لا تخرج مع سمية الى الشرفة .. وتدعنى أنا وأختى نتحدث وحدنا ؟ أم صحيح ما قال أبوك ... انك لم تقض الشوق بعد منى ومن خالتك ؟

فضحكوا جميعا ، وأجاب شجاع قائلا :

ـ نعم يا أماه .. هذا صحيح .. لن أقضى الشوق منكما أبدا . ولو جلست معكما ليلا ونهارا . ولكن ينبغى أن أطيع أمرك .. هلمى يا سمية .

وترددت سمية قليلا ، ثم خرجت معه الى شرفة واسعة مستطيلة تشرف من جهة على جانب من الميدان الكبير ، ميدان بين القصرين ، وتطل من جهة أخرى على حديقة الدار ، أما الميدان فتتلألأ الأنوار من جوانبه ، ومن وسطه ابتهاجا بيوم النصر ، وأما الحديقة فما يضيئها غير نور القمر ، تنسكب أشعته ، فتسقط على أرضها من خلل الشجر والغصون .

وهبت من ناحية الحديقة نسمة عليلة ، كأنها تحية من الطبيعة الرؤوم لحبيبين كريمين يوشكان أن يؤديا رسالة الحياة بعد قليل

ووقف الحبيبان مليا ينظران الى ما حولهما صامتين ، ثم التفت

عيونهما فابتسما ، ولكنهما لم يدريا ماذا يقولان ؟ وما حاجتهما الى القول ، وقد تكاشف قلباهما ، فليس بينهما حجاب ؟

ولكن للنجوى بعد لذتها فى السمع ، وبشاشتها فى القلب ، وقد أتيحت لهما الليلة بعد ما حرماها زمنا طويلا ، فلم لايتناجيان؟

وبدأ شجاع يناجيها فتجيبه هى فى حياء واقتضاب ، واستمر يناجيها فأخذ لسانها ينطلق شيئا فشيئا ، وما هى الا لحظات حتى اطرد الحديث بينهما ، وتسلسل ، وعجبا كيف استطاعا أن يتحاورا كل هذا الحوار ، وقد كانا يظنان منذ قليل أن ليس بينهما شيء يقال .

وكان حديثهما يجرى فى تسلسل واطراد ، كالجدول الطليق حتى اذا ما انتهى الى ذكر موعد الزفاف المأمول اعترضته الجنادل والصخور فتعثر واضطرب ، اذ لم تزل دون ذلك اليوم المنشود شهور طوال سيقضيانها فى الصبر والانتظار حتى تنتهى أم شجاع من عام حدادها على ابنيها الذبيحين .

لك الله يا يوم الزفاف الحبيب ! لقد كنا نستعجل انقضاء الشتاء لنلقاك فى الربيع ، فاذا نحن اليوم نستعجل انقضاء الخريف لنلقاك فى الشتاء !

١٩

وانقضت أيام وما برح الناس مبتهجين لهزيمة ضرغام ، اذ اعتبروها هزيمة للقصر ، ومستبشرين بعودة شاور الى الحكم اذا اعتبروا ذلك انتصارا للشعب . أليس العاضد قد كرهه ، وأثار ضرغاما عليه حتى أسقطه لأنه كان يتحدى القصر ، ويتقرب الى

الشعب ؟ فها هو ذا الآن يعود الى كرسى الحكم مؤيدا من قبل الشعب ، وأنف العاضد راغم !

وانتعش أملهم فى عهد جديد تستقر فيه الأمور ، وتنتظم الأحوال ، وتصان فيه الحقوق والحرمات ، وان كانوا لا يعلمون كيف يتم ذلك ، اذ لا يدرون ماذا ينوى أسد الدين أن يفعل بالعاضد ، أيخلعه عن العرش أم يبقيه ، ولا متى يغادر مصر ويعود برجاله الى الشام ، وهل يأمن بعد ذلك ألا يعود العاضد سيرته الأولى ، فيقيض لشاور ضرغاما آخر ؟

ومما أثار ريبتهم وزاد من قلقهم أن العاضد قد أسرع بارسال الخلع النفيسة والهدايا القيمة الى أسد الدين وكبار رجاله ، والى شاور أيضا ليعرب بذلك عن رضائه ، وتأييده ، وهم يعلمون أنه غير صادق فى وده لهؤلاء ، وانما يظهر لهم خلاف ما يبطن ريثما تسعفه الحيلة وتواتيه الفرصة فيمكر بهم كعادته فى ذلك ، ويخشون أن ينخدع أسد الدين به ، وان كانوا يرون فى وجود شاور معه عاصما له من ذلك .

وكان أسد الدين قد عسكر برجاله فى مخيم عظيم فى التاج بظاهر القاهرة حيث توافد الناس عليه من جميع الطبقات مسلمين مرحبين ، فكان يتلقاهم بالبشاشة واللطف مسرورا بما يشهد منهم من خالص المودة وصادق التكريم .

ولم يلبث أن أقبل اليه رسل العاضد يحملون اليه الهدايا والخلع وينهون اليه رغبة مولاهم الخليفة فى استقباله صباح

الغد بالقصر ، فأمرهم برفع شكره الى الخليفة وابلاغه أنه سيحضر هو وكبار رجاله للسلام عليه .

واتصل بشاور وعرض عليه الأمر واستشاره فى عدد من يستصحبهم معه من رجاله ، فقال له شاور :

ــ خذ من رجالك على عدد الخلع التى بعثها اليكم العاضد ولا تزد ..

ــ أتراه قد قصد ذلك ؟

ــ نعم ...

ــ انما هى خمس عشرة خلعة فقط .

ــ ان أردت أن تشعره بأنك لا تأمن غدره ، فزد على هذا العدد ما شئت ، أما اذا شئت أن تشعره بثقتك وطمأنينتك فانقص ان شئت ولكن لا تزد ..

فحرك أسد الدين رأسه متعجبا ، ثم سأله هل يخشى عليهم منه غدرا ، فأطرق شاور قليلا ثم أجابه قائلا : « ان العاضد لغدور ، ولكنه لن يأتيها اليوم هكذا علانية ، فهو أحصف من ذلك » .

فاقتنع أسد الدين برأى شاور ، وعزم على ألا يستصحب معه غير أربعة من رجاله هو خامسهم ، وراجعه رجاله فى ذلك ، ولا سيما ابن أخيه صلاح الدين ، اذ قال له :

ــ يا عم لأن يظن بك العاضد قلة الثقة به خير من أن تقع فى فخه .. وانا لا نعرف مافى قصره من الحبائل والشباك .

ولكن أسد الدين صمم على عزمه ولم يتردد .

وقبل أن ينصرف شاور من عنده ، قال له :
ــ اذا شئت سبقتك غدا برجالى الى العاضد لأستطلع ماعنده ، فأزداد طمأنينة .

فقال له أسد الدين : « ذلك خير »
وانفرد به صلاح الدين بعد انصراف شاور ، فقال له : « الآن زاد شكي وارتيابى » .
ــ ماذا تعنى ؟
ــ ان قلبى لا يطمئن الى هذا الرجل ؟
ــ شاور ؟
ــ نعم ...
فضرب أسد الدين على صدره وهو يقول : « دع عنك هذه الوساوس يا ابن أخى .. انه صاحبنا ونحن سيوفه وحماته ، فأى شىء يدعوه الى ما تظن ؟ »

٢٠

وأشرق الصباح ، فغدا شاور الى القصر الشرقى ، واستؤذن له على العاضد ، فأذن له ودخل عليه شاور فى منظرته فتلقاه مرحبا كأ ن شيئا لم يحدث بينهما قط ، ثم دعاه الى الجلوس ، فلما جلس قال له : « كنت أظن يا أبا شجاع أنك ستأتى فى ركب أسد الدين ترشده الطريق ! »

فأدرك شاور أن العاضد قد بدأ يلاعبه فأجابه متجاهلا قصده: « مولاي ان مطلع القمر لا يخفى على أحد ، وقد رأيت من واجبى

وأنا وزيرك أن أسبقهم الى مجلسك لأكون فى خدمتك عند استقبالهم » .

فأبدى العاضد ارتياحه لمـا سمع ثم قال له : « خبرنى يا شاور ما رأيك فى هؤلاء القوم ؟ »

ـ ستبلوهم يا مولاى بنفسك فتعرفهم ..

ـ انك خالطتهم قبلى .

ـ أنت يا مولاى أخبر بالرجال منى .

فأطرق العاضد لحظة ، ثم قال :

ـ أتدرى يا شاور لماذا سألتك عنهم ؟

ـ لا يا مولاى ..

ـ أردت أن أطمئن أنهم لن يتجـاوزوا ما جاءوا من أجله فيطمعوا فيما ليس لهم .

ـ فى أى شىء يا مولاى ؟

ـ فى الحكم مثلا .

فشعر شاور برجفة ، ولكنه تجلد وقال : « كلا يا مولاى . لقد عقدت بينى وبين السلطان نور الدين عهدا وليس نور الدين ممن ينقضون العهد » .

ـ صدقت يا شاور . الآن اطمأن قلبى أنك ستبقى فى الحكم .

فنظر اليه شاور فى شىء من الارتياب لم يستطع كتمانه ـ كأنه يقول له : « ألست أنت الذى سعيت أمس فى عزلى ؟ »

فمضى العاضـد يقول : « لا ريب أنك تعلم يا شاور أنى

استنجدت بنور الدين ليخلص البلاد من بغى ضرغام •• ويعيدك أنت • ألم يطلعك نور الدين على كتابى هذا ؟ »

ـ لعل الكتاب ورد اليه بعد سيرنا من عنده •

ـ كلا يا شاور فقد أرسلته من أول ما حكم ضرغام •

فحار شاور فيما سمع ، اذ لم يستطع أن يتبين صدق دعوى العاضد من كذبها فأجابه قائلا :

ـ شكرا لك يا مولاى على كل حال •• يسرنى أن قد عدت فآثرتنى بثقتك على ضرغام من زمن بعيد ••

ـ هذه عادتى يا شاور ، أولى الوزير من ثقتى على قدر ما يستقيم ويخلص •

وأعلن العاضد بقدوم أسد الدين وصحبه ، فانتقل من منظرته الى الايوان ليستقبلهم فيه •

وترجل أسد الدين وصحبه عند باب القصر ، فوجدوا شاور قد خرج لاستقبالهم مع الحجاب ، ودخلوا فأعجبهم ما رأوا من الزينات التى أقيمت تحية لهم ، فالبساط المفروش فى طريقهم ، والأعلام المرفوعة ، وطاقات الورود والرياحين منصوبة فى كل ركن ، فى أشكال جميلة مختلفة •

ومشوا فى ردهات القصر وهم يتعجبون من فخامة ما يرون وجمال ما يشهدون ، حتى لم يستطع أسد الدين أن يملك نفسه من الدهش ، فمال على ابن أخيه الذى كان يسير بجانبه فهمس فى أذنه قائلا : «أين صاحبنا المسكين نور الدين من كل هذا يا يوسف؟»

فأومأ اليه صلاح الدين أن يملك نفسه الآن لئلا يغض ذلك

من قدره عند هؤلاء ، فأمسك أسد الدين وواصل سيره حتى اذا بلغ باب الايوان ، نسى ما نبهه ابن أخيه اليه ، فوقف يتطلع الى نقوش الباب وزخارفه وهو يقول : « سبحان الله ! ما أبدع هذا الذى أراه ! » .

فقال شاور بصوت خفيض : « داخل الايوان أبدع وأجمل » .

ودنا صلاح الدين من عمه قاصدا فى الظاهر أن يصلح الخلعة العاضدية التى عليه ، ولكنه أراد فى الباطن تنبيهه ، فقال له همسا :

« أنت داخل عليه ، فانظر اليه ولا تنظر الى ايوانه » .

فابتسم أسد الدين هامسا : « لا تخف .. ان عمك يعرف سبيله عندما يجد الجد » .

وقد صدق أسد الدين فيما قال ، فما أن جاز عتبة باب الايوان حتى مشى قدما صوب العرش لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا يحيد بصره عن الشخص الجالس عليه حتى اضطر العاضد أن ينهض له قبل أن يدنو زائره من قوائم العرش ، وصعد نحوه وهو يضم أطراف خلعته الفضفاضة من السندس الفاخر المزركش ببنائق الفضة وقصب الذهب ، فسلم عليه بامارة المؤمنين ، فرد العاضد السلام ، وصافحه ثم عانقه ، وهو يقول : « مرحبا بأسد الدين ومندوب نور الدين » .

ثم صعد رفاقه الأربعة ، فقدمهم واحدا واحدا الى العاضد ، والعاضد يصافهم مرحبا ، وكان قد نصب كرسيان عن يمين كرسى الخليفة وشماله ليجلس أسد الدين عن يمينه ، ويجلس

الوزير عن شماله ، ولكن العاضد لأمر ما نزل عن العرش ودعاهم الى الجلوس على الأرائك فى القاعة وجلس هو بين أسد الدين وصلاح الدين من حيث جلس شاور أمامه فى الأريكة المقابلة .

وطاف الساقى عليهم بشراب الرمان المعطر ، ثم أومأ العاضد ، فانسحب الحجاب واحدا بعد واحد ، حتى لم يبق فى القاعة غير كهلين أسمرين واقفين عن يمين العرش وشماله ، لا يتحركان كأنهما تمثالان .

وأخذ العاضد يثنى على نور الدين ، وما يضطلع به من جهاد الفرنج وأنهم لولاه لحاولوا امتلاك مصر ، ولا سيما والوزراء فيها يتقاتلون دائما على كرسى الحكم ، ولا يهتمون بغيرمصالحهم الخاصة ، بل ان بعضهم لا يتورعون عن الاستنجاد بالعدو لتوطيد مركزهم .

وكان شاور قد أحس من أول الحديث أن العاضد يعنيه ، ويعرض به ، فلزم الصمت متجلدا متجاهلا ، وصلاح الدين يراقبه من طرف خفى ، ويلاحظ أثر الحديث فى وجهه ، أما أسد الدين فقد أظهر أنه لم يفهم تعريض العاضد بشاور فبقى ينظر اليه مستحسنا حديثه عن الوزراء عامة .

ولكن لما بلغ العاضد من حديثه الى هذه الجملة الأخيرة ، اهتز أسد الدين قليلا ، ولاح الشك فى وجهه وهم أن يستوضح العاضد عما قصد لولا أن سبقه شاور الى الكلام ، فقال وقد ظهر الامتعاض فى وجهه ولم يستطع صبرا : « على رسلك

يا مولاى . ان كان مولاى يعنينى ، فانى ما استنجدت بغير نور الدين ، ونور الدين صديق لا عدو » .

وأبدى أسد الدين ارتياحه لقول شاور ، ونظر الى العاضد مستفهما ، فما كان من العاضد الا أن ضحك ، ثم قال : « أنت معذور يا أسد الدين ان أشكل عليك قصدى لأنك لا تعرفنى ، ولكن لا عذر لوزيرى شاور »

قال شاور : « ماذا يعنى مولاى ؟ »

فقال العاضد محتدا : « هل يعقل عندك أننى قصدت بالعدو نور الدين ؟ ألم تجد غير نور الدين عدوا حتى ينصرف ذهنك اليه ؟ »

فاضطرب شاور قليلا ثم قال : فمن ذا قصدت يا مولاى ؟

— ويلك ! قصدت الفرنج ، عدونا .. وعدو الجميع !

— لكنى لم أستنجد بهم ؟

— ومتى قلت أنا ذلك ؟ انما كنت أعنى صاحبك ضرغاما .. فأسأت أنت الفهم .

— ضرغام ؟

— نعم ..

وظهر العجب فى وجوه الجميع فالتفت العاضد الى أسد الدين وقال :

— أنت تدرى يا أسد الدين أنى استنجدت بنور الدين ، ليخلص بلادي من ضرغام ؟

— نعم ..

فأدرك شاور حينئذ أن العاضد كان صادقا فيما زعم .

ومضى العاضد يقول : « أتدرى ماذا حملنى على ذلك ؟ خشى ضرغام على مركزه لما بلغه لحاق شاور بكم فى الشام ، فأراد أن يستنجد بالفرنج فنهيته أنا عن ذلك ، فلما لم ينته ، وركب رأسه لم أجد بدا من الكتابة الى نور الدين » .

ولاح الرضا فى وجوه الحاضرين ولا سيما فى وجه شاور ، حتى هم أن يعتذر للعاضد ، ويشكره ، ولكن صلاح الدين سبقه ـ وكان قد تململ مما سمع من العاضد ، فلم يستطع صبرا عن الكلام ، فقال : « يا أمير المؤمنين لا ينبغى أن نقع فى رجل قد أسكته الموت عن الادلاء بحجته ، وحسبنا أنه قد لقى مصرعه وكفينا شره ! »

وكانت كلمة مفاجئة بهت لها الجميع ، وتغير وجه العاضد ، وظل ينظر مليا الى صلاح الدين ، حتى اعتذر له عمه أسد الدين قائلا : معذرة يا مولاى ان يوسف ابن أخى لم يزل حدثا ولم يجرب الرجال بعد وانه سريع التصديق لأقوالهم وقد خدعه ضرغام عن حقيقته لما قابله !

ـ وأين قابله ؟

ـ فى بلبيس .

وسرعان ما أظهر العاضد أنه اقتنع وقبل العذر ، اذ قال وقد زال العبوس من وجهه : « لا ملام على ابن أخيك اذن .. فان ضرغاما يستطيع أن يفتن بحديثه حتى الشيطان » .

ولم يطل الاجتماع بعد ذلك ، اذ نهض أسد الدين مستأذنا ،

ونهض رجاله فقام العاضد يشيعهم وهو يقول لهم :

ــ أنتم على الرحب والسعة ، وأى شىء تحتاجون اليه مبذول لكم ، وأنت يا أسد الدين باب قصرى مفتوح لك ليلا ونهارا ، تدخل عندى كما تشاء ، فى أى وقت .

وأخذ أسد الدين يشكره مرددا حتى بلغوا باب الايوان فودعهم العاضد وانصرفوا .

٢١

وركب أسد الدين وصحبه يرافقهم شاور ورجاله راجعين الى المعسكر بالتاج ، وقد اصطفت الجماهير طول الطريق تحييهم ، وتهتف لأسد الدين وشاور وأطلت النساء من شرفات المنازل يتطلعن ويرسلن الزغاريد .

وفى المعسكر جلس أسد الدين بين خواص رجاله ، ومعهم شاور فتجاذبوا الحديث ، فيما شهدوا فى القصر ، وما سمعوا من الخليفة العاضد .

قال أسد الدين :

ــ قد سمعت أنه شاب صغير ولكنى ما كنت أتصوره بهذه الحداثة . أنا لا أستطيع أن أعطيه أكثر من عشرين سنة ..

فقال شاور :

ــ بل هو دون العشرين ! فى الثامنة عشرة .

ــ فى هذه السن وعنده كل هذا الدهاء .

ــ أجل ، لتعلم أنى لست مبالغا فى وصفه لك .

ــ ومن ذلك الكهلان الواقفان على جانبى العرش ؟



وركب أسد الدين وصحبه يرافقهم شاور ورجاله راجعين الى المعسكر بالتاج ، وقد اصطفت الجماهير طول الطريق تحييهم ، وتهتف لأسد الدين وشاور ، واطلت النساء من شرفات المنازل يتطلعن ويرسلن الزغاريد

ـ هذان كبيرا أستاذى القصر •• مؤتمن الخلافة •• وزعيم الخلافة !

ـ وماذا يصنعان ؟

ـ هما مستشاراه فى كل شىء • ولا يعصى لهما مشورة ••

ثم أخذ شاور يقص عليهم بعض ما جرى بينه وبين العاضد قبل مجيئهم ، وكيف حاول العاضد بأسلوبه الثعلبى أن يوغر صدره على أسد الدين ، فلما لم يجد عند شاور ما أراد عاد فأخذ يثنى على أسد الدين ونور الدين ، وختم شاور حديثه بأن قال : « لذلك فانى لا آمن يا أسد الدين أن يلقاك يوما فيوغر صدرك على ليفرق بيننا فحذار منه » •

ـ لا تخف يا أبا شجاع •• انى قد عرفت الرجل اليوم •• وفهمت أسلوبه !

ـ خير ما نصنع يا أسد الدين •• لنتقى شره •• أن تكاشفنى بما يقول لك عنى •• وأكاشفك بما يقول لى عنك •

ـ أجل •• سنصنع ذلك •• ولن نمكنه ان شاء الله مما يريد •

ـ وأحسن من ذلك كله أن تسرع بخلعه • وتولى أميرا غيره • فماذا ترى ؟

فأطرق أسد الدين قليلا ثم قال : « كلا يا شاور ليس عندى أمر من نور الدين بخلعه •• ولن أقدم على ذلك من تلقاء نفسى الا فى حالة واحدة » •

ـ ما هى ؟

ـ اذا تبين لى أن فى بقائه خطرا من جهة أعدائنا الفرنج •

ـ انه لن يتورع عن الاتصال بهم عند الضرورة ..

ـ حينئذ يكون لنا معه شأن آخر ..

ثم قام شاور يتفقد حاجات المعسكر من المؤن والمرافق وغيرها ليأمر بارسالها اليهم . فلما انتهى من ذلك ودع أسد الدين وانصرف .

ودنا صلاح الدين من عمه فقال له :

ـ لقد أحسنت يا عم فى ردك على شاور ..

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أغلب الظن عندى أن هذا الرجل لم يقصد ما قال عن خلع العاضد .. وانما أراد أن يسبر ما عندك ..

ـ عمن تتحدث يا ابن أخى ؟ أما برحت تشككنى فى شاور ؟

ـ انى لا أطمئن اليه أبدا .

فالتفت أسد الدين الى شهاب الدين الحارمى قائلا :

ـ تعال يا شهاب الدين كن حكما بينى وبين ابن أختك هذا . ماذا يريدنى أن أصنع بصاحبنا شاور ؟ هل أنقض عهدنا معه وأعلن الحرب عليه ؟

فأجابه الحارمى ضاحكا :

ـ لا شأن لى يا أسد الدين بما بينك وبين يوسف .. ان آكن أنا خاله فأنت عمه .. ولست أولى به منك .

فقال صلاح الدين بلهجته الجادة التى لم تتغير :

ـ أنا لم أذكر نقض العهد ولا اعلان الحرب .. وكل ما أريده منك أن تتيقظ له لتأمن شره ..

فتنهد أسد الدين وقال :

ــ والله لا أدرى فى هذا البلد أأتيقظ للعاضد أم أتيقظ لشاور ؟

ــ تيقظ لهما معا .

فقال أسد الدين مداعبا ، وقد نهض الى خبائه ليخلع ثيابه ويستريح : « سمعا يا صلاح الدين .. سأتيقظ لهما وسأتيقظ لك أيضا ولخالك ! »

وتوارى فى خبائه ، وتركهما يضحكان ..

واضطجع أسد الدين فى فراشه لينام ، فاستعصى النوم عليه ، اذ ظلت كلمات صلاح الدين فى شاور ترن فى أذنيه وتضطرب فى رأسه فيتقلقل لها جنباه ثم نهض فنادى ابن أخيه اليه ، فلما دخل أجلسه على جانب فراشه فقال له :

ــ طار النوم من عينى يا يوسف من أجلك .

ــ من أجلى ؟ فيم يا عمى ؟

ــ اسمع .. اياك أن تظن يا ابن أخى أنى لا أقدر رأيك قدره.

فبدره صلاح الدين قائلا : « أو قد تركت نومك ودعوتنى لتعتذر ؟ ويحك يا عمى ! أمثلى يحتاج الى اعتذار من مثلك مهما قلت وفعلت ؟ »

ــ كلا .. ما الاعتذار قصدت . . ولكنى سأطلعك على سر ثقتى بشاور . أجل قد آن لى أن أطلعك على هذا السر ..

ــ أى سر يا عمى ؟

ــ أتذكر ذلك الشيخ الذى زارنى البارحة بعد العشاء ؟

ــ ذلك الشيخ الأشقر الذى خلوت به ؟

ـ نعم •••

ـ قلت لى انه من كبار تجار الحرير •

ـ أجل •• ولكنه لم يحضر ليبيعنى شيئا من بضاعته كما زعمت لك وللآخرين •• اسمع هذا السر ولا تخبر به أحدا • انه صديق نور الدين ••

ـ صديق نور الدين ؟

ـ نعم •• ومن أكبر من يثق بهم • وقد ظل يكاتبه ويراسله سرا من قديم •

ـ والله يا عمى لقد وقع فى قلبى حين رأيته أن له شأنا ••

ـ دعنى الآن من حديث فراستك •• فانى سأحدثك عن علم لا عن محض تفرس وتخرص •

ـ أنا مصغ اليك ••

ـ لولا رسائل هذا الشيخ الى نور الدين لما وثق نور الدين بشاور ولا استجاب له • أو قد فهمت الآن قصدى ؟

ـ نعم أنت تثق بشاور لأن هذا الرجل يثق به ؟

ـ هو ذاك •• فماذا ترى الآن ؟

فنهض صلاح الدين قائلا : « نم الآن قيلولتك أولا • فانى لا أريد أن أطير النوم من عينيك •••

فجذبه أسد الدين وأعاده الى الجلوس وهو يقول : « ويلك ياشقى ! قد طار النوم من عينى وانتهى • قل لى الآن ما رأيك ؟ »

ـ فى شاور ؟

ـ لم يتغير ولن يتغير !

فأخذ أسد الدين بأذنه فقرصها وقال متغاضبا فى عطف وحنان :
« اخرج من عندى يا عنيد ، ودعنى لأنام » .

وخرج صلاح الدين ضاحكا وهو يقول : نم يا سيدى واطرد هذا الكابوس من رأسك .

ولم يستطع أسد الدين أن ينام قيلولته ، بل لم يستطع بعد ذلك أن يهنأ بنومه فى الليل أيضا . فقد ظل التفكير فى أمر شاور يقلقه ويؤرقه دون أن يعرف لذلك سببا واضحا ، فهو باق على ثقته بشاور ، اذ لم ير منه ما يزعزعها . وما قيمة تخرصات ابن أخيه وعنده هو علم اليقين ؟ لكن شبحا خفيا من القلق يتسلل الى نفسه ، فيتنقل ظله فى أرجائها كلما طرده من ركن ظهر له فى ركن آخر . حسبك الله يا صلاح الدين ! أنت السبب فى هذا كله .. هبه .. هو الآن مع الملائكة فى سلام .. وأنا مع الشياطين فى جهاد وصراع .

وبات يتقلب فى فراشه صاحيا ، حتى رق له النوم فى الهزيع الأخير من الليل فجاد عليه ببعض الوصال .

٢٢

وما كان يعلم أسد الدين أن شاور الذى أرقه التفكير فيه لم يكن تلك الليلة أسعد حالا منه ، فقد ضل فى بيداء الفكر أيضا ، ولم يهتد الى النوم سبيلا ، فكأنهما حبيبان عاشقان فرق بينهما الزمان ، فجمع بينهما الأسى والسهاد . غير أن الذى أرق شاور ليس الفكر فى أسد الدين ، بل فى العاضد ، وليس الذى سمعه من العاضد ذلك اليوم هو السبب وحده ، وان كان كافيا لاقلاقه

وتأريقه ، بل وقع له تلك الليلة حادث خطير ، ضاعف من قلقه ، وزاد من أرقه •

ذلك أنه لما أراد أن يأوى الى فراشه بعد عشية قضاها فى هم وكبد ، دخل عليه غلامه ميمون ، فأخبره أن بالباب رجلا سريا اسمه ابن الخياط يريد أن يقابله فى أمر مهم •

وابن الخياط هذا رجل يعرفه شاور من أعيان المدينة ، مشهورا بحب الترحال ، له ضياع فى جهة بلبيس وغيرها ، ويقتنى فى داره بالقاهرة غرائب الآثار ونوادر التحف ، يجمعها من رحلاته • ترى ماذا جاء به فى مثل هذه الساعة ؟ وهم شاور أن يقول لغلامه : قل له يرجع لزيارتى غدا فى الصباح ، غير أنه لم يقدر من فرط القلق الذى به أن يؤجل لقاء هذا الطارق عسى أن يجد عنده تفريجا لكربه من حيث لا ينتظر •

فارتدى جلبابه الديبقى ، وأخذ خنجره ، فدسه فى وسطه ، ثم نزل ليلقاه فى قاعة الضيوف ، وفى أثناء نزوله لقى ابنه شجاعا يصعد الدرج عائدا من عند آل أبى الفضل فى الفسطاط حيث سمر قليلا عندهم ، فأخبره أبوه بقصة الضيف ، فعجب وارتاب ، وقال : « دعنى يا سيدى أستقبله معك » •

ـ لا يابنى ، لعله يريد أن يفضى الى بسر ، ولكن انتظر أنت بباب القاعة لتكون قريبا منى اذا احتجت اليك ••

ودخل شاور القاعة فوجد ابن الخياط واقفا ينتظره •

ـ معذرة يا أبا شجاع ان أثقلت عليك فى مثل هذه الساعة •• ولكن الحاجة التى أتيت من أجلها تقتضى ذلك •

ـ لا بأس يا ابن الخياط .. انى ما أويت الى فراشى بعد . اجلس ... مرحبا بك .

فجلس ابن الخياط وجلس شاور قريبا منه .

ـ لا أحد يسمعنا هنا ؟.

ـ لا أحد .. قد نام الجميع .. خير ان شاء الله .

ـ خير يا أبا شجاع .. ما دمت قد عدت الى الحكم فالدنيا بخير ..

ـ شكرا لك .

ومضى ابن الخياط يعرب عن سروره بعودة شاور ، وابتهاج الناس بذلك ، وأملهم فى استقرار الأحوال بالبلد ، ثم قال : « ولكنى لا أكتم عنك يا أبا شجاع أن سرورى كان يكون أعظم لو تم هذا الأمر بغير أن يأتى هؤلاء الغزو الى بلادنا ويتصرفوا فى أمورنا » .

وقدح الشك حينئذ فى نفس شاور أن يكون هذا الرجل مدسوسا عليه من قبل العاضد ليفسد ما بينه وبين أسد الدين ، ولكنه لم يبد ذلك بل أجابه قائلا : « كلا يا ابن الخياط .. ان هؤلاء لا يتصرفون فى أمورنا اليوم ، ولن يفعلوا ذلك ، وانما جاءوا لمعاونتى على طرد ضرغام بعهد بينى وبين سلطانهم نور الدين ، ثم يعودون الى بلادهم .. ونور الدين رجل شريف لا ينقض العهد » .

قال ابن الخياط : « أجل انهم ربما لا ينوون سوءا اليوم ولكن لا تنس أن العاضد لم يطق وجودك من قبل ، فكيف يطيقه اليوم وقد فرضت فرضا عليه ؟ » .

ـ وما شأن العاضد فيما ذكرت ؟

ـ لا ريب أنه سينتهز وجود هؤلاء فينقلب بهم عليك ..

ـ كلا انهم أصدقائى ولن يقدر العاضد على الايقاع بينى وبينهم .

ـ عجبا لك يا أبا شجاع ! انك تعرف العاضد وأحابيله ..

وتعجب شاور من قدحه فى العاضد وقد ظن أنه من قبله ، ولكنه رأى أن يسايره فى الحديث الى نهايته ، لعله يكشف سره ، فقال له :

ـ هيهات قد كان ذلك فيما مضى .. أما اليوم فلن يجد له ضرغاما آخر ..

ـ اعلم يا شاور أن العاضد ان لم ينجح مع هؤلاء .. فسينجح مع قوم آخرين أقوى منهم ...

ـ من تعنى ؟

ـ أصدقاءه الفرنج !

فدهش شاور لما سمع وطرب فى الباطن لذكر الصلة بين العاضد وبين الفرنج وان لم يسمع بعد دليلا عليها من زائره ، وتوقع أن يسمع الدليل . وقد تغير رأيه فى ابن الخياط الساعة ، اذ استبعد أن يكون من طرف العاضد ، ورجح عنده أن يكون حسن النية ، يخشى على وطنه أن يقع فى أيدى الفرنج .

ـ ماذا تقول يا ابن الخياط ؟ الفرنج أصدقاؤه ؟

ـ لم لا يكونون كذلك ؟ انهم لا يريدون بمصر سوءا .. وانما يخشون أن يملكها نور الدين فيقوى بها عليهم .. فاشارة

من العاضد أو من غيره كافية عندهم لبذل الصداقة والنجدة ..

فعجب شاور مما قال ، وحار فى أمره مرة أخرى ، ولـكنه مضى فى حواره يقول :

ـ دعنى من هذا وقل لى أولا .. هل اتصل بهم العاضد ؟

ـ نعم .. ولكنهم لا يثقون بقوته اليوم ويؤثرون لو صادقوا من هو أقوى منه .

ـ لكن كيف عرفت أنه اتصل بهم ؟

فنظر اليه ابن الخياط مليا ثم قال له : «هل يعنيك هذا كثيرا؟»

ـ نعم ...

ـ انى كثير الأسـفار كما تعلم ، وأحب جمع التحف والآثار والوثائق التاريخية ، أبذل فيها المال الكثير ، وقد وقعت فى يدى وثيقة تثبت ما تريد ..

ـ أين هى ؟

ـ عندى .. ولكن لا أستطيع أن أطلعك عليها ولا أحدا غيرك ..

ـ لم ؟

ـ يا أبا شجاع أتريد أن تؤخذ منى وتؤخذ معها حياتى ؟ ولكنى أقسم لك بالله وملائكته أنها بخط العاضد وعليها توقيعه وختمه ! ألا يكفيك هذا ؟

فأطرق شاور هنيهة ، ثم قال له : « لكن ماذا جاء بك لتسمعنى هذا الذى قلت ؟ »

ـ هذا بلدى يا شاور .. وله على حقوق .. أو تظن أن رجال

الحكم وحدهم هم الذين عليهم أن يهتموا بخير بلادهم واستقامة أحوالها ؟

ــ كأنك جئت لتنصحنى وتشير على ؟

ــ هذا واضح يا أبا شجاع .. أنت رجاء هذه الامة ومعقد آمالها ..

ــ فبم تشير على ؟

ــ قد أشرت عليك بما فيه الخير ..

وسكت شاور قليلا وقد أخذ مرمى الرجل يتكشف له شيئا فشيئا . انه يشير عليه بمصادقة الفرنج ، لا ريب فى ذلك ، ولكن لحساب من يصنع ذلك ؟ لحساب الفرنج أنفسهم أم لحساب العاضد ؟ هذا ما بقى حائرا فيه ، غير أن قلقه من جهة العاضد جعله يميل الى ترجيح الاحتمال الثانى . واستجمع شاور كل ما أوتى من فطنة وسرعة بديهة ، فلاح له الرأى الحاسم الذى ينبغى أن يأخذ به فى هذا الموقف الحرج ، فقرر أن يصدع به وليكن ما يكون !

ــ اياك يا ابن الخياط أن تريدنى على مصادقة الفرنج .

ــ وأى بأس فى ذلك ؟

ــ أى بأس فى ذلك ؟ هذه خيانة !

ــ ان لم تصادقهم فسيصادقون العاضد .

ــ فليذهب العاضد الى الجحيم .

ــ العاضد لا يعنينا بل مصلحة البلد ، ليس من مصلحة البلد

أن يجيئوا فلا يجدوا رجلا قويا مثلك يقدر أن يقفهم عند حدود ما جاءوا من أجله ..

ـ ويلك ! ليس من مصلحة البلد أن يجيئوا البته .

ـ هذا لو بقى هؤلاء الغز بعيدا عن مصر ، أما وقد وطئوا أرضها ، فالفرنج آتون لا محالة لنصرك أو لنصر العاضد ..

ـ اخسأ يا خائن ! اخرج من عندى !

فنظر اليه الرجل نظرة ملؤها الحقد ، ثم نهض من مجلسه وهو يقول :

ـ تسبنى وتطردنى يا شاور ؟ والله لتندمن على هذا !

ـ ارجع الى من أرسلوك .. فانقل اليهم ما شهدت .

ـ كلا . أنا لم يرسلنى أحد .

ـ بل أعرف من أرسلك .

ـ دعنى أختبر فطنتك يا أبا شجاع .. من ؟

ـ العاضد ودهاقينه .

فتنفس الرجل الصعداء ، وابتسم قائلا : « أما عدت تخاف العاضد يا شاور ؟ انه الخليفة وانه من تعرف ! »

ـ كلا لاأخافه .. انطلق اليه الساعة وقل له انى لا أخافه .

ـ صدقت .. صرت اليوم تخاف أسدالدين مولاك وسيدك !

فاستشاط شاور غضبا ، وانقض على الرجل فطرحه أرضا وبرك عليه ثم حل عمامته وجعل يكتفه بها ، ودخل شجاع حين سمع الهدة على الأرض وخلفه ميمون العبد ، فوجد أباه باركا

على الرجل ، ولم يكد ينحنى ليعين أباه حتى فرغ أبوه من تكتيف الرجل ، فقام عنه وتركه يصيح ويرفس الأرض بقدميه •

قال شجاع وقد شهر خنجره : « دعنى أقتله يا سيدى فانه خائن ! »

ــ كلا يا شجاع دعه لميمون •

وخلع شاور حذاءه فألقاه الى ميمون قائلا : خذ الحذاء يا ميمون فاضرب به وجهه !

وطفق العبد يضرب وجه ابن الخياط بالحذاء ، وهو يتقلب ذات اليمين وذات الشمال الى أن صاح شاور : « حسبك يا ميمون • حل عنه الآن كتافه ! »

فقام الرجل يئن ويتوجع والدم يسيل من جبينه ومن فمه •

ــ خذه معك يا ميمون فأوصله الى الباب •

فساقه ميمون والرجل يترنح كالمخمور حتى اذا بلغ باب القاعة التفت الى شاور قائلا فى غيظ وحقد : « بينى وبينك يوم يا شاور » ! ثم خرج ووقف شاور صامتا ولم يجب •

ثم التفت الى شجاع فوجده واقفا فى شبه ذهول •

ــ سمعت الحديث الذى دار بيننا يا شجاع ؟

ــ نعم يا سيدى سمعت شطرا منه •

فمال شاور الى الاريكة فجلس وغرق فى فكر عميق •

ولم يشعر الا بعد حين بابنه شجاع قد انفجر يبكى أمامه ، وجعل يقبل رأسه وهو يقول : « سامحنى يا سيدى • سامحنى »

ــ ما خطبك يا شجاع ؟ فيم أسامحك ؟

ــ فيما أسأت الظن بك على غير حق •



قال شجاع وقدشهر خنجره «دعنى أقتله ياسيدى فانه خائن ! »

ـ كلا يا شجاع دعه لميمون ٠

وأجفل شاور من هذه الكلمة ولكنه تجلد :

ــ متى يا شجاع ؟ متى كان ذلك ؟

ــ يو مبلبيس ياسيدى .. يوم بلبيس .

وسرى عن شاور لما سمع هذا فأخذ بيد ابنه فأجلسه بجواره وأخذ يطبطب على كتفه وهو يقول :

ــ لا جناح عليك يا بنى . لقد سامحتك فى هذا منذ ذلك اليوم ..

ــ لكنى ما تحققت صدقك وصواب رأيك فى ضرغام الا الساعة .

ــ الحمد لله .. الحمد لله ..

وظهر ميمون على الباب .

ــ ماذا فعلت يا ميمون ؟ أوصلته خارج السدة ؟

ــ نعم يا سيدى

ــ اذهب اذن لتنام .

وما لبث شاور أن عاد الى فكره واطراقه ، فهاب شجاع أن يتكلم أو أن يتحرك فلزم مكانه صامتا الى أن رفع أبوه رأسه كأنما اهتدى الى حل ارتضاه :

ــ كنت فى الفسطاط عند خالتك أمينة يا شجاع ؟

ــ نعم يا سيدى .. وهم يسلمون عليك .

ــ اسمع يا بنى ، انى قد عزمت على أن أعجل بزواجك فى الحال .. فان لم يوافق هؤلاء على ذلك اخترنا لك عروسا أخرى!

فعجب شجاع مما سمع من أبيه :

ـ التأخير يا سيدى ليس منهم بل منا حتى تنتهى والدتى من حدادها ..

ـ فلينته حدادها من اليوم . الحداد لن ينفع من مات .. فلا ينبغى أن يضر من عاش .. غدا سنذهب جميعا الى الفسطاط لنتفق معهم على موعد الزواج .

ـ أحقا يا سيدى ؟ !

ـ نعم .. أتدرى يا شجاع ماذا أنا صانع ؟ لأقيمن لك عرسا تتحدث به الناس من المالح الى أقصى الصعيد !

٢٣

وغدا شاور من الصباح الباكر الى مخيم التاج ، ليلقى أسد الدين ، فأدرك أسد الدين أن أمرا ذا بال قد جاء به فى مثل هذه الساعة ، فقاده الى خبائه ليجتمع به على انفراد ، ولكن صلاح الدين أطل برأسه من سجف الخباء ، فحيا شاور ثم قال لعمه : « هل تريد منى شيئا ؟ » .

ـ ان شئت يا أبا شجاع حضر يوسف هنا معنا .

وكان شاور لا يرتاح كثيرا لصلاح الدين ، كأنما يحس أن صلاح الدين لا يحبه ولا يرتاح اليه ، ولكنه لم يجد بدا من تلبية رغبة عمه أسد الدين .

ـ ليفعل ، لا مانع عندى .. لعلنا نحتاج الى رأيه .

فلما استقر بهم المجلس قال شاور : « قد جئتك اليوم بما يستوجب خلع العاضد عن العرش ، فقد اتصل بالفرنج وكاتبهم » .

قال أسد الدين وقد بدا الاهتمام فى وجهه : « وكيف علمت ذلك يا شاور ؟ »

فأخذ شاور يقص عليهما حديث ابن الخياط معه وما جرى بينهما من أوله الى آخره ، والاثنان يصغيان متعجبين فلما انتهى من حديثه قال له أسد الدين : « اننا لانستطيع أن ندين العاضد ، مالم نطلع على تلك الوثيقة ، فهل تستطيع أن تحصل عليها ؟ »

ــ ما أخال ذلك فى الامكان .. فالرجل لا ريب حريص على اخفائها .. وعنده دور كثيرة ..

ــ اذن فلا سبيل الى ادانة العاضد ...

ــ يكفى أنه بعث هذا الرجل ليستدرجنى .

ــ صدقت .. ولكن هذا شىء آخر .

وهنا اعترض صلاح الدين قائلا : « ولكن ما يدريك يا أبا شجاع أن العاضد هو الذى بعثه ؟ لم لا يكون هذا الرجل جاسوسا من جواسيس الفرنج ؟ »

فأجفل شاور قليلا اذ أدرك الآن قوة هذا الاحتمال ، وعجب فى نفسه كيف استبعده هو من قبل ، ولم يعطه ما يستحق من الاعتبار ، ولكنه قرر أن يمضى فى الدفاع عن رأيه .

ــ كلا يا صلاح الدين . ما كان الفرنج ليرسلوه الى رجل مثلى يعلمون عداوته لهم وصداقته لنور الدين .

ــ انها محاولة ..

قال شاور وقد لاح الضيق فى وجهه : « ان فعلوا ذلك فهم أغبياء » .

ورأى أسد الدين أن ينقذ الموقف فقال : « أيا ما تكن الحال فقد أحسنت عقابه يا شاور اذ وكلت الى عبدك ضربه بالنعل .. فان كان الفرنج هم الذين أرسلوه فسيبلغهم فيكبت صدورهم.. وان كان العاضد ، فسيبلغه فيكتئب » .

قال شاور وقد سره ما سمع : « والله يا أسد الدين ما كنت لأحكى لك هذا الذى حدث لولا حرصى على ألا ندع أحدا يفسد ما بينى وبينك سواء كان العاضد أم غيره » .

وأحس صلاح الدين أن شاور قد عناه فى كلمته هذه .. ولكنه تجاهل ذلك ولزم الصمت .

فأجاب أسد الدين قائلا : « هذا محال يا أبا شجاع .. نحن زميلان فى السلاح ، عيب علينا أن ندع أحدا يفسد ما بيننا » .

ونهض شاور لينصرف ، فقال له أسد الدين : « لم لا تبقى قليلا تتحدث ؟ » .

فأخبره شاور بأنه على موعد مع أهله فى الفسطاط ليسعوا فى تزويج ابنه شجاع .

فصاح أسد الدين مبتهجا : « مرحى يا شاور مرحى ! أجل أرونا يا أهل مصر كيف يكون العرس عندكم .. لكن اياك أن تنسانا فى الوليمة » .

— أنساكم ؟ كيف . وما قررنا التعجيل بالزواج الا لتشهدوه؟ خذ الدعوة من الآن .. للمعسكر كله .

— بوركت يا أبا شجاع .. سيجد عسكرنا ما يسليهم ..

ولمـا انصرف شاور أقبل أسد الدين على ابن أخيه يقول له : « هيه .. ماذا ترى الآن يا يوسف ؟ »

ـ فى أى شىء يا عمى ؟

ـ فى شاور ، هل بقى فى نفسك شىء منه بعد الذى سمعت ؟

ـ نعم !

ـ لا ، لا .. انك عنيد لا تطاق ..

ـ هذا رأيى ومانبغى أن تغضب منه .

ـ أنت حر ..

ثم دنا منه صلاح الدين قائلا : « ثم كيف يا عمى تترك هذا الأمر الخطير يمر هكذا دون أن تصنع شيئا ؟ »

ـ ماذا تريد أن نصنع ؟

ـ نجمع الثلاثة فى مكان واحد ليواجه بعضهم بعضا ، ونسمع أقوالهم ..

ـ من هم ؟

ـ ابن الخياط هذا .. والعاضد وشاور ..

ـ ويلك ! ماذا تقول ؟ أتريدنا أن نثير فتنة فى البلد ولما يمض على قدومنا غير أيام ؟

ـ بل سنكشف بذلك الحقيقة .. فنتقى الفتنة الكبرى ..

وأراد أسـد الدين أن ينهى النقاش ، فأخذ بيد ابن أخيه ليخرجه من الخباء ، وهو يقول : « اسمع يا ابن أخى .. أنت شاب بعد .. وأنا شيخ . فلا تجعلن اندفاع الشباب يغلب حكمة الشيوخ » .

٢٤

أما شاور فقد رجع الى الديوان ليطلع على المهم من الشئون ويصرف المستعجل منها ، فلما قضى من ذلك ما أراد ركب الى الفسطاط ، وقصد بيت أبى الفضل ، حيث وجد شجاعا ووالدته قد سبقاه من أول الصباح ، ووجد أبا الفضل فى انتظاره ، لم يذهب الى دكانه ذلك اليوم ، فرحب به ترحيبا بالغا ، وأقبلت سمية ووالدتها ــ وكانتا منهمكتين فى اعداد الغداء ــ فرحبتا به .

قال لهم شاور : « اننا دعونا أنفسنا عندكم اليوم اذ هزنا الشوق اليكم فلم ننتظر حتى تدعونا » ونظر عند ذلك الى سمية فتورد خداها حياء .

فأجابه أبو الفضل ضاحكا : « وما يدريك يا أبا شجاع ألا يكون شوقنا اليكم هو الذى جذبكم الينا » ونظر عند ذلك الى شجاع فابتسم .

قالت أم الفضل : البيت بيتكم على كل حال .. أنتم فى بيتكم ..

ــ اليوم فقط يا أم الفضل ؟

ــ بل اليوم وغير اليوم يا أبا شجاع .

ــ كلا يا أم الفضل لا ينبغى لنا أن نقيم فى بيتكم . عليكم أنتم أن تقيموا فى بيتنا ..

فلم تدرك أم الفضل قصده الا حين رأتهم يضحكون ورأت ابنتها سمية تنسل خارجة فى لطف وحياء . ثم قاموا الى المائدة فجلسوا حولها جميعا ، وأخذوا يأكلون ويتحدثون فى صفاء وأنس .

وكان أبو الفضل وأهله قد عجبوا فى الصباح لما أقبلت عليهم أم شجاع ، وقد خلعت عنها السواد وارتدت ثياب الزينة ثم عجبوا لما فاتحتهم فى التعجيل بزواج شجاع من سمية ، وذكرت أن ذلك قرار زوجها الذى صمم عليه . وكان مثار عجبهم أن ذلك لم يكن منتظرا من قبل ، وأن شاور لم يفاتح أبا الفضل فيه أو يشر اليه ، فأخبرتهم زبيدة أن زوجها لم يفاتحها هى ولا ابنها فى ذلك الا الليلة البارحة فازدادوا عجبا .

ولكن زبيدة لم تضمن عليهم بما عندها فى تعليل ذلك ، فقالت لهم : « لعل أبا شجاع عز عليه أن يرانى متسلبة فى السواد ، أجتر حزنى على ولدى ، فأراد أن يخرجنى سريعا من المأتم الى العرس » ثم ترجت أبا الفضل أن يجيب شاور الى طلبه لأنها تعلم من خلقه أنه سيستاء كثيرا اذا لم يجب ، فقال لها أبو الفضل : اطمئنى يا أم شجاع فان رضا زوجك عندى غال عزيز .

وهكذا لم يحضر شاور الى بيتهم حتى تمهد كل شىء ، فلم يجد أى عسر فى اقناع أبى الفضل بما طلب ، ثم لم ينصرف من عندهم عقب صلاة العصر الا بعد ما اتفقوا على تعيين موعد الزفاف فى أقرب وقت مستطاع ..

أما شجاع وسمية فلا تسل عن ابتهاجهما بهذه المفاجأة السارة التى هبطت عليهما من السماء ، من حيث لم تخطر لهما على بال ، فاختصرت أمد انتظارهما الطويل الى نصف شهر فحسب ، وما نصف شهر ببعيد ، بلى ان نصف شهر فى حساب العاشقين لجد بعيد .

وانهمك البيتان السعيدان فى اعـداد ما يلزم لذلك اليوم القريب البعيد وكان شاور نفسه أشدهم اهتماما ، وأكثرهم نشاطا على كثرة ما يضطلع به من مهام الحكم ، وما يشغل فكره من ناحية مصيره المضطرب • ولم يعلم أحد سواه أن اهتمامه بتأمين ذلك المصـير ، هو السبب الأكبر لاهتمامه باقامة هذا العرس الكبير •

وأقبل اليوم الموعود ، فشهد أهل القاهرة ، ومن قدموا اليها من مختلف الأقاليم عرسا لم يشهدوا مثله فخامة وبذخا منذ زفت ابنة الوزير طلائع الى الخليفة العاضد ، بل ان عرس اليوم يفوق عرس الأمس فى كثرة من دعوا الى وليمته من كبير وصغير ، وقريب وبعيد ، ومقيم ونازح ، ثم فى الموائد العامة التى نصبها شاور فى كل حى من أحياء القاهرة ، وملأها بأفخر الطعام وأشهى الحلوى وأجود الفاكهة بغير حساب ، فطفق العامة يأكلون منها ما يأكلون ، ويحملون الى بيوتهم ما يحملون •

وزفت سمية الى شجاع فى موكب من شعاع •• وتجاوبت الأنغام ، وتراقصت الأحلام ، ونعم الحب بطيب القرب ، وطاب الوصل ، واجتمع الشمل ، ونادى المحب ولبى الحبيب !

السفر الثانى

١

مر شهران على يوم العرس الميمون قضاهما الزوجان السعيدان فى نشوة لم تنقطع ، فكأنهما يومان أو ليلتان .

وما زال الناس يتحدثون عن ذلك اليوم المشهود ، وما رأوا من كرم شاور وأبهته فيقول بعضهم لبعض ، أبشروا فقد عاد حكم شاور ، وعاد معه اليسر والرخاء .

وسما شاور وتلألأ نجمه فى السماء ، فبدا كأنما طمس اسم العاضد طمسا ، وأوشك أن يطوى اسم أسد الدين أيضا بين أشعته التى تبهر الأبصار .

سيذهب أسد الدين ويعود الى بلاده عما قليل ، ولن يبقى الا شاور .

وأما العاضد فان لم يخلع اليوم فسيخلع غدا ، ولن يعود الى طغيانه على أى حال .

هذا ما كان يجول فى أذهان عامة الناس اذ ذاك ، وما تتحرك به ألسنتهم فيما بينهم ، وهم لا يعلمون ما يدور فى الخفاء ، بين هؤلاء الأبطال الثلاثة ، ولا ما يحاك أو يدبر حولهم من الدسائس والخطط فيما وراء حدود البلاد .

هذا العاضد قد اتصل بأسد الدين سرا عقب العرس بأيام ، فشكا اليه من تبذير شاور فيما أنفق على عرس ابنه من أموال

البلاد ، وجعل يشككه فى قدرته بعد ذلك على دفع ما التزم به من المال لنور الدين .

وهذا أسد الدين قد رأى حقا عليه بمقتضى الاتفاق الودى بينه وبين شاور ، فكاشفه بما قال العاضد فى حقه ، فأكد له شاور أنه سيحبط دسيسة العاضد ويكذب بفعله ما زعم ، وأن الخير كثير ، والمال المطلوب منه على طرف الثمام خالما يريد ، ثم مضى فأحضر اليه ثانى يوم ثلاثين ألف دينار نفقة الحملة ، حسبما تعهد به لنور الدين ، أما ثلث الخراج يستأنيه ريثما يتم جمع الحصاد وضبطه ، الا اذا تفضل نور الدين فنزل عنه لأهل مصر ، فعهده بنور الدين سخى النفس ، طليق اليدين .

قال له أسد الدين : « أما هذا يا أبا شجاع فلا . لن يرضى نور الدين أن ينزل عما اشترط عليك » .

ــ لو استغنى عن أخذ ذلك لكان أفضل له وأكرم حتى لا يقال انه انما أنجد مصر حبا فى المال ، ونحن نعلم خلاف ذلك .

ــ انك تعلم يا شاور أن نور الدين لا يعنيه المال فى شىء الا من حيث يستعين به على الجهاد فى سبيل الله ، وبلدكم أغنى من بلده وهو أحوج الى المال منكم ، وأنتم ترونه واقفا فى وجه العدو يجالدهم وحده عن دياركم وسائر ديار العرب والمسلمين ، فما أحراكم أن تعينوه على ذلك ولو لم ينجدكم بهذه الحملة ، فما بالك وقد اتفقت أنت معه على ذلك .

ــ انى لعلى عهدى له يا أسد الدين وانما أريد أن أستوهبه ذلك ...

— اذن تستوهبه مالا يملك .. هذا ليس حقه بل حق الجهاد .

— انى والله لأضن على نور الدين بشيء ، فلو كان يأخذ ثلث الخراج هذه السنة فحسب لكان هينا ، أما أن يبقى ضريبة كل عام ، فانى أخشى ألا أستطيع أن أقنع الناس هنا بقبوله ، وأنتم تعرفون حال العاضد معى وتحفزه على ..

فأطرق أسد الدين قليلا ثم قال : « انى أعرف نية نور الدين ، فليس المال عنده الا قوة للحرب ، ونحن نرجو أن تشتركوا أنتم منذ اليوم فى جهاد الفرنج من ناحيتكم ، وبذلك تقومون بما عليكم ، فلا يجد نور الدين بأسا اذا منعتم المال الذى اشترطه ، بل لعله يتقدم من تلقاء نفسه فليحلكم منه » .

وهذا العاضد قد اتصل بعد ذلك بشاور أيضا فى السر فقال له : « قد بلغنى ما دار بينك وبين أسد الدين فأرضانى ذلك منك لحرصك على أموال البلاد ، واذا كان نور الدين يطمع فى مالنا ، فأى فرق بينه وبين أعدائنا الفرنج ؟.. ثم قال له فى نهاية الحديث : على كل حال يمكنك التحلل من ذلك الشرط ، لأنك أمضيته عن نفسك وأنت خارج الحكم » .

وانصرف شاور دون أن يبدى للعاضد أية موافقة أو اعتراض ، ولكنه أطال التفكير فيما سمع منه ، ثم لم يشأ أن يفضى به الى أسد الدين فكتمه عنه فكان ذلك أول الوهن .

ولم تمض على ذلك غير أيام معدودة حتى اتصل بشاور رجل اختلى به فاذا معه كتاب خاص من « مرى » ملك الفرنج ، هذا نصه بعد الديباجة :

« اننا قادمون الى بلدكم لمحاربة جيش نور الدين المقيم عندكم ، ولا غرض لنا فى محاربتكم أنتم ولا فى احتلال بلدكم ، فان خليتم بيننا وبينهم ، ولزمتم الحياد حمدنا لكم ذلك وانسحبنا من أرض مصر بعد أداء مهمتنا ، والا اعتبرناكم أعداء ، وقاتلناكم معهم وملكنا بلادكم بحد السيف ، ونحن واثقون بالنصر ، فقد أعددنا جيشا عظيما لذلك ، وانضم الينا خلائق كثيرة ، قدموا الينا من مختلف بلاد أوربا وسواحل البحر المتوسط ليحاربوا نور الدين فسنشغله بهؤلاء عن انجاد جيشه الصغير الموجود عندكم ، فاختر لنفســك يا شاور ما يحلو لك .. اما الحياد وصداقتنا واما القتال وعداوتنا ، ولا نشك أنك ستختار ما فيه المصلحة لك ولوطنك . وقد بعثنا مع رسول آخر نسخة من هذا الكتاب خاصة بالخليفة العاضد سيسلمها اليه حين يكون جوابك الرفض لعرضنا هذا . أما اذا قبلت ، فلن تسلم اليه ، وقد بدأنا بك لمزيد ثقتنا فيك وفى حكمتك وقوتك .

حاشية :

اذا لم يعد رسولنا هذا الينا حملناك تبعة اغتياله ، فسنطلبك حينئذ ولن تنجو منا مهما اعتصمت ، وأينما هربت ، ولو الى أقصى الدنيا ، وحاشاك أن تفعل ذلك ، ولكن قد أعذر من أنذر .

حاشية أخرى :

فى حالة القبول لا حاجة بك الى كتابة الرد ، ويكفى أن تشافه الرسول » .

وبعد أن فرغ شاور من قراءته ، أطرق قليلا ، ثم طوى الكتاب ،

وقال للرسول : « اذهب الى من أرسلك فقل له سأنظر فيما فيه مصلحة بلدى » . واكتفى الرسول بذلك وانصرف .

واضطرب فكر شاور بعد انصراف الرسول ، وهم أن يبعث خلفه من يلحقه ليعيده اليه ، ولكنه وقف مترددا ، فلم يفعل شيئا ثم تمتم لنفسه : قد فات الأوان !

ثم جلس يراجع نفسه فيما فعل ، فأحس بشىء من الندم ، وهم بأن ينطلق من ساعته ، فيطلع أسد الدين على الكتاب لينذره به ، غير أنه لم يلبث أن استسخف هذا الرأى ، لما قد يثيره على نفسه من الريبة عند أسد الدين . وأخرج الكتاب فاستعاد قراءته ، ووقف مليا عند الحاشية الاخيرة فسكن جأشه ، وقال لنفسه : انى ما خسرت شيئا ، فما زال زمام الأمر فى يدى ، وأنا بالخيار غدا ان أقبلوا ، فاما أقاتلهم مع أسد الدين واما ..

وهنا اعترته رجفة ، فلم يكمل جملته .

وتشجع ثانى يوم ، فلقى أسد الدين ليرى ان كان قد رابه شىء من أمره ، فلم ير من أسد الدين غير ما يعهد فيه من البشر والايناس ، ولم يسمع منه غير الشكوى التى يرددها من تأخر جواب نور الدين اليه وملله من طول الانتظار ، فاطمأن شاور وتبسط معه فى الحديث :

ـ يا أسد الدين ألا تكف عن تذمرك وشكواك . فيم تتعجل العودة الى الشام ؟

هل رأيت منا تقصيرا فى حقك وحق رجالك ؟

ـ كلا يا أبا شجاع .. لقد قمتم بالواجب وزيادة .. ولكن

وجالى ملوا الاقامة فى الخيام . واشتاقوا الى لقاء أهليهم . وأنا أريد أن أعرف ماذا يأمر نو رالدين لأتصرف فى شأنى وشأنهم بمقتضاه ...

ـ لا تقلق كثيرا فسيأتيك جواب نور الدين وشيكا ، وآمل ألا يستعجل عودتكم لنستمتع بوجودكم بيننا مدة أطول .

فقال له أسد الدين فى دعابة لطيفة محببة : « آه منك يا شاور ومن مكرك ! انما تريد ذلك لتؤجل دفع ما عليك من ثلث الخراج » .

فتضاحك شاور قائلا : « انك يا أسد الدين لا يفوتك شىء أبدا .. أجل انى أريد الحسنيين معا طول صحبتك وتأجيل الدفع »

وقهقه أسد الدين ضاحكا ، ثم قال له وهو يلتفت حوله : « اسمع يا شاور نكتة تضحكك .. الحمد لله .. ليس هو الساعة بيننا .. »

ـ من هو ؟

ـ يوسف ابن أخى .. أتدرى ماذا يقول عنى ؟ يزعم بسلامته أنى طيب القلب سهل الانخداع ..

وانفجر الاثنان يضحكان .

ثم قال شاور : « لابن أخيك عذره يا أسد الدين ، فان مظهرك يخدع عن مخبرك » .

ـ لكنى أحبه كثيرا يا أبا شجاع .. انه بطل وسيكون له شأن !.

٢

وذات صباح ورد جواب نور الدين بعد طول انتظار ، فتلقاه أسد الدين فرحا يفضه بيد مرتعشة من شدة التوق الى الاطلاع على ما فيه ، ولكنه لم يكد يتصفحه حتى غاض الفرح من وجهه وحل محله الاهتمام الشديد ، فقد ورد فى الكتاب أن الفرنج يجمعون جموعهم ويعدون العدة لدخول مصر ، فعلى أسد الدين أن يقاتلهم دونها كما يقاتلهم فى الشام وأشد ، وانه ما أرسل الحملة لخلع وزير واعادة وزير ، بل الغرض الأول تأمين مصر وحمايتها من يد العدو ، ثم أنذره فى آخر الجواب بأنه يرتاب فى وجود صديق للفرنج بمصر ، فعلى أسد الدين أن يأخذ حذره

واستدعى شاور ، فأطلعه على الجواب ، وكان صلاح الدين يرقب شاور من بعد ليرى أثر الكتاب فيه ، فاذا شاور يستبعد أن يكون للفرنج صديق فى مصر ، فلما راجعه أسد الدن فى ذلك استدرك ، فقال : « ان جاز أن يكون لهم صديق هنا ، فهو العاضد » .

ولما انصرف شاور أخذ صلاح الدين يشكك عمه من ناحية شاور قائلا : انه لمح أثر الريبة فى وجهه فى أثناء قراءته الكتاب ، ثم فهم ذلك من كلامه أيضا ، فحار أسد الدين وداخله الارتياب .

ورأى أن يستشير صديقه أبا الفضل الحريرى فأرسل يستدعيه سرا اليه ، فلما سمع أبو الفضل ذلك قال : « كلا يا أسد الدين ،

محال أن يفعل ذلك شاور . انه قد يماطل فى المال لأنه يحبه حبا جما ، ويطمع أن يسقطه نور الدين عنه ، أما الخيانة مع الفرنج فمعاذ الله أن يقع فيها شاور . التمسوا ذلك ان شئتم عند هذا الصنم الذى لم تشاءوا حتى اليوم أن تخلعوه على شدة الحاحنا عليكم بذلك » .

فقال له أسد الدين : « ويحك يا أبا الفضل ! ما عندنا أمر من نور الدين بخلعه ، ولكن اذا ثبت أنه كاتب الفرنج خلعناه فى الحال » .

واتصل أسد الدين بشاور ليستطلع رأيه فى الخطة المثلى لمواجهة الفرنج .

اذا أقبلوا ، وكان شاور قد فكر فى ذلك واستعد بالجواب ، فقال لأسد الدين : « ان الفرنج قادمون لقتالكم أنتم وسيطلبونكم حيث كنتم ، فعليكم أن تنتظروا فى مكانكم حتى يقتربوا ، وحينئذ تتحرك بجيشك الى حيث تضع العدو بين جيشك وجيشى فنحدق به من كل جانب وننقض عليه » .

— أليس خيرا من ذلك أن نسير اليهم فنلقاهم بعيدا عن العاصمة حتى اذا كسرونا فى معركة وجدنا خلفنا ظهرا نحتمى به فنعاود الكرّة عليهم ؟

— ربما يكون هذا أفضل لو استطعنا أن نطمئن الى الظهر الذى نتركه هنا فى القاهرة .

— تعنى العاضد ؟

— نعم ..

ثم عقد أسد الدين اجتماعا من كبار رجاله ، فبسط لهم خطته ، ثم عرض عليهم خطة شاور ليقرروا أى الخطتين أمثل ، فاختلفوا بين مؤيد لهذه ومؤيد لتلك ، وكان صلاح الدن أجهرهم صوتا فى معارضة الخطة التى اقترحها شاور ، قائلا : انه ما اقترحها الا لأمر .

قالوا له : ما دليلك على هذا ؟

ـ عندى الدليل الذى تطلبونه ، ولكن شاور يزعم أنه متخوف من خيانة العاضد فقد ثبت أن فى العاصمة صديقا للعدو ، قد يكون العاضد ، وقد يكون شاور نفسه ، فان يكن شاور ، فلا ريب أنه أراد أن يكيدنا بخطته ، وان يكن العاضد فلن يعجزه أن يحدث حدثا حين يرى أصدقاءه قد صاروا على أبواب القاهرة ، اذ لن يعدم من الجيش من ينشق بهم على شاور .

قال الحارمى مؤيدا كلام صلاح الدين : « قد فاتك يا يوسف احتمال ثالث لهذين الاحتمالين ، فلم تذكره »

ـ كلا ما فاتنى يا خالى ، ولكنى اكتفيت بهما عنه .

قال أسد الدين ماذا تعنيان ؟

فأراد صلاح الدين أن يترك الجواب لخاله الحارمى ، ولكن الحارمى أومأ اليه أن يجيب هو فقال : « انها ثالثة الأثافى ياعمى : أن يكون صديقهم العاضد وشاور معا مجتمعين ! »

وعندئذ صاح أسد الدين معجبا : « لله درك يا ابن أخى ! »

فنظر اليه الحارمى كأنما يقول له : « ليس هذا من جهة أبيه بل من جهة أمه ! »

وأدرك أسد الدين ذلك فطامن من زهوه ، والتفت الحلومى الى صلاح الدين يقول : « انك اذن تؤيد الخطة التى اقترحها عمك ... »

ـ نعم فهى الخطة المثلى ... »

ـ ما غزى قوم فى عقر دارهم الا ذلوا !

ـ أجل ، ولأننا نستطيع بها أن نكتشف نية شاور قبل أن يقع المحذور ، ثم لأننا سنكون أقرب الى حدود الشام وأيسر على نور الدين أن ينجدنا عند اللزوم .

وما أتم صلاح الدين كلامه حتى اقتنعوا جميعا ، فأجمعوا على الأخذ بهذه الخطة ، فشرعوا يتأهبون للمسير .

وعلم شاور ، فأقبل يناقشهم فى الأمر مدافعا عن خطته محاولا اقناعهم بها ، ولكن أسد الدين أفهمه أنهم أجمعوا على هذا القرار ، فلا سبيل الى العدول عنه . فالتمس من أسد الدين أن يكلمه على انفراد ، فلما اختليا ، قال له :

ـ اذن فدعنا نتخلص من العاضد اليوم أو نعتقله .

ـ اليوم ، والعدو على الأبواب ؟ كلا يا شاور لا أوافق على هذا أبدا . لتكونن فتنة فى البلد ..

فأطرق شاور قليلا ثم قال : « اذن فسأرى ماذا نستطيع أن نصنع لكم ، أما أنا فليس فى وسعى أن أبرح العاصمة لأدع العاضد يكيد لى ولكم » .

قال له أسد الدين ، وقد عاد اليه بعض ثقته بشاور لما سمعه

يقترح التخلص من العاضد : ابق انت فى العاصمة ، وأمددنا بالرجال والمؤن وسنكفيك العدو ان شاء الله » .

فلاح الرضا فى وجه شاور ، وقال : « الآن وجدنا ما نريد ، نهزم العدو ونأمن جانب العاضد » .

٣

وسار أسد الدين بعسكره ميمما شطر بلبيس ، فلما أشرف عليها بلغه أن الفرنج قد بلغوا فاقوس فى جمع أكبر كثيرا مما قدر من قبل ، فرأى أن يتوقف عند بلبيس ، فعسكر خارجها فى انتظار المدد من شاور وأبرق يستعجله .

وقد فزع أهل بلبيس مما سمعوا من قدوم الفرنج ، فخرج وفد منهم يعرضون على أسد الدين العون والمؤن ، فشكرهم وأخبرهم بأن المدد سيأتيهم من القاهرة فلا خوف عليهم .

ومضى يوم ثم يوم ، ولما يأت خبر من شاور ، فلم يجد أسد الدين بدا من أن يتحصن داخل المدينة ليرتفق بما فيها من المؤن ، ولأنه خشى أن يسبقه الفرنج الى احتلالها ، وقد وجد من أهلها ترحيبا ، فلم يتردد . وتطوع أهلها من كبار وصغار ورجال ونساء ، فأخذوا يعملون مع رجاله ليلا ونهارا فى تحصين أسوار المدينة ونصب المجانيق عليها وحفر الخنادق حولها . وقد أدركوا أن هذا الجيش الصغير لن يقوم لجموع الفرنج ، فلم يفت ذلك فى عضدهم ، اذ رأوا من شجاعة أسد الدين ورجاله واستقامتهم واندماجهم مع الصغير والكبير ، ما ألهب حماستهم للذود عن



وسار أسد الدين بعسكره ميمماً شطر بلبيس ، فلما أشرف عليها بلغه أن الفرنج قد بلغوا فاقوس في جمع أكبر كثيراً مما قدر من قبل ، فرأى أن يتوقف عند بلبيس ، فعسكر خارجها في انتظار المدد من شاور وأبرق اليه يستعجله .

الدين والوطن ، وهم يأملون بعد فى وصول الأمداد من القاهرة .

وأقبل الفرنج فأحدقوا بالمدينة وحاولوا اقتحام أسوارها ، فجعلت السهام تنطلق الى أفرادهم فتغوص فى أكبادهم ، والمجانيق تقذف صخورها على جماعاتهم فتهشمها تهشيما ، والحفر المستورة فى كل مكان تتربص للمتهورين منهم ، حتى اذا أحست مس أقدامهم ، فغرت أفواهها فاذا هم فى أحشائها لحم أحمر شهى !

ولما أخفقت محاولاتهم لاقتحام المدينة وكثر منهم القتلى ، قرروا أن يحاصروها ليضطروا أسد الدين الى التسليم حين ينفد القوت منها ، فيضيق أهلها ذرعا به وبرجاله ، فضربوا خيامهم صفوفا صفوفا حول المدينة ، فكأنما قامت مدينة جديدة من الخيام ، تتوسطها خيمة حمراء نزل فيها قائدهم مرى ملك بيت المقدس ، وقد وطن نفسه على المقام لحصار طويل .

وكانت المناوشات تجرى بين الفريقين متفرقة هنا وهناك ، عند أبواب المدينة أو حول أسوارها ليحول الفرنج دون وصول المدد الى أهلها ، أو ليحول أهلها دون دخول الفرنج اليهم . فاذا كان الليل تهادن الفريقان ، فلزم الفرنج خيامهم وسكنت المدينة الا ما يكون من حراسها المرابطين على الأسوار .

وكان أسد الدين قد أيس من نجدة شاور وتحقق أنه قد خان ، فوطن نفسه على الصبر لحصار طويل . ولذلك اهتم بضبط الأقوات والمؤن فى المدينة لسد حاجات أهلها أطول مدة ممكنة وأوصى جيشه ، فتقشفوا وتبلغوا بالقليل ، وكان هو فى ذلك قدوة للجميع .

وكان ينام قليــلا بالنهار ويبيت طول الليل ساهرا ، يتنقل فى الأسوار يتفقد الحراس ، ويرقب خيام العدو من بعيد .

وسمع ذات يوم جلبة عظيمة من ناحية العدو تردد صداها فى سكون الليل وظلامه ، ونظر فرأى المشاعل تضطرب بين خيامهم وسمع تصهال خيولهم ، فينبه رجاله فاستعدوا لمواجهة ما يطرأ ، وقد ظنوا أن الفرنج سيهاجمونهم بالليل ، ولــكنهم ما لبثوا أن سمعوا حركة الخيول تبتعد كأنها انطلقت لتطارد قوما أغاروا عليهم ، ثم فروا ، فسكن جأشهم واطمأنوا ، ولكن زاد تشوقهم لمعرفة ما حدث .

وتطوع نفر من أهل المدينة فتسللوا من الأسوار وانطلقوا الى بعض القرى المجاورة ليستطلعوا الأخبار ، ثم رجعوا فى الليلة القابلة يروون نبأ عجبا : ان جماعة من الفتيان المصريين قد انقضوا على بعض جنود الفرنج وهم نيام فذبحوهم ثم ولوا فرارا تحت ستار الليل .

وتكرر هذا الفعل ليلة بعد ليلة ، ورجال أسد الدين يرقبون ذلك من الأسوار وهم جذلون مستبشرون ، الى أن انقطع ذات ليلة ، فلم يعد بعد ما استمر خلال نصف شهر أو أكثر ، فأسفوا واكتأبوا ، ثم علموا بعد ذلك أن الفرنج قد ظفروا بالجماعة واحدا بعد واحد فقتلوهم الا قائدهم ، فقد استبقوه أسيرا بينهم .

٤

ولم يكن ما بلغ أسد الدين من نبأ جماعة الفتيان المغاوير

تضحيتها كله ، وانما استشهد بعضهم وتفرق الباقون بعد وقوع قائدهم فى أسر العدو .

أما ذلك القائد الاسير فقد سيق فى الصباح الى خيمة « مرى » ملك الفرنج ، فلما مثـل أمامه ، وقف منتصب القـامة مرفوع الهامة ، يبدى تجلدا غير أن وجهه الشاحب ينبىء عما يطوى بين جوانحه من أسى دفين .

قال له مرى وهو يقلب رسائل بين يديه : « أيها الشاب .. ما حملك على ما فعلت وأنت ابن صديقنا شاور ؟ »

فأجابه شجاع بصوت أعلى مما يلزم لاسماع مخاطبه : « كلا .. لم يكن شاور صديقا لكم ولن يكون » !

ـ ويلك ! أحقا تجهل ذلك ؟

ـ بل أعلم علم اليقين أنه ليس كما تظن .. أنتم عدو المصريين جميعا من أصغر صغير فيهم الى أكبر كبير ، فما بالكم بوزيرهم ؟

فنظر اليه « مرى » متعجبا ثم قال : « هل تعرف خط أبيك وتوقيعه ؟ »

فاضطرب شجاع قليلا وارتعش صوته وهو يقول : « نعم » .

ـ خذ هذه الرسالة اذن وانظر اليها .

ونشرت الرسالة أمام شجاع ، فاضطربت عيناه بين سطورها ، ولاح فيهما الذبول والانكسار ، ثم لمعتا لمعانا عجيبا كأنهما جمرتان متقدتان ، فحملق بهما الى وجـه الملك ، وقال : « أيها الملك ان الحرب خدعة ، وقد خدعك شاور بما كتب اليك ليشغلك هنا بحصار هذه المدينة المنيعة حتى يستعد لكم فيطويكم طيا » .

فأطرق الملك لحظة ثم قال له : « علام اذن جئت أنت وجماعتك لقتالنا قبل أبيك ؟ » .

ـ غلبنا الشوق الى قتالكم .. فلم نستطع أن ننتظر ..

ـ ان كنت صادقا فيما تزعم .. فلم كشفت لنا خطة أبيك ؟ أأردت أن تحبطها ؟

ـ نعم .. لأنى على يقين أننا منتصرون ، فان كنت شجاعا فتقدم بجيشك صوب العاصمة ..

ـ لو أردت لفعلت ، ولملكت القاهرة عنوة ..

ـ هيهات ..!!!

وضاق « مرى » بحواره ، فأمر بحبسه حيث كان ، وكتب الى شاور يعلمه بما حدث من ابنه ، ويستوضحه حقيقة نيته ، فرجع الرسول بجواب شاور يستنكر ما وقع من ابنه ويؤكد بقاءه على العهد ، ويتوسل اليه أن يبعث بابنه اليه ليعاقبه على فعله ويرجعه عن غيه . وهم « مرى » أن يجيبه الى طلبه ، لو لم يشر عليه رجاله بأن يبقيه رهينة عنده ، ليضمن وفاء شاور بعهده ، فاستصوب رأيهم .

واستمر الحصار شهرا بعد ذلك ، فكمل ثلاثة أشهر ، وقد اشتد الضيق على أهل بلبيس ، وكاد ينفد صبرهم من قلة القوت ، وشدة الجهد ، وحار أسد الدين فيما يفعل حتى هم أن يخرج الى العدو فينازل جموعهم بجيشه الصغير ، وليقض الله ما يشاء ، فلأن يموتوا جميعا كراما شهداء خير من ذل التسليم للعدو .

وانه ليكفك اذ جاء الفرج من حيث لا يحتسب . هذا رسول أقبل من عند الفرنج يحمل علما أبيض .

ـ ترى ماذا يبغون ؟ افتحوا له الباب وائتونى به مكرما .

وقد اختار أسد الدين أن يستقبل الرسول فى خيمة نصبت له بقرب باب المدينة لئلا يشهد رسول العدو مابها من الشدة والجهد

رفع الرسول خوذته وانحنى محييا لما دخل ، ثم سلمه رسالة ملك الفرنج ، فلما قرأها أسد الدين عجب وسر فى الباطن ، غير أنه اجتهد أن يخفي سروره فتصنع قلة الاكتراث ، وناول الرسالة لأصحابه ، ثم قال : « قد توقعت أن تطلبوا الصلح آخر الأمر ، ولكنى كنت أظنكم تصبرون مدة أطول من ثلاثة أشهر ، فانى رتبت أمورى لمواجهة حصار عام كامل » .

ـ سيدى القائد .. ان مولاى لا يستجدى الصلح منكم ، بل يعرضه عليكم ، وليس الصلح الذى يريده صلح ضعف وعجز .

ـ أى صلح يريد ؟ انه لم يبين ذلك .

ـ انه فوضنى أن أشرحه لك اذا قبلت

ـ هات ما عندك ..

ـ سأحدثك عن الباعث أولا لتعرف منه أساس هذا الصلح : اننا ما جئنا لقتال المصريين بل لقتالك أنت وجماعتك ، ولكنا وجدناك اعتصمت بهذه المدينة فحاصرناها لتبرز الينا ، فلم تفعل ، وآثرت أن تجهد أهلها المساكين ، معكم حتى يموتوا من الجوع دونكم . وقد رثى ملكنا وقائدنا لهؤلاء الذين لا ذنب لهم فرأى

أن ينزل من أجلهم عن نصر محتوم محقق فى المستقبل القريب أو البعيد ...

فتنحنح أسد الدين وقال : « نحن والمصريون شيء واحد ، يجمعنا الجنس واللسان والوطن والدين ، ثم يجمعنا العدو الدخيل الذى هو أنتم . وأنا وجماعتى ما جئنا كذلك الا لقتالكم وتحصين هذا الوطن العربى منكم . أما بلبيس فما دخلناها الا برضا أهلها ، وطلبهم ، وقد أعانونا بكل ما يقدرون فى سبيل الله لافى سبيلنا ، فليحتفظ ملككم (مرى) برثائه وبكائه لأولئك الذين لقوا مصارعهم منكم والذين تنتظرهم مصارعهم بعد فى الرمال . فالنصر محقق لنا لا لكم ، وكأنى بالمدد من نور الدين قد جاء اليوم أو غدا ، واذن فلن ينجو منكم رجل واحد ليروى الكارثة لأصحابه » .

قال الرسول : « رويدك يا سيدى القائد انى رسول صلح لا رسول خصام وانما ذكرت الباعث لأخلص منه الى أساس الصلح ، وهو أن نجلو وأنتم عن البلاد ونتركها لأهلها .

— هذا يحتاج الى موافقة أهل مصر ..

— قد وافق الوزير شاور عليه .. وما جئنا نعرضه عليك الا بعد اتفاقنا معه ..

فاتقد قلب أسد الدين غضبا عند ذكر شاور ، ولكنه تجلد ليخفى مافى قلبه .

— لابد من حضور مندوب عنه .

— قد حضر مندوبه منذ أمس .. فهو عنــد ملكنا وسيشهد الاتفاق ..

وبعد يومين ترددت فى خلالهما الرسل بين أسد الدين «ومرى» تم عقد الصلح بينهما ، فرحل الفرنج أولا بمقتضى الشرط الذى اشترطه أسد الدين . وبقى أسد الدين ستة أيام يواسى أهل بلبيس ويجاملهم بالتنقل فى بيوتهم زائرا شاكرا ، ثم ودعوه بعيون دامعة يوم رحل . ولم يعلم الا فى طريقه الى الشام أن نور الدين هو الذى استطاع بتدبير فى الشام أن يفك الحصار عن بلبيس ، فقد سير حملات عنيفة هاجمت حصون الفرنج بالساحل والداخل حتى استولت على بعضها فروعهم واضطرهم الى عقد الصلح فى مصر ليتفرغوا لنور الدين بالشام .

٥

أما شجاع قائد الفتيان المغاوير ، وأسير الفرنج فقد أطلقوا سراحه قبل رحيلهم ، وسلمه ملكهم « مرى » الى مندوب أبيه ليرجع به الى القاهرة .

وكان أسد الدين قد رغب فى لقائه بعد ما عرف أنه هو ذلك القائد الأسير ، فأرسل فى طلبه فاعتذر شجاع ولم يقبل ، وجعل يتوارى عن الناس ، و لايكلم أحدا منهم ، فقال أسد الدين لأصحابه : « ان الفتى خجل أن يلقانى مما فعل أبوه » !

غير أنه قال لمندوب أبيه لما آذنه بالرحيل : « ارجع أنت قبلى وسألحق بك » .

قال المندوب : انى سأنتظرك .

فغضب شجاع غضبا شديدا ، وقال له : « ويلك ! ما شأنك

بى ؟ أتريد أن تخبرنى أسيرك ؟ » .

فلم يجد المنصوب بدا من تركه فتركه ورحل .

ومضى شجاع يجاهد نفسه ، ويدفع جسمه دفعا حتى دخل مدينة بلبيس ، والناس ينظرون اليه متعجبين ويتهامسون فيما بينهم : « هذا قائد الفرقة .. هذا ابن شاور .. » فلا يكلمهم ولا ينظر اليهم ، وانما اتخذ سبيله أمما الى حيث رأى جماعة من جيش أسد الدين ، فسألهم أن يوصلوه الى قائدهم .

وحفى أسد الدين به وأحسن لقاءه ، فأجلسه بجانبه ، وقال :

« لله درك يا شجاع ! لقد بيضت وجوهنا » .

فانبرى صلاح الدين يقول : « أجل ويا ليته استطاع أن يبيض وجه أبيه ! » .

فنظر اليه عمه نظرة عاتبة .

ـ دعه يا أسد الدين ، فقد قال خيرا ، اذ تمنى لى أفضل ما تتمناه نفسى ..

قال شجاع ذلك ، وتقلصت قسمات وجهه حتى أشفق الحاضرون أن يغلبه البكاء ، ولكنه ما لبث أن تمالك فانبسطت أساريره وهو يقول : « انى جئت يا أسد الدين لأشير عليك برأى ، فهل تقبله منى وان كنت ابن شاور ؟ »

فأجابه أسد الدين وقد جاشت الرقة فى قلبه حتى بلغت ذروتها .

« نعم ، يابنى وكرامة عين ! قل ما عندك » .

ـ ان الأمر يا سيدى أعظم مما بينك وبين شاور ، وما يبغى

أن تعود هكذا الى الشام بينك وبينه هذه القطيعة ، حتى تزيلها وتصلحها لخير البلد وأهله .

ــ ولكن كيف السبيل الى ذلك يا شجاع ، وأنت تعلم أن أباك هو الذى نقض العهد .. ولولا اشفاقى عليك لقلت خان !

ــ معاذ الله يا سيدى أن تظن به الخيانة .. ولكنه اجتهد فأخطأ .. وما هو الا بشر يخطىء ويصيب ..

فتعجب أسد الدين وأطرق مليا ثم التفت الى أصحابه قائلا : « ماذا ترون فيما يقول هذا الشاب الكريم ؟ » وأومأ الى صلاح الدين أن دع القول لغيرك .

فنظر بعضهم الى بعض ثم انبرى الفقيه عيسى الهكارى يقول : « ان الله لا يستحى من الحق ، وشاور قد غدر بنا وتواطأ مع عدو الاسلام والمسلمين فسجل على نفسه الخيانة السافرة ... هذا مبلغ علمنا فان كان عند هذا الشاب الكريم برهان على خلاف ذلك فليقل لنا ماذا قصد أبوه بما فعل ؟ » .

ــ أحسنت يا سيدى الفقيه .. هذا ما أردت تبيانه لكم ... ان شاور كان ولم يزل ينوى التعاون مع نور الدين على قتال الفرنج ، وكان يريد تنظيم ذلك على أساس ثابت بعد أن يستقر له الأمر فى مصر ، ولكن الفرنج باغتونا قبل أن يستعد لذلك فخشى أن يغلبوكم ويغلبونا فيستولوا على مصر ، ويعسر اخراجهم منها ، كما تعسر اخراجهم من بلاد الشام ، فرأى أن يخدعهم هذه المرة عن حقيقة قصده ليصرفهم عن البلاد ، ثم يجاهدهم بعد ذلك متحالفا معكم فى خطة واحدة .

قال أسد الدين : « ولكن هل يليق به يا شجاع أن يعدنا بالمدد ثم يتركنا ثلاثة أشـــهر فى أشد الحصار ندافع الأعداء عن مدينة من مدن مصر ووزير مصر قاعد العاصمة يتفرج علينا ؟ » .

ـ أشهد لقد هم يا سيدى أن ينجدكم لـما بلغه نبأ الحصار ، ولكنه عدل حين علم أنكم فى منعة ، وان العـدو لم يبلغ منكم شيئا ، وأعلم أن ذلك خطأ منه جنيتم .. قولوا ما شئتم فى ذلك الا أن تصفوه بالخيانة ..

ـ أفما ناقشت أباك فى ذلك يا شجاع ؟

ـ بلى يا سيدى ، ولكنه صلب الرأس اذا اقتنع بشىء صمم عليه فلم يقدر أحد أن يثنيه عنه ..

ـ كأنك حضرت هنا بغير مشورته ؟

ـ أجل أردت أن أحمل الفرنج على محاربته ، واذن لحاربهم بكل ما أوتى من قوة وبسالة ..

ولم يتزحزح أسد الدين عن رأيه فى خيانة شاور ، ولكنه لم يشأ أن يجرح ابنه الطيب فى شعوره اذ مضى فى مناقشته

ـ وماذا تقترح علينا أن نصنع يا شجاع ؟

ـ لو عدتم معى الى القاهرة لتسمعوا اعتذاره بأنفسكم ثم تتفقوا معه على شىء بصدد محاربة الفرنج فى المستقبل ...

ـ ليس لنا أن ننقض العهد الذى أمضيناه بمغادرة البلاد .

ـ فانتظروا هنا حتى أجىء به اليكم ..

قال له أسد الدين فى عطف بالغ : « ويحك يا بنى ان أباك

يكره أن يلقاك ويريد أن يتحلل مما التزم به لنور الدين من ثلث الخراج » .

ـ لا بأس أن تنتظروا حتى تروا ما يكون من أمره .

ـ كلا يا بني ، لابد أن نعود الى نور الدين فى الحال لنرفع اليه ما حدث فيرى رأيه فيه .

وهكذا انصرف شجاع من عنده بقلب كسير . وقد حدثته نفسه فى الطريق أن يعود ليذهب مع أسد الدين الى الشام ، حتى يشرح لنور الدين عذر أبيه عسى أن يقبله فيعود الصفاء بينهما ، ولكنه تذكر زوجته الحبيبة وما تعانيه من قلق عليه ، وهزه الشوق الى لقائها بعد فراق شهرين طويلين ، فمضى يخب به جواده صوب القاهرة ـ لا ـ بل صوب دارها بالفسطاط !

٦

وهذه سمية فى دار أبيها بالفسطاط فى هم وقلق ، وانها لتخفى من ذلك أضعاف ما تبديه :

ترى ما حال حبيبها الآن ؟ وهل يعود ؟ ومتى يعود ؟

لقد بلغها أنه لم يقتل ، وانما وقع فى الأسر ، ثم بلغها أن ملك الفرنج أبقى عليه من أجل أبيه ، وانما احتفظ به رهينة عنده ، ثم بلغها آخر الأمر أنهم سيطلقون سراحه بعد أن يعقدوا الصلح مع أسد الدين .

ولكن قلبها بقى على حاله دائم الوجيب ، ولكن قلقها لم يزل يزلزلها بياض النهار ويقلقها سواد الليل .

انها لتذكر يوم خرج من عند أبيه ضحى وهو دامع العين



وهذه سمية في دار أبيها بالفسطاط في هم وقلق ، وانها لتخفي من ذلك أضعاف ما تبديه

ترى ما حال حبيبها الآن ؟ وهل يعود ؟ ومتى يعود ؟

كسير القلب ، فأسرع اليها فى حجرتها ، وارتمى فى حجرها يبكى وينتحب ، فلما سألته ما خطبه ، قال لها والعبرة تخنقه : « أبى يا سمية .. سيجعل الناس يقولون عنه أنه خائن ! ثم ما زالت به تواسيه وتهون عليه حتى سكن جأشه ورقأ دمعه ، فما كان أجمله وهو ينظر اليها مبتسما ابتسامته الساحرة وبقايا الدمع تتلألأ فى عينيه !

وانها لتتذكر يوم أقبل اليها بعد ذلك بأيام باسم الثغر منشرح الصدر ، يكاد يخرج من اهابه جذلا ومرحا ، فطفق يعانقها ويقبلها تارة فى الرأس وتارة فى الوجه وتارة فى صفحة العنق ، كأنه ثمل ، فقالت له : « ما خطبك اليوم ؟.. أأنت مخمور ؟ » قال لها : « نعم أنا مخمور يا سمية من غير ما يغضب الله .. انى قد اهتديت الى ما أحمل به أبى على قتال الفرنج مع أسد الدين » . فلما سألته : كيف ؟ همس فى أذنها : « صه ، لا تبوحى بهذا السر لأحد » ، وطبع على فمها قبلة ثم قال : « هأنذا قد ختمت هذا الفم الصغير على السر الخطير ! »

ويوم جاء يودعها غداة رحيله ، فوقف أمامها بين التجلد والجزع فى حالة عجب ، فكأنما كان يستنجد بشجاعته فتعينه ، ويعتمد على حبه فيخونه ، وكانت آخر كلمة قالها وهو يمسح دمعها : « ثقى يا حبيبتى أن الله لن يخذلنى أبدا وأنا أسعى فى جمع كلمة المسلمين ! »

يسعى فى جمع كلمة المسلمين ...

أجل .. هذا زوجها وحبيبها هو الذى يقول ذلك ويفعل ما يقول .

هذا زوجها الذي يحبها أشد الحب وأعظمه ، حتى لايكاديصبر ليشن الغارات على جموع الفرنج ، وليس معه الا شرذمة قليلون .

هذا زوجها الذي يحبها أشد الحب وأعظمه ، حتى لايكاديصبر عنها لحظة ، قد رحل عنها ليلبي نداء الواجب لله والوطن . ولما ينصل خضاب العرس من كفيها ومن قدميه !

هذا الأمل المنشود الذي ظلت طويلا تحلم به قد حققه الله في أكمل صورة وأروعها ، لقد تزوجت بطلا يجاهد في سبيل الله ، ويسعى في جمع كلمة العرب فعلام اذن يا سمية تأسين ؟ وفيم تقلقين وتجزعين ؟

— اني أحبه حبا ...

— ولكنك هكذا تحبينه أن يكون .

— أجل ولكنى أخاف عليه ..

— تخافين عليه مما يجعله بطلا كما تمنيت ؟

— ليته أجل ذلك قليلا حتى يتملى قلبه منه ، وقلبه منى !

— ان لم يكن هكذا اليوم فلن يكون .

كذلك كانت سمية تناجى نفسها لتسكن جأشها وتثبت قلبها ، ولكن هيهات .

كانت لا تفتأ تترقب الأنباء فى كل لحظة عسى بشير تسمعه يقول : عاد شجاع !

وزاد ترقبها حين سمعت أن الصلح قد تم بين الفريقين فى بلبيس ، وأن حبيبها يوشك أن يعود مع مندوب أبيه .

ولكن المندوب رجع الى القاهرة وليس معه شجاع .

لك الله أيها البطل الحبيب ! أى شىء أخرك ؟ ومن ذا يصدقنى خبرك ؟

يقول المندوب انه ألح عليه أن يصحبه ، فأبى ، وسأله أن يسبقه ووعده أن يلحقه . ليت هذا المشؤوم لم يجىء ، فما زادنى مجيئه الا قلقا على قلق

ومضى على وصـوله يوم ثم يوم ، وهذا اليوم الثالث قـد أوشكت شمسه أن تغيب وما من نبأ عن الحبيب .

ترى ماذا جرى لك يازوجى الحبيب ؟ خشيت من غضب أبيك فلم تشأ أن تعود ؟ خجلت من صنيعه فكرهت أن تراه ؟ ولكن كيف تنسانى يا شجاع ؟ كيف تنسى سمية زوجك وحبيبتك ؟

وانها لفى هذا البحران من القلق والحيرة ، ولم يكن فى الدار معها غير الجارية مسيكة ، فأمها تزور بعض الجيران ، وأبوها خارج البيت كعادته بعد العصر ، اذ صاحت مسيكة من عند الشباك : « مولاتى ! مولاتى ! هذا زوجك قد وصل ... »

فاستحقت مسيكة حلوان البشير !

ـ أين هو يا مسيكة ؟

ـ فى الفناء يربط فرسه ...

وعرا سمية ما عراها من ذهول وارتباك . ما خطبها ؟ أليست فرحة ؟ بلى ! ان فرحها لعظيم ، ولكن هلا تأخر قليلا حتى تتهيأ للقائه ؟

وناداها صوت من باطنها يهديها السبيل ، المرآة يا سمية ! أسرعى الى المرآة ، أين هى ؟ فى حجرتك ! انطلقى الى حجرتك !

وانطلقت كالشهاب !

تعالى يا مسيكة .. انجدينى يا مسيكة . ناولينى الحلة . كلا ليست هذه .. التى يحبها زوجى . اللازوردية .. أجل هذه . ساعدينى .. شعرى ! ناولينى المشط . العطر .. قنينة العطر . رشى على شعرى .. والعقد .. أين عقدى اللؤلؤى ؟ هاتيه ..

ونادى صوت من جهة البهو : سمية !!

هذا صوته يا مسيكة ، صوته حقا .. صوت شجاع !

وخرجت تتهادى فى حلتها ..

ـ سمية !

ـ شجاع !

واعتنق الحبيبان ، هذا أسمر ضامر ، وهذه شقراء ممشوقة ، فكأنهما فيما يرى الخيال ، فارس من جيش العرب الفاتحين ، قد ضم الى صدره عروسا حسناء من بنات أقيال الروم !

٧

ودعا شجاع زوجته لتعود معه الى مسكنهما عند أهله بدار الوزارة فى القاهرة ، وهمت سمية أن تطيع ، ولكن أباها عارض فى ذلك ، فوقفت حائرة .

ذلك أن أبا الفضل كان قد هاله ما فعل شاور ، فكلمه فى نجدة أسد الدين ، اذ لا يليق الغدر به هكذا وتركه يقاتل الأعداء دفاعا عن أرض مصرية ، وأهل مصر واقفون يتفرجون ، ولكن شاور أصر على موقفه من لزوم الحياد ، وأخذ يبسط الاسباب التى تدفعه الى ذلك ، وجعل أبو الفضل يناقشه ويشرح ما فى عمله

هذا من الخطر على البلاد ومن سوء الأحدوثة على نفسه ، مما قد يفضى الى سقوط حكمه ، فيماريه شاور ويغالبه بفصاحته وقوة حجته حتى ضاق آبو الفضل ذرعا ، فقال له : ويلك يا شاور ان الله قد فتق لسانك ولكنه طمس قلبك .

فقال شاور : « يا أبا الفضل ، يدك فى المـاء ويدى فى النار ، أنت غير مسؤول اذا وقعت البلاد فى قبضة الفرنج ، ولكنى أنا المسؤول .

ـ ولذلك تحالف الفرنج على أسد الدين ؟

ـ معاذ الله .. ولكنى أؤجل قتالهم الى يوم أمثل .

وهكذا أيس أبو الفضل من هداية شاور الى الحق ، فعالنه بالقطيعة وصارحه بالعداوة ، وغالى فى ذلك حتى منع امرأته من زيارة أختها زوجة شاور وقد همت سمية اذ ذاك أن تبرح دار شاور وتلحق بأهلها لولا أنها أشفقت على زوجها الحبيب الذى تعرف سخطه على خطة أبيه ، فبقيت هناك حتى رحل شجاع ليجاهد الفرنج فلحقت هى بأهلها ولم تستمع لرجاء أبيه وأمه أن تبقى عندهم .

وأقبل شاور يزورها فى بيت أبيها ، لما وقع شجاع فى أسر الفـرنج ليثبت قلبها ويؤكد لهـا ألا خوف عليه منهم ، وأنهم سيطلقون سراحه عما قليل ، وكانت تنوء بالهم الثقيل فلم تملك أن قالت له : « وماذا عليه ان قتلوه ؟ سيذهب الى ربه شهيدا ويتحمل تبعته قوم آخرون ! »

وحضر أبو الفضل فوجد شاور فى بيته فلم يسلم عليه .

ـ ماذا جاء بك الى بيتى ؟ انى لا أريد أن أرى وجهك !

ـ جئت لأرى زوجة ابنى !

ـ ابنك نفسه قد خرج عليك وكره عملك فما شأنك بعد بزوجه ؟

ـ شاب لا يدرك أنى فعلت ما فيه الخير لمصر ...

ـ هذا عار .. هذا عار لقد جللت وجه مصر بالعار !

ـ يا أبا الفضل تذكر أن بيننا رحما وقرابة ..

ـ لا رحم ولا قرابة بيننا اليوم .

فنهض شاور مغضباوهو يقول : « ولكنى سأظل أرعاهما على رغم أنفي » .

ـ أتوعدنى ؟ افعل ما بدا لك ...

ـ أقتل العجز عجز القادر !! قال ذلك وخرج .

وقفت سمية اليوم حائرة لا تدرى أتطيع زوجها أم تطيع أباها ، وتقدم شجاع الى أبيها يستعطفه ويناشده فأبى أن يجيبه الى ما أراد .

ـ أنت بمكان ابنى يا شجاع ، فأقم هنا بيننا عند خالتك وزوجتك .

ـ ولم لا تقيم هى عنده زوجها وخالتها ؟

ـ كلا ، لن آذن لابنتى أن تقيم فى دار خائن لدينه ووطنه .

فصمت شجاع مليـا وقد ساءه ما سمع فى حق أبيه ، وهم أن يثور على حميه ، فيكذب ما زعم ، ولكنه آثر الاغضاء ، اذ تذكر أن أبا الفضل قد قال كلمته مخلصا ، ولم يقصد بها التعبير ، وأن

ذلك ليس رأيه وحده بل رأى سائر الناس ، وأنه فوق ذلك والد سمية .

وحار شجاع ماذا يفعل ؟ أيقيم فى بيت حميه كما اقترح ؟ ان أنفته تحول دون ذلك . أيقاضيهم ليحكم له بالطاعة ؟ ولكن سمية لم تعصه ولم تنشز عليه . وماذا يكون شعورها نحوه لو فعل ؟ وهو يعلم أنها تحب أباها حبا جما ، أفيجدر به أن يغضبها فيه ؟ وأى حب أم أى حنان بين الزوجين يبقى على حاله ، اذا صار سر بينهما كرة تتقاذفها الصوالج فى المحاكم ؟

وألح الهم على شجاع ، ولج به الأسى والحنين ، فأخذ ينطوى على نفسه ويميل الى العزلة والوحدة ، حتى أشفقت أمه عليه وجعلت تنحى باللوم على زوج أختها وتسفه عمله .

أما شاور فكان قد لام ابنه حين رجع من بلبيس ، وعاتبه على ما كان منه من التهور والاندفاع دون الرجوع اليه ، فدافع شجاع عن نفسه متمسكا بصواب ما فعل حتى غضب شاور فأغلظ له القول وأسمعه ما يكره وكره الولد البار أن يسىء الأدب مع أبيه فسكت ولم يرد عليه .

ولكنه ظل بعد ذلك زمنا لا يجلس اليه الا اذا أمر ، ولا يكلمه الا اذا بدأ الحديث أو وجه اليه سؤالا فيرد عليه ردا مقتضبا ، ولكن مع كمال الأدب .

وجاءت محنة سمية فزادت الهوة بينه وبين أبيه اتساعا .

قالت له أمه : « لا حق لك يا شجاع أن تجفو والدك هذه الجفوة من أجل أن سمية قد منعها والدها عنك »

ـ معاذ الله أن أجفو أبى يا أماه .. ما ذنبه هو فى ذلك ؟

ـ اذن فمن أجل السياسة التى اتخذها .. ويحك يا بنى ! ان أباك أعرف منك بهذه الشؤون . دع الناس يقولون عنه مايقولون ، فأكثرهم لايفقهون .. أما أنت فلاينبغى أن يخالطك شك فى أبيك .

ـ كلا لا تظنى يا أماه أنى أظن بأبى ما يظن الناس .. فحاشاه من ذلك .. ولكنه خانه الصواب فيما رأى وسلك ..

ـ كلا انه لا يخطىء أبدا فى رأى أو عمل ..

وأشفق شجاع أن يغضب أمه فتركها تقول ما تريد .

وعز على شاور ما يرى من حال ابنـــه ، فأخذ يتألفه ويتودد اليه حتى دعاه ذات يوم ، وكانت أمه جالسة معه فجلس شجاع بينهما ، فأخذا يلاطفانه ويباسطانه . فلما اطمأن بهم المجلس شرع شاور يشرح لابنه ما خفى عليه من أسرار سياسته بأسلوبه البليغ وبيانه الواضح ، وكلماته الموجزة المجزية ، فذكر له أنه كان يعلم ما بين العاضد والفرنج من الصلة والاتفاق على أن يثب العاضد بالقاهرة حين يخرج شاور بجنوده منها لنجدة أسد الدين ، فلو أنه فعل ذلك لضاعت البلاد ، ولفنى جيش أسد الدين على بكرة أبيه ، فقد أنقذ هو البلاد بسياسته هذه وأنقذ أيضا جيش صديقه وحليفه نور الدين . وقال له « انك تعلم يابنى أننى طالما ألححت على أسد الدين أن يخلع العاضد ، فلو أنه خلعه لمـــا حدث شىء مما حدث ، ولكنه خالفنى فأبقاه . ثم انى أشرت عليه بعد ذلك ألا يبرح القاهرة بجنده بل يبقى حولها ، فاذا جاء الفرنج قاتلناهم

دونها من غير أن نخشى غدر العاضد ، فخالفنى أيضا ورحل مسرعا الى بلبيس ، وطلب منى أن أنجده هناك •• »

وهنا تكلم شجاع بعد ما لزم الصمت طول الوقت مكتفيا بالاصغاء ، فقال : « كان فى امكانك يا سيدى أن ترسل اليه المؤن فتغيث أهل بلبيس » •

قال شاور وقد لاح السرور فى وجهه : « أحسنت يا بنى اذ سألتنى انى قد شرعت أرسل اليه ، ولكن الفرنج استولوا على ما أرسلت ، فخشيت أن يتقووا بذلك عليه فقطعته ، ألم يبلغك ذلك يا بنى ؟ » قال شجاع : « بلى يا سيدى ولكن الناس فى تلك الجهة قدظنوا أنك أرسلته لاغاثة الفرنج أنفسهم » •

قال شاور : « وهذا ما خشيته أيضا وتوقعته يا شجاع • ما أسرع ما يسىء الناس الظن • أنا مظلوم يا بنى • أنا مظلوم ! »

ورأى شاور وجه ابنه قد تبلج عن بعض الرضا ، فمضى يقول له : « سلنى أيضا يا بنى ، سلنى عما يشكل عليك ، لأشرح لك كل شىء » •

ـ أريد أن أسألك يا سيدى عن ثلث الخراج •• ذاك الذى التزمت به لنور الدين •

ـ هذه مسألة هينة ، فقد قلت لأسد الدين انى سأتفاهم فى ذلك مع سيده نور الدين ، فان نور الدين رجل عظيم لا يهمه المال ، وما أرسل جملته معى الا ابتغاء مرضاة الله بحماية هذا القطر العربى ، وتأمينه من خطر الفرنج •

ـ فلم لا تكتب الى نور الدين يا سيدى فتشرح له عذرك ؟

ـ سأفعل يا بنى .. سآمر صاحبك القاضى الفاضل أن يتولى كتابة ذلك بأسلوبه وانشائه .

وكانت زبيدة تصغى الى الحديث معجبة بفصاحة زوجها وقوة حجته وتتابع ببصرها ما يحدثه من الأثر فى وجه ابنها ، فلما رأته قد سكت سكوت المقتنع انبرت تقول :

ـ هل اقتنعت الآن يا شجاع ؟

ـ نعم ..

ـ هل بقى فى نفسك شىء ؟

ـ لا يا أماه ...

ـ قم يا بنى اذن وقبل رأس أبيك !

ـ حبا وكرامة يا أماه ..

وقام شجاع وقبل رأس أبيه ، فعانقه أبوه عناقا حارا وهو يقول : « لقد فقدت أخويك طيئا وسليمان ، أفينبغى أن أفقدك أنت أيضا يا شجاع ... أفقدك وأنت حى ترزق ؟ »

فاستعبر شجاع وهو يلثم كف أبيه ويقول : « كلا يا سيدى لن تفقدنى أبدا ما حييت » .

فقامت زبيدة تعانق ابنها وهى تقول : « الحمد لله يا بنى ! الآن قرت عينى بك » .

وانزاح عن كاهل شجاع كفل من همه ، فاستنار فكره ، وأخذ يقلب الرأى فى أمر سمية ، كيف يقنع والدها ليعدل عما تشبث به ، فهداه الفكر الى أن يستعين عليه بصديقه القاضى الفاضل ، وعجب كيف لم يخطر له هذا من قبل .

ولبى القاضى الفاضل رغبة شجاع ، فركب الى أبى الفضل ، فناشده أن يرحم ولديه شجاعا وسمية ، فكفى ما فرق بينهما لغير ذنب جنياه ، فما تزر وازرة وزر أخرى ، وذكر ألا حق له فيما يفعل ، فلو أن شجاعا قاضاه لحكم له عليه ، وما زال به كذلك حتى رضى أبو الفضل .

وهكذا عاد تسمية الى بيت زوجها ، فكان ذلك من أسعد أيامها وأيامه .

٨

غير ان القطيعة بين أبيها وأبيه ظلت على حالهـا ، بل اشتدت بعد ذلك اشتدادا خطيرا .

ذلك أن شاور لمـا رأى سوء رأى الناس فيه بعد الذى حدث من خذلانه أسد الدين وايثاره الفرنج عليه ، رأى أن يشرح لهم حقيقة مسلكه ويقيم لهم عذره . هذا ابنى قد شك فى ثم اقتنع ، فلم لا أصنع مثل ذلك مع الناس ؟ ثم هذا العاضد لى بالمرصاد ، فلن يغفر لى أبدا تحريض أسد الدين على خلعه ، وسيسعى لا ريب الى اسقاطى ، وسيجد من سخط الناس على عونا له على ما يريد .

فأخذ شاور يفتح بابه للناس من جميع الطبقات ويدعوهم اليه فيشرح لهم أسرار سياسته ودوافعها ، وما عادت به على البلد وأهله من الخير وحسن العاقبة . ومن كشاور فى حسن الاقناع ؟ ثم اختـار من بينهم دعـاة أدلاهم وحباهم لينشروا فى الناس ما سمعوا منه .

ولم يلبث أن ظهر أثر ذلك فى الناس ، فأخذوا فى مجالسهم وفى الشوارع يتناقشون ويتجادلون فى هذه الشؤون ، من مقتنع بسياسة شاور ، قد أصبح يدافع عنها ، ومن منكر لا يزال يندد بها ، ويصمها بالخيانة والغدر ، ومن مذبذب بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ..

وكان أبو الفضل وجماعته قد قرروا قبل ذلك وجوب السعى لاسقاط شاور لما ثبت عندهم من خيانته للدين والوطن ، وقد كتب أبو الفضل الى نور الدين يعلن براءته وبراءة أهل مصر مما فعل شاور ، ويناشده أن يعيد أسد الدين فى حملة أخرى لتخليص مصر من هذا الذى خان الملة والوطن . وقد كان يرى من سخط الناس على شاور أكبر عون للحملة الثانية على أداء مهمتها اذا أتت فلما رأى هذه الفتنة التى انتشرت فى الناس من عمل شاور ودعاته ، هاله أن يضلل الناس هذا التضليل فيعرض لهم الباطل فى صورة الحق والحق فى صورة الباطل ، فعول هو وجماعته على مقاومة هذه الدعوة ، ومناقضتها ومقارعة الحجة بالحجة ، فانتشروا فى الناس يدعون ويذكرون .

وكان أبو الفضل أشدهم تجريحا لسياسة شاور وتنديدا بما اجترم حتى انتبه شاور لشأنه فبعث اليه من ينهاه عن ذلك ويتوعده ، فلم يبال بوعيد شاور ، ومضى فى التأليب عليه ، فأرسل اليه القاضى الفاضل عسى أن يقنعه لما بينهما من المودة والصداقة ، ولكن القاضى الفاضل لم يقم بما أرسل من أجله ، بل أسر الى صديقه أبى الفضل أن يختبىء أو يهرب فى الحال ،

لأن شاور قد قرر القبض عليه ، لا من أجل لسانه بل خشية أن يكتب الى نور الدين ويحرضه عليه ، فقد عزم شاور أن يبعث رسالة الى نور الدين ليشرح له فيها عذره وحسن نيته فيما فعل ، وكلفه هو أن يتولى انشاء هذه الرسالة ثم قال له : « لا ضير أن تحتجب أنت،ففى جماعتنا الكفاية،وهم سيواصلون الحملة عليه»

قال أبو الفضل : « صدقت يا عبد الرحيم .. الحمد لله اذ لم أطلع هذا الخائن على سر جماعتنا ، اذن لقضى اليوم عليهم جميعــا . »

ــ اسمع يا أبا الفضل .. انى سأدأب من اليوم على القدح فيك حتى لا يرتاب الرجل فى أمرى .

ــ افعل يا عبد الرحيم .. قل فى ماتشاء عنده .. هذا ينفعنا .

ورجع القاضى فقال لشاور : « انه قد وعدنى بالكف ، ولكنى أخشى ألا يفى بما وعد ، فانه شديد الحقد عليك ..

ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى انطلق رجال شاور يبحثون عن أبىالفضل فى كل مكانليقبضوا عليه فلم يعثروا له علىأثر..

واستدعى القاضى الفاضل لمقابلة شاور :

ــ ألم يخبرك أبو الفضل بأنه سيهرب ؟

ــ لا يا سيدى الوزير أو قد هرب ؟

ــ انهم بحثوا عنه فى كل مكان فلم يجدوه .

ــ أرى أن ترسلوا فى طلبه فى طريق الشام ، فلعله أراد اللحاق بنور الدين ليحرضه عليك . ما علمت أنه رجل حقود قليل المروءة الا اليوم ..

ـ قليل المروءة ..

ـ نعم .. تدرى ماذا قال لى لما ناشدته بحق الصداقة أن يكف عنك ؟ قال لى : « لاتذكر الصداقة ، فقد نسيتها ياعبدالرحيم ونسيت فضلى عليك اذ جئت فقيرا لا عمل لك .. فرشتك ، ثم قدمتك » ، فلم أملك نفسى أن قلت له : « احسب ما أنفقت على اذ كنت فى ضيافتك لأدفعه لك » ، وخرجت من عنده غاضبا .

ـ خشى منك أن تحرضنى عليه فهرب .

ـ لو كان ذا مروءة تامة ما ظن بى ذلك .

وأعلم شجاع سمية بالحادث ، فكان عليهما محنة جديدة كدرت صفو لقائهما قبل أن ينعما به الا قليلا . يا ويحهما أو قد قضى عليهما ألا يخلصا من محنة الا الى محنة ؟ أكتب عليهما ألا يضمهما بساط وثير من الورد والريحان حتى يجدا شوكا يخزهما من خلاله ؟

ولاذ الحبيبان بحجرتهما حيث جلسا واجمين ، ماذا عسى أن تقول هى ، وماذا عسى هو أن يقول ؟ هى فى جزع على أبيها وقلق ، وهو فى خجل مما صنع أبوه ! الدمع الصامت يسح من عينيها ، والدمع الصامت يترقرق فى عينيه !

ودخل شاور عليهما فجأة ، فاستويا قائمين ، ولكن ظلا على حالهما واجمين وحياهما فردا التحية بالايماء .

وطفق شاور يعرب عن أسفه لما حدث ، ويقسم لهما أنه لم يكن فى نيته قط أن يلحق بأبى الفضل أذى أو يمسه بسوء ، وقصارى ما كلف منه أن بعث اليه مرة بعد مرة ليكف عن التشهير به وتحريض الناس عليه ، ولما لم ينته عن ذلك أراد أن يجتمع

به ليناشده بنفسه ، فأرسل فى استدعائه ، فلم يجده ، وبحثوا عنه فى كل مكان فلم يقفوا له على أثر . ثم أقبل على سمية خاصة فقال : « غفر الله لأبيك يا سمية ، لقد ظن أنى سألحق به أذى فاستخفى منى ، والله ما نويت ذلك ، ولا فكرت فيه ، ولو فعل ما فعل ، وسأجتهد فى طلبه حتى أزيل مافى نفسه منى ، فيعلم أنه فى أمان مهما يفعل » .

ثم جعل يمسح على رأسها فى حنان ، وهو يقول : « لا تبتئسى يا بنيتى فلن يصيب أباك أى سوء » .

ولمـــا خرج شاور من عندهما أقبل شجاع على زوجته يقول : « اطمئنى الآن يا حبيبتى وثقى أن أبى لا يكذب أبدا » .

فنظرت سمية الى زوجها فى رقة وعطف ولكنها لم تجب .

٩

وظل رجال شاور يطلبون أبا الفضل فى كل مكان ، دون أن يجدوه ، فانقطعوا . وانتظر شاور أن يظهر نبأ عنه عند نور الدين بالشام ، فلما لم يظهر شىء وبلغه أن نور الدين يستعد للانتقام منه ، رجح أن أبا الفضل هناك ، ولكنهم كتموا وجوده .

أما أبو الفضل فقد اختبأ عند أحد جماعته ، ثم صار يتنقل عندهم من بيت الى بيت كلما أحس بخطر عليه ، والجماعة ماضون فى التحريض على شاور والتنديد بخياناته ، وقد قبض على بعضهم كما قبض على كثير غيرهم دون أن يعلم سر ارتباطهم وانتسابهم الى جماعة واحدة .

وكان شاور يظن أن العاضد هو القائم بتدبير هذه الحركة من خلف الستار ، فوجه اهتمامه الى القصر يرصد حركات العاضد ويتتبع أسراره ، وصار يضطهد رجال القصر وينفى أو يعتقل من يخشى أن يرشحه العاضد لمنازلته فى المستقبل على كرسى الحكم ، ثم تسرب الى علمه أن العاضد قد كتب الى نور الدين يستنجد به عليه ، ويلتزم له بمثل ما التزم به شاور من نفقات الحملة وثلث الخراج والتعاون على جهاد الفرنج .

فأسقط فى يد شاور ، وضاع كل أمل عنده فى أن يقبل نور الدين عذره ويصالحه . وتأكد عنده أنه سيرسل أسد الدين لا محالة للانتقام منه ، وقد بدأ الناس يعودون الى اتهامه بالخيانة من جديد ، اذ أخذت الدعوة التى بثها تنحصر عنهم شيئا فشيئا .
وحدثته نفسه أن يكاتب الفرنج ، ولكنه تردد قليلا ، وأومض فى ذهنه خيال ابنه شجاع ، فازداد تردده الى أن قرر العدول عن ذلك ، حين تذكر أن الفرنج سيأتون من تلقاء أنفسهم اذا وجدوا نور الدين يرسل حملته من جديد ، فعلام يربط نفسه من اليوم بميثاق معهم ؟ أليس أفضل من ذلك أن يدع الأمور تجرى فى أعنتها ليملك حق الخيار بعد ذلك فى اتباع ما يراه أسلم له عندما يجد الجد ، ويلتقى العسكران فى أرض مصر ؟ ومن يدرى لعله حينئذ يتاح له أن يستميل عسكر نور الدين اليه فيشترك معهم فى حرب الفرنج ودحرهم فيسترد بذلك اعتباره لدى نور الدين وعند الشعب ؟

ولم تطل الحيرة بشاور ، اذ ما لبثت الأنباء أن جاءت بأن

« مرى » ملك بيت المقدس قد عاد فى جموع كثيرة فاجتازوا الحدود مسرعين الى أرض مصر ، ففزع شاور فى أول الأمر اذ كان يتوقع مجيء جيش نور الدين أولا ، ثم عاد فوجد أن سبق الفرنج أصلح له وأحرى أن يمكنه من تنفيذ خطة الخيار التى اعتزمها ، فليستقبل الفرنج اليوم مسالما حتى يثقوا به ويطمئنوا اليه ، وليعمل معهم على أساس ما اتفقوا من قبل عليه من بقاء استقلال مصر عنهم وعن نور الدين حتى اذا أقبل جيش نور الدين مال اليه ان أمكن والا مال عليه .

وفزع الناس مما سمعوا وانتشر بينهم الهلع ، فأمر شاور بتسكينهم ، واعلامهم أن الفرنج ما جاءوا لقتال المصريين أو احتلال بلادهم ، بل لقتال جيش الشام اذا أقبل ، فعليهم أن يخلدوا الى السكينة حتى يرى ما يكون من أمرهم . ثم وصله كتاب من « مرى » يؤيد هذا المعنى ، فأمر به فقرىء على الناس فى ميدان بين القصرين .

ولم تسكن نفوس الناس ، بل زاد اضطرابهم وحيرتهم ، وتلفتوا حولهم فوجدوا جنود الدولة ساكنين لا يتحركون ، كأنما لا يعنيهم الأمر فى شيء فقد اشترى شاور ذمم أمرائهم ، فهم لأمره طائعون وبارادته مسيرون ، أما عامتهم فهم لامرائهم تبع ، فارتدت أبصارهم حسيرة ، ثم توجهوا بقلوبهم شطر الشام لعل نجدة تأتى من نورالدين وشيكا ، فما لهذه الغمة غير نورالدين .

ووصل ملك الفرنج فاستقبله شاور استقبال الصديق ، وأعد

له ولكبار رجاله دورا خاصة فى العاصمة فنزلوا بها ، أما سائر جنوده فعسكروا خارج العاصمة .

وما لبث « مرى » أن اقترح على شاور أن يعقدا ميثاقا يوطد الصداقة بينهما ، ويؤكد العهد الذى اتفقا عليه ، فتردد شاور أول الأمر وقال له : « أيها الملك ... ان الصداقة بيننا لا تحتاج الى ميثاق يكتب » .

ـ بل ينبغى أن نبرم الميثاق حتى يعلم نور الدين ألا مطمع له فى مصر ، فلا يعود اليها .

ـ قد أثبتنا هذا بالفعل أيام بلبيس .. حين خلينا بينكم وبين أسد الدين ..

ـ انى واثق منك يا شاور ، ولكنى أريد ميثاقا يوقعه الخليفة فى مصر ، فلا يبقى لنور الدين مجال فى استمالته اليه والمجىء باسمه .

وما سمع شاور ذكر الخليفة حتى بدا له أن يغير رأيه فيوافق على عقد الميثاق فقال لمرى : « صدقت أيها الملك . لقد غاب عنى هذا الاعتبار فنبهتنى اليه » .

وعرض الميثاق على العاضد ليوقعه ، فداخله الشك فيما يكمن وراءه من كيد شاور وسوء نيته ، ولكنه فوجىء بذلك فلم يجد وقتا للتدبر فيه فوقعه وهو كاره .

وما هى الا أيام ، فاذا نبأ ورد العاصمة بأن أسد الدين قد عاد بجيشه وعبر صحراء سيناء الى الصحراء الشرقية .

ففرح الناس بهذا النبأ وان أشفقوا أن تكون هذه النجدة من

نور الدين قد وصلت متأخرة ، بعد ما تمكن الفرنج من العاصمة وتوثق التعاون بينهم وبين شاور . فها هو ذا ملك الفرنج وشاور قد أخذا يستعدان للقاء أسد الدين ويرتبان جنودهما ويعدان العدد ويدبران الخطط متعاونين متكاتفين كأنهما فريق واحد .

ثم أخذت الأنباء تتوالى بعد ذلك بأن أسد الدين قد وصل الى أطفيح وانه عبر بجنده الى الشاطىء الغربى ، وأنه اتجه بهم شمالا صوب الجيزة ، وأنه وصل الى الجيزة فعسكر بها .

وأسرع جنود شاور وجنود حلفائه فعسكروا حذاء عسكر أسد الدين من البر الشرقى ، فأصبح النيل يفصل بين المعسكرين ؛ وكأن هذا النهر العظيم باعتراضه بينهما ، وفصله بين جند الحق وجند الباطل ، قد أراد أن يشهد الله ويشهد الناس ويشهد التاريخ الى أى الفريقين انحاز شاور بجند مصر !

١٠

كان أبو الفضل مختبئا عند نعمان السقاء فى الفسطاط حين جاءت الانباء بقدوم أسد الدين ، فعزم أن يمضى اليه ليلقاه قبل أن يصل الى العاصمة ليطلعه على حقيقة الأحوال لعله يفيد منها فى الخطة التى سينتهجها لمحاربة شاور وحلفائه .

فخرج متنكرا فى زى السقائين ، ومعه صاحبه السقاء ، فمضيا يتنسمان أخباره ، حتى علما أن وجهته اطفيح ، فانتظراه هناك ، فلما وصل تقدم اليه ففرح أسد الدين لمـا عرفه ، وتلقـاه هو

وصاحبه ، فأنزلهما عنده فى المعسكر . وأخذ أبو الفضل يروى له كل ما يهمه من أخبار شاور والفرنج ، وما استعدوا به للقاء أسد الدين ، ثم أشار عليه بألا يعجل بمنازلتهم ، بل يؤجل ذلك ما أمكن حتى يتسامع أهل مصر جميعا أن شاور يحارب المسلمين مع الفرنج ، أعداء الدين والوطن ، فاستصوب أسد الدين رأيه قائلا : « انى قد خطر لى أن أستعين بشعب مصر ، بعد ما رأيت من بسالة أهل بلبيس وحماستهم فى معاونتنا على الفرنج » .

فقال أبو الفضل : « ان سائر الشعب لا يقلون عن أهل بلبيس بسالة وحمية اذا استثيروا وأتيح لهم سبيل المعاونة والعمل » .

فعقد أسد الدين مجلسا من كبار رجاله فيهم صلاح الدين والحارمى وغيرهما ممن كانوا معه فى الحملة الأولى ، وعرض عليهم رأى أبى الفضل واستشارهم فى أفضل السبل لتنفيذه .

واتفقوا بعد التشاور على أن يعبر أسد الدين بجيشه الى الشاطىء الغربى ثم يتوجه شمالا حتى يبلغ الجيزة فيعسكر بها ، وبذلك يتسنى لأهل القاهرة وأهل الفسطاط أولا أن يروا الحقيقة البشعة رأى العين ثم يتسامع بها سائر أهل القطر .

وبينما هم مجتمعون لم ينفض اجتماعهم بعد ، اذا بالحاجب يعلن لأسد الدين أن شجاع بن شاور قد جاء يستأذن لمقابلته ، فتعجب أسد الدين ، وتعجب رجاله ، ولكن أبا الفضل أسرع ، فاقترح عليهم من باب الحيطة أن يكتموا وجوده عندهم عن شجاع ، فوافق أسد الدين على ذلك ، وأشار على أبى الفضل

أن يختبىء خلف الخباء ليسمع ما يدور بينه وبين شجاع ، وفض المجلس فلم يبق معه غير الحارمى ، وصلاح الدين •

ودخل شجاع فرحب به أسد الدين قائلا : « مرحبا بقائد فرقة المو تفى بلبيس » وبعد أن أجلسه قال له : « هل أوفدك أبوك الينا يا شجاع ؟ »

فتردد شجاع قليلا ثم قال : « نعم يا سيدى بعثنى والدى سرا لأتصل بك » •

ـــ خوفا من حلفائه الفرنج !

قال شجاع محاولا أن يخفى الامتعاض الذى لاح فى وجهه : « بل خشية أن يعلموا بسر خطته فيحبطوها » •

قال أسد الدين ماضيا فى سخريته الخفية : « ان كان يخاف عليها من حلفائه أفلا يخاف عليها من أعدائه ؟ »

فقال شجاع محتدا : « يا سيدى ان كنت لا تريد أن تستمع لقولى فانى منصرف » • فرق له أسد الدين وطيب خاطره قائلا : « بل قل يا بنى فانى مصغ اليك » •

ـــ انه لا يعتبركم أعداء ولا يعتبر الفرنج حلفاء ، وقد بعثنى لأعرض عليكم الخطة فتتفقوا عليها معه •

ـــ كأن أباك يريد أن يصالحنا ؟

ـــ نعم •••

ـــ بعد الذى كان منه ؟

وهنا قال صلاح الدين لعمه : « يا عم أ لاتسأله ما هى الخطة أولا ؟ »

قال أسد الدين : « أجل .. ما خطته يا شجاع ؟ ! »
ــ أن يوهم الفرنج بأنه معهم ، كما فعل حتى الآن ، فاذا نشب القتال مال عليهم معكم ميلة واحدة .

فسكت أسد الدين مليا ثم قال له : « هذه خطة حسنة ، ولكن ماذا يضمن لنا أن شاور صادق النية فى ذلك ، وألا يكون قصده أن يغدر بنا كما فعل من قبل ؟ »
ــ كلا يا سيدك لا شك فى صدقه .. وسترون ذلك غدا بأعينكم .

قال صلاح الدين : « سله يا عم عن خبر الميثاق » .
ــ أجل ألم يعقد أبوك ميثاقا معهم على محاربتنا ؟

فأسرع شجاع يقول : « سأحدثك يا سيدى عن هذا الميثاق ، فاعلم أن أبى لم يوقعه ، وانما وقعه الخليفة العاضد » .
ــ وهل وقعه العاضد الا بموافقة أبيك وعن رأيه ؟
ــ كلا يا سيدى ، ان والدى قد رفضه حينما عرضه عليه « مرى » ملك الفرنج ، وقال له : « لا حاجة الى عقده لأنه كان ينوى منذ ذلك الوقت أن يتفق معكم على هذه الخطة ، ولكن « مرى » بعث بالميثاق الى العاضد فوقعه .
ــ ولم يوقعه شاور بعده ؟
ــ لا والله العظيم ورب الكعبة .. لقد اطلعت عليه بنفسى فما وجدت توقيع شاور فيه .
ــ انك تقول قولا عجيبا يا شجاع .

ـ لم يعد هذا الأمر سرا يا سيدى •• فقد أصبح يعرفه كثير من الناس ، وستسمعه غدا أنت بنفسك ••

ـ ما وقع شاور الميثاق •• ولكن عمل بموجبه •

ـ قد شرحت لك يا سيدى حقيقة غرضه من ذلك •• ثم ان هذا الميثاق ليس فيه محاربتكم ••

ـ فأى شيء فيه اذن ؟

ـ فيه ضمان استقلال مصر عن الفرنج وعن نور الدين معا ••

ـ ولا شيء غير ذلك ؟

ـ وفيه توثيق روابط الصداقة ••

ـ بين من ومن ؟

ـ بين مصر وبلاد الفرنج •••

ـ بلاد الفرنج الأصلية فى الغرب ؟

ـ لا يا سيدى •• بلادهم فى الشام ••

فعلا صوت أسد الدين قائلا فى غضب : « ويلك ! هذه ليست بلادهم ، وانما اغتصبوها منا ومنكم ومن كل عربى ومسلم ••• ويلكم ! ألم تعرفوا هذه الحقيقة ؟ ألم تعلموا أنهم دخلاء أفاكون من نفايات شعوب مختلفة فى الغرب ، طرءوا على بلادنا فى غفلة منا وضعف فزعموا أنها بلادهم وأنهم باقون فيها الى الأبد ؟ » •

فارتعد شجاع مما سمع ثم تمالك :

ـ بلى يا سيدى نعرف ذلك ، ولكن الصداقة التى وردت فى الميثاق لم يقصد بها الاخاء والمودة ، وانما قصد بها تيسير التجارة وتبادل البضائع والسلع مما ينتفع به الناس •••

غضب أسد الدين غضبا أشد من الأول وقال :
ـ ويلك ! هنا ضربة السيف فى سواء العنق ، وطعنة الخنجر فى حبة القلب ! ألم تعلموا ألا بقاء لهم فى بلادنا الا بذلك ؟ ألم تعلموا أن من يحالفهم فى ساحات القتا لأقل خيانة وأهون اثما ممن يعاملهم فى الأسواق ؟ ألا لعنة الله على من فعل هذا ولعنة اللاعنين ...

فسكت شجاع قليلا ثم تمتم قائلا : « التبعة فى هذا على العاضد وحده ، ولا يد لشاور فيه كما بينت لك » .

قال أسد الدين وصـــــدره يعلو ويهبط من أثر الغضب : « والغدرة التى غدرها شاور فى بلبيس ؟ »

ـ تلك هفوة صدرت منه أمس ونحن أبناء اليوم ...

ـ هفوة ! !

قال صلاح الدين : « أجبه يا عمى بلا أو نعم .. فا نالمقام مقام سفارة فى وقت حرب وليس مقام وعظ أو تبكيت » ..

ـ ماذا أصنع ؟ هذا أمر يثير حتى الحجر !

ـ انك تريد أن تطمئن الى صدق شاور فيما عرض اليوم عليك فاقترح عليه شيئا .

ـ ماذا أقترح ؟ كيف أعرف مافى قلبه ؟

قال الحارمى : « أرى أن تقترح عليه أن يثب شاور بالفرنج أولا ، ليثبت لنا صدقه » .

فقال أسد الدين فرحا : « أجل هذا حسن لو قبل شاور » .

قال شجاع : « كلا يا سيدى لن يقبل أبى ذلك » .

قال الحارمى : « ان لم يقبل فانه ينوى الغدر » .

قال صلاح الدين : « مهلا يا عمى دعنا نسأل شجاعا أولا كيف علم أن والده لن يقبل ؟ »

ــ الحق أنى اقترحت عليه هذا الامر ذاته ، فشرح لى أنه غير ممكن .

ــ كيف يا شجاع ؟

ــ ان الفرنج اليـوم منتشرون فى كل مكان ، ومختلطون بجيشنا فى المعسكرات ، والملك وكبار رجاله يقيمون فى دور كثيرة بالعاصمة ...

فقـال أسد الدين : « الله الله .. اختلط الاسمر بالاحمر .. وامتزج الحليف بالحليف . ان كان ذلك غير ممكن اليوم فهو متعذر ... »

ــ كلا يا سيدى ، غدا يمتاز عسكرنا من عسكر الفرنج .. حين تعبأ الفرق على كل فرقة قائدها ...

ــ لعلهم يضعون شاور على رأس فرقة من فرقهم .. ويتولى « مرى » قيادة فرقة من فرقكم .. أليس ذلك محتملا أن يقع ؟

فنهض شجاع غاضبا وقال : « كنت أظن يا أسد الدين أنك سترحب بجمع كلمة العرب على عدوهم وتنسى فى سـبيل ذلك ما سلف من اساءة شاور اليك ، فاذا أنت تنسى قضية العرب ولا تذكر الا حفيظتك على شاور وحرصك على الانتقام منه » .

فقام أسد الدين ليستوقفه قائلا : « ويلك ! من قال لك ذلك ؟ »

ــ هذا واضح من حديثك وطريقة حديثك ..

ــ لا والله يا بنى ! ما قصدت ذلك .. وانى لأعلم أنك مخلص صادق ..

ــ ووالدى أصدق وأشد اخلاصا منى .

ــ هذا عندك يا بنى لا عندى ..

ــ أجبنى الآن قبل أن أنصرف . .أتقبل أم لا ؟

ــ أقبل بشرط أن يثب أولا على العدو ...

فطفر الدمع من عينى شجاع وراح يقول بصــوت متهدج حزين : « لا حول ولا قوة الا بالله !.. ستحاسب على هذا يا أسد الدين غدا يوم القيامة ، وتبعة دماء المسلمين على عنقك » .

وحاول أسد الدين أن يستوقفه ، فجذب شجاع يده منه بقوة وخرج .

ووقف الثلاثة واجمين ينظر بعضهم الى بعض فى دهش وتعجب ، حتى دخل أبو الفضل ، فقــال له أسد الدين : « هل ســمعته يا أبا الفضل ؟ سمعت زوج ابنتك ؟ »

قال أبو الفضل : « أجل انى أعرفه جيدا .. ليس بينه وبين شاور غير لحمة النسب .. أما ما عدا ذلك فبينهما بعد المشرقين »

ــ أعجب ما أعجب له أن هذا الشاب على ذكاء وفطنة ، فكيف تغيب عنه حقيقة أبيه ؟

ــ انك لا تعرف يا أسد الدين أن شاور فى أهل بيته اله يعبد !

ــ ألم يشك يوما فى عمل من عمل أبيه ؟

ـ بلى ! ولكن تعرف شاور وقدرته الخارقة على الاقناع .. وحسبك أنه خدعنى زمنا عن نفسه ..

ـ وخدعنى أنا أيضا

ـ وخدع الناس أجمعين ..

قال الحارمى : « الا يوسف !.. »

فقال أسد الدين فى دعابته المحببة : « أجل يا أبا الفضل .. الا هذا الولد الشقى فانه لم ينخدع به قط »

وتبسم صلاح الدين ولم يجب .

قال أبو الفضل : « لعله رآه أول ما رآه فى أسوأ حالاته فنشأت فى نفسه كراهية له واشمئزاز » .

فقا لصلاح الدين متعجبا : « أجـل ، كيف عرفت ذلك يا أبا الفضل ؟ »

ـ ما كنت لتنجو من سحر شاور لولا شىء كهذا ..

ـ حدثنا يا ابن أخى ماذا جرى ؟

ـ رأيته أول ما رأيته فى مجلس نور الدين .. وكان نورالدين يتحدث فغلط فى كلمة ثم عاد فصححها ، ووقعت عينى على شاور خلسة فرأيته وقد كسر احدى عينيه ازدراء وسخرية فكرهته منذ ذلك اليوم وارتبت فيه ..

فالتفت اليه أسد الدين متغاضبا : « هيه وتركنى أعتقد أن ذلك قوة فراسة عندك ! ؟ » ثم قال لأبى الفضل بعد أن سكت لحظة : « لكننى قسوت على الشاب يا أبا الفضل ، وما كان لى أن أفعل » .

ـ ما كان لك أن تفعل غير ذلك . انى والله لو أعلم أن عند شاور ذرة من الصدق والاخلاص لدخلت عندكم فأشرت عليكم بقبول ما عرض .

ـ ماذا تخاله يقصد من ورائه ؟

قال الحارمى : « الغدر لا ريب . يريد أن يغدر بك وأنت مطمئن اليه » .

فقال أبو الفضل : « بل يريد أكثر من ذلك .. يريد أن ينظر غدا فان رأى الريح معكم قام بما التزم لكم ، والا بقى على حاله مع الفرنج وانتحل أى عذر » .

قال أسد الدين متعجبا : « أى والله .. هذا ما فعله معنا فى بلبيس » .

وعاد شجاع الى أبيه حزينا كاسف البال ، فأخبره أن أسد الدين لم يقبل ، فأسرع شاور يقول : « ألم أقل لك يا شجاع ان أسد الدين يريد الانتقام منى لا غير ؟ ولكن لا بأس يا بنى ، أحسنت اذ ذهبت اليه ، فقد أبرأت ذمتى الى الله » .

قال شجاع مستعطفا : « ألا تستطيع يا سيدى أن تجد لك سبيلا آخر ، انك لذو حكمة وانك لحلال المشكلات » .

فأطرق شاور قليلا ثم قال : « سأنظر غدا لعل أسد الدين يعود فيقبل ونحن فى القتال حين يخشى الهزيمة ، فأمد يدى اليه وأنصره » ..

ـ ما أحسب ذلك ممكنا يا سيدى اذا احتدم اللقاء وولغت السيوف فى الدماء !

ــ اذن فذنبه على جنبه !

ــ ولكن أنت يا سيدى سيصمك الناس بالخيانة .

ــ لأن يصمنى الناس بالخيانة ، والله يعلم حسن نيتى ، خير لى من أن يحسبونى بطلا وأنا عند الله خائن ..

فسكت شجاع مليا كأنما ألقمه شاور حجرا ، ثم عاد فقال : « لكن لو أمكنك ارضاء الناس أيضا كان أفضل ، ألا تجد يا سيدى مخلصا من قتال هؤلاء المسلمين ؟ »

فغضب شاور حينئذ وقا لله : « ان شئت أن تقاتل معهم فاذهب اليهم . انى على يقين من أمرى ، والله مطلع على سرى ، فما أبالى ما يقول الناس ، ولا أبالى أن تكون أنتمعى أو على . سأعتبرنى قد فقدتك يوم فقدت طيئا وسليمان ، وكأن ضرغاما قد ذبح أبنائى الثلاثة ! »

فما لبث شجاع أن استعبر وقال : « كلا يا سيدى ، سأكون معك . حاشاى أن أتخلى عنك . والله يغفر لى ولك وللمسلمين جميعا » .

١١

بقى الناس أياما ينظرون الى المعسكرين ، قد وقفا متحاذيين لا يفصل بينهما الا النيل ، ولا يدرون متى أو كيف يلتحم القتال بينهما ، ثم لا يدرون كذلك لأيهما غدا يعقد لواء النصر . وهم يتوجهون الى الله بقلوبهم أن ينصر جيش أسد الدين على جيش شاور وحلفائه ، وان كانوا يشفقون ألا يستجاب لهم لما يرون من

التفاوت العظيم بين جيش القلة وجيش الكثرة ، وهم قاعدون عما أوجب الله عليهم من نصرة الحق على الباطل .

على أن كثيرا منهم ، ولا سيما من أهل الفسطاط ، قد غلبتهم الحمية فأنستهم مصالحهم الخاصة ومصالح ذويهم فى البر الشرقى ، فاختلستهم القوارب الى البر الغربى حيث انضموا الى جيش أسد الدين ، ليقوموا له بما يستطيعون من خدمة ، ويقدموا له ما يملكون من عون ، فأخذ المعسكر الغربى يتضخم بمن ينضمون اليه من المتطوعين .

وكان نعمان السقاء يتلقاهم ويقدمهم الى أسد الدين ، ثم يرتب كل واحد منهم فى العمل الذى يحسنه . أما أبو الفضل فقد بقى على حاله متنكرا ومختبئا عند أسد الدين يرشده ويشير عليه ، لا يظهر للناس ولا يعرف حقيقته فى المعسكر سوى أسد الدين والخاصة من رجاله .

وكان « مرى » وشاور يتوقعان فى أول الأمر أن يعبر أسد الدين النيل اليهما تحت ستار الليل بغتة ، ولا سيما اذ رأياه يعد القوارب والسفن على الشاطىء ولا يعلمان أنه قصد بذلك تضليلهما عن حقيقة خطته ، فلما طال بهما الانتظار ، ورأيا جماعات المتطوعين يتسللون الى البر الغربى ، قررا العبور بجيوشهما اليه لمعاجلته القتال ، فأخذا يعدان القوارب والسفن .

وبدأ أسد الدين يستعد للقائهم ، ولكن أبا الفضل أشار عليه أن ينسحب من وجوههم ويسير بجيشه صعدا صوب الجنوب ، فيستدرج شاور وحلفاءه الى أقصى الصعيد ، حتى يعلم من لم

يكن قد علم من أهل البلاد كيف انضم شاور الى أعدائهم ليقاتل معهم المسلمين •

وفرح شاور وحلفاؤه حين رأوا أسد الدين ينسحب ، وظنوا أنه قد خاف على جيشه القليل من كثرتهم ، فانبروا يعبرون النيل فى يسر وجذل اذ انكشف عنهم ما كانوا يتوقعون من صعوبة التعدية لو بقى جيش أسد الدين مكانه على الشاطىء الغربى •

وانطلقوا فى أثر أسد الدين مصعدين ، وأسد الدين ماض فى سيره صوب الجنوب ، والناس ينظرون الى جيشه ثم ينظرون الى جيوش شاور والفرنج ، فيقول بعضهم لبعض : « انظروا ماذا يفعل شاور ! »

وكان شجاع قد خرج مع أبيه متكارها كالمغلوب على أمره ، يتصفح وجوه الناس فى الطريق فيرى عيونهم تنظر اليهم شزرا ، فيهم فى كل حين أن ينقلب راجعا فلا يستطيع ، كأنما يحبسه حابس ، ويقول لنفسه فى كل مرة : « لعلى أستطيع اذا تقابل الجيشان أن أصنع شيئا ، فأقنع أبى أو أقنع أسد الدين ! »

ولكنه لما بلغ قريبا من البهنسا اذا جماعة يرددون هذين البيتين من بعيد ويترنمون بهما على لحن خاص :

قالوا : مرى أسلم قلنا : شاور كفر !
قالوا : غدا يهزم قلنا : ما له مفر !

وكان قد سمعهما من قبل فى القاهرة ، فهاله أن هذا اللحن قد انتشر فى البلاد بتلك السرعة ، فثارت شجونه ، وتعاظم ما به حتى كاد يسقط عن فرسه ولم يستطع مضيا ، فغافل والده فانسل من

جانب الجيش وصرف عنـان جواده تلقاء الشمال ، فكر راجعا يسابق الريح . ولم يعلم شاور بانقلاب ابنه الا بعد حين ، فأظهر قلة الاكتراث ، وقال : اتركوه فانه يشـكو صداعا ، فقلت له عد الى أهلك ...

وبصر « مرى » بما يبدى الناس من الكراهية والعداء ، فشكا ذلك الى شاور ، فقال له شاور : « لا عليك منهم ياصديقى الملك ، بعد غد نسمعهم يهتفون لنا فى طريقنا عائدين ، فأهل مصر دائما مع الغالب على المغلوب ! »

قال ذلك وهو يعلم أنه كاذب ، ولكن ليلقى السكينة فى قلب حليفه .

ورأى شجاع وسمع من الناس وهو عائدأكثر مما رأى وسمع وهو ذاهب فكأنما أحسوا بالأمن بعد أن مرجيش شاور وحلفائه، فانطلقت حناجرهم تردد ذلك اللحن فى استهزاء وسخرية :

قالوا : مرى أسـلم   قلنا : شـاور كفر !
قالوا : غـدا يهزم   قلنا : ما له مفـر !

فكان شجاع يشيح بوجهـه ويصم أذنيـه ، ويلهب جواده بالسوط ليضاعف من جريه ، حتى اذا وصل الى الجيزة رأى الناس يشيرون اليه كأنهم عرفوه ، ثم صاحوا بأعلى صوتهم يترنمون فى وجهه ليسمعوه :

قالوا : مرى أسـلم   قلنا : شـاور كفر !
قالوا : غـدا يهزم   قلنا : ما له مفـر !

فأعرض عنهم وتصامم حتى عبر الى القاهرة فسمع اللحن فى شوارعها أيضا ولكن بأصوات أقل جهرا مما سمع فى البحيرة •

وما أن وصل الى البيت حتى انطرح فى حجر أمه يبكى بكاء الطفل ودخلت سمية فانضمت الى أمه فجعلتا تواسيانه وتسريان عنـــه •

وكانتا تعلمان من قبل مايجول فى نفسه ،أما أمه فكانت تلومه على تشككه وتردده فى تأييد أبيه وتقول له : « ان أردت الخير والبركة ، فلا تتردد فى طاعة والدك »• وأما سمية فكانت تشاركه شـــعوره وتقاسمه آلامه وآماله ، دون أن تقول أطع والدك أو خالفه ، ولكنهما لما رأتاه قد رجع وهو على هذه الحال لم تقولا له : أحسنت أو أسأت ، بل اقتصرتا على مواساته والتسرية عنه•

حتى هدأ بعض جأشه فشرع هو يقص عليهما قصته من أولها الى آخرها ، فلما فرغ عادت أمه تلومه على ما فعل قائلة : « من كان يصدق ؟ ابن شاور يتخلى عن أبيه فى ساعة الحرب ؟ شاور سيد الرجال وأشجعهم وأفصحهم ، يعجز عن اقناع ابنه بأن يقاتل معه ؟ شاور الذى استطاع أن يطوى ملك الفرنج وجيوش الفرنج تحت ابطيه ! فعبر بهم البحر وقطع بهم البر ، لم يستطع أن يحكم ابنه الذى يعيش تحت سقف بيته ؟ ! »

فقال لهـــا شجاع : « بعض تقريعك يا أماه ، فلو شـــهدت ما شهدت من عيون الناس وألسنتهم ما قلت هذا الذى قلت » •

ــ الناس ؟ ما قيمة هؤلاء الناس يا مسكين ؟ لو بالى أبوك مما يقولون أو يفعلون لما بلغ المقام الرفيع الذى هو فيه •

ثم قالت له فى النهاية : « أما من جهة أمك يا شجاع فانها تحمد الله على أن عدت اليها سالما ، فكفى ماثكلت أخويك من قبل ، ولكنى آسى على أبيك ، كيف يقابل وجوه الرجال اذا سألوه : أين ذهب ابنك ؟
يا عينى عليك يا أبا سليمان ! »

أما سمية فقد ظلت صامتة طوال الوقت ، ولكنها لما خلت به بعد ذلك قالت له : « لا تبتئس يا حبيبى ، فما فعلت الا خيرا ، لقد أديت ما عليك لربك وللمسلمين ، فلما لم تبلغ ما تريد كرهت أن تغمس سيفك فى دمائهم ، فتركت الفريقين ليحكم الله بينهما وهو خير الحاكمين . »

فاستنار وجهه ، وكأنما أراد أن يزيده نورا فغيبه فى غدائر شعرها المتوهج وهو يقول : « سلمت لى يا سمية يا حبيبة الروح والقلب ، والله ما أدرى ماذا كنت أفعل لولاك ! »

وهكذا اطمأن ضميره الى صواب ما فعل ، ولكنه بقى فى قلق على مصير المعركة التى توشك أن تنشب بين الفريقين ، ولا يدرى على التحقيق لأيهما يتمنى فى قرارة نفسه النصر ، ففى أحدهما جيش المجاهدين فى سبيل الله وفى الآخر أبوه . يا لقسوة الأيام ! لم لا يكون أبوه الحبيب فى الجيش الحبيب ؟ ان شاور لم يزل فى رأيه مسكينا ظلمته المقادير ، فأسلمته الى أمور مشتبهة يخوضها وهو كاره . وقد قل رجاؤه الآن أن يصطلح أبوه وأسد الدين على عدوهما وعدو العرب والمسلمين ، فلم يبق له الا أن يأمل أهون الشرين وأخف الضررين : أن ينهزم فريق أبيه ، ويعود أبوه سالما

عسى أن يوفق فى المستقبل الى انتهاج السبيل الواضح ،فيرضى الله ويرضى الناس ،فابتهل الى الله داعيا أن يحقق له هذا الأمل اليسير

وكأنما شاء الله أن يستجيب دعوة هذا الشاب الصالح ، فاذا الأنباء ترد بعد أيام بأن الفريقين التقيا فى الصعيد الأعلى عند البابين ، فانجلت المعركة بانهزام جيوش شاور وحلفائه على كثرتهم وانتصار جيش أسد الدين على قلته ، فكانت آية تحدث عنها الناس طويلا فرحين متعجبين : كيف استطاع جيش قليل العدد والعدد أن يهزم أجناد مصر وجيوش الفرنج مجتمعين ؟ فأشاد بعضهم ببطولة أسد الدين ورجاله ، وذهب الآخرون الى أنها معجزة من السماء لا يد فيها لأهل الأرض ، وقد فاتهم جميعا أن أسد الدين لم ينتصر ببطولة رجاله ، وقوة ايمانهم فحسب ، ولا بملائكة أرسلها الله من السماء ، ولكن بملائكة أرسلها له من الأرض ؛ فقد كانت معه قلوب المصريين جميعا ، وبعض أيديهم فأتم الله له بذلك النصر .

وقد أدرك أسد الدين ورجاله هذه الحقيقة ، ولكن المصريين أنفسهم لم يدركوها .. يا ويح هذا الشعب ! لقد غفل عن تلك القوة الهائلة التى أودعها الله فيه ، فجعله قادرا أن ينصر من يشاء ، وان قل عددا وعدة ، ويهزم من يشاء وان كثر جمعا وتكامل قوة ، ولقد تمت المعجزة على يديه اليوم وهو لايدرى .. ترى ماذا كان يكون حاله لو وعى حقيقة نفسه ودرى ؟!

١٢

واذ أدرك أسد الدين ما لهذه القوة من عظم الأثر فى انتصاره فقد رأى أن يمضى فى استثارتها الى أقصى مداها ، فسير ابن أخيه صلاح الدين فى فرقة من جيشه ليتوجه شمالا صوب الاسكندرية، وسار هو بمن بقى من الجيش يتوغل فى أقصى الصعيد ، فكان الناس فى كل محلة يحيون أسد الدين الصاعد صوب الجنوب ، وصلاح الدين الهابط صوب الشمال ، حتى بلغ صلاح الدين الاسكندرية ، فاذا أهلها يفتحون له أبوابها على مصاريعها ويستقبلونه كأنه ابن من أبنائها ، قد خرج يقاتل العدو فى ميدان بعيد ، ثم رجع مظفرا على هامته أكاليل الغار .

وكان شاور وحلفاؤه قد رجعوا بفلول جيوشهم الى القاهرة حيث أقبل بعضهم على بعض يتلاومون .

قال « مرى » لشاور : « أتستطيع أن تشرح لى ياشاور كيف استحر القتل فى رجالنا دون رجالكم ؟ لقد قتل منا الألوف ولم يقتل منكم الا ألفان أو أقل ! »

فأجابه شاور قائلا : « يسأل عن هذا رجالكم أنفسهم » .

فغضب « مرى » واحتد قائلا : « أتريد أن تقول ان رجالك المزوقين كالعرائس أشجع من رجالى وأشد بطشا) »

فتضاحك شاور قائلا : « لا تسىء ياصديقى فهم قولى : لعل القتل كثر فى رجالك لأنهم أشجع والشجاعة قتالة » .

فهدأ « مرى » قليلا ثم قال له شاور : « أتدرى أيها الملك ما مثلى ومثلك الآن ؟ »

ــ قل ..

ــ مثلى ومثلك الآن كمثل تاجر واسع التجارة آحصى مافى يده من المـــال فبكى ولطم ونسى أمواله التى تحملها السفن فى البحر ، والقوافل فى البر ، ونسى الديون التى له عند العملاء ولو أحصاها لرقص طربا .

وكذلك أدركوا أن التلاوم على ما فات لا يجديهم نفعا وأن عليهم أن يستأنفوا أهبة القتال ، فان يكونوا قد خسروا معركة البابين أمس فانهم ما خسروا الحرب بعد ، وعسى أن يكسبوها غدا اذا نظموا الصفوف وأحكموا الخطط .

ونظروا فوجدوا أسد الدين فى الصعيد وصـــلاح الدين فى الاسكندرية فأجمعوا أمرهم على المســـير لقتال صـــلاح الدين واخراجه من الاسكندرية .

وكان شجاع قد استقبل أباه استقبال منتصر لا منهزم وقال له أول ما رآه : « الحمد لله يا سيدى اذ عدت الينا سالما » .

فأعرض عنه شاور ولم يرد عليه ، اذ خشى أن يغلبه الغضب فيصدر منه مالايجمل به أمام الناس ، فبقى كاظما غيظه حتى وصل الى البيت فانفجر :

ــ الحمد لله اذ عدت الينا سالما ! آتسخر بى أيها الولد العاق؟

فاضطرب شجاع وهو يقول : « كلا والله يا ســـــيدى .. معاذ الله ! »

ــ أفكنت تنتظر أن أحمل قتيلا اليك ؟

ــ ذاك ما دعوت الله ربى ألا يكون ..

ـ أنا لست جبانا مثلك !

ـ سامحك الله ياسيدى •• انك تعلم أن ابنك ليس كما ذكرت

ـ أجل •• أسد فى بلبيس ونعامة فى الصعيد •

ـ يا سيدى انك تعرف عذرى •••

ـ لا عذر لك فى التخلى عنى يوم اللقاء ••

ـ لم أجد لى نية فى قتال القوم فكفيتك نفسى فما ينبغى أن يكون بين رجالك متردد يورث الفشل ••

ـ لم تجد نية فى القتال معى •ولكنك وجدتها فى القتال خلافى!

ـ يا سيدى كنت أقاتل العدو يومذاك !

ـ عدو من ؟

ـ عدو البلاد •• عدو العرب والمسلمين ••

ـ وعدوى أنا •• ألا تقاتله معى ؟

ـ ليس أسد الدين عدوا لك يا سيدى ، وانما بينكما خلاف أرجو أن يزول فى المستقبل فتتحدا على العدو الحق ••

ـ ما شاء الله •• ما شاء الله •• لعلك تريد منى الساعة أن أذهب اليه فأركع أمامه ليقبلنى أسيرا عنده !

وهنـا غلب شجاعا البكاء ، فانسحب من وجه أبيه ، وأبوه يقول : « ابك اليوم كالنساء ! ليت أمك ولدتك جارية ! »

وأقبلت زبيدة على شاور تقول له : « دعه يا سيدى فكفى ما قرعته ووبخته وأنت تعرف حسن نيته » •

ـ زبيدة ان ابنك أصبح لى عدوا فى بيتى !

ـ حاشا لله يا سيدى ، وحياة رأسك انه ليحبك !

ــ الحب طاعة البنات ، وطاعة البنين العون والنصرة ..

ــ صدقت يا سيدى ، لعل الله اذ لم يرزقك بنتا تحنو عليك جعل لك حنانها فى قلب شجاع ، بحياتك سامحه من أجلى .

فسكت شاور قليلا ثم قال لها : « لو كانت هفوة منه يازبيدة لوهبتها له ولكنها لوثة متأصلة لافكاك له منها ولافكاك لى منه!

فقالت زبيدة والدمع يترقرق فى عينيها : « افعل يا سيدى ما ترى ، فأنت أغلى من كل غال عندى » .

ونظر شاور اليها فأدركته الرقة ، وقال : لا تبتئسى يا أم شجاع لك عندى ما تحبين وأكثر .. »

وسرت زبيدة اذ دعاها أم شجاع ، وعرفت أن شجاعا لم يزل غاليا عنده ، فقالت : « صانك الله يا أبا شجاع و لاحرمنا برك وعطفك » .

ونهض شاور من ساعته فالتمس ابنه فوجده فى حجرته كئيبا حزينا وعنده زوجته تواسيه ،فأقبل اليه فجذبه الى صدره وعانقه قائلا : « لا عليك يا بنى ، انى سامحتك وعفوت عنك » .

فانهمرت الدموع من عينى شجاع وهو يقول : «جعلت فداءك ياسيدى ، يعلم الله أن رضاك عنى بالدنيا وما فيها » .

وهكذا زال كل شيء بينه وبين أبيه وعاد الصفاء بينهما كما كان .

ولكن شجاعا لم يلبث أن علم بعزم القوم على السير الى صلاح الدين بالاسكندرية ،فعاوده همه وقلقه ، وهم أن يكلم أباه ليعدل عن عزمه ، ثم تراجع ليأسه من استجابته وخوفه أن يتجدد غضبه



فأقبل اليه فجذبه الى صدره وعانقه قائلا : « لا عليك يابنى .
انى سامحتك وعفوت عنك . »

عليه ، فماذا يصنع ؟ ان عليه أن يصنع شيئا ليحول دون انتصار الفرنج على جيش أسد الدين ، فليكتب الى أسد الدين ليسرع بنجدة ابن أخيه ، ولكن من ذا يحمل الكتاب الى الصعيد ؟ انه يخشى أن يطلع أبوه على سر الكتاب ، فيستوجب نقمته وغضبه ولن يسامحه بعد ذلك أبدا .

وكاشف سمية بما فى نفسه ، ولم يكاشف به أحدا سواها فقالت له : « اكتب الرسالة ولك على أن تصل الى أسد الدين بأسرع وقت دون أن تخشى انكشاف السر لأحد » .

ـ كيف يا سمية ؟

ـ عن طريق الفضل أخى ..

وكانت سمية قد علمت من أخيها أن أباهما فى جيش أسد الدين متنكرا لا يعرف حقيقته أحد ، ولكنها لم تخبر شجاعا بهذا السر لأن أخاها استحلفها أن تكتمه حتى عن زوجها .

وذهبت سمية لتزور بيت أخيها ، فحملت الرسالة معها اليه ، وأسرع الفضل فسلم الرسالة الى أحد جماعة أبيه ، فطار بها الى أبى الفضل عند أسد الدين .

وجاء يوم مسير شاور وحلفائه الى الاسكندرية، فعجب شاور حين رأى شجاعا قد استعد للمسير معهم ، فقال له : « اسمع يا بنى ان كنت تريد أن ترجع من نصف الطريق ، كما فعلت من قبل ، فاقعد هنا خيرا لى ولك . »

فأجابه شجاع قائلا : كلا ياسيدى لن أرجع من نصف الطريق ولن أتخلى عنك أبدا » .

ورأى شاور منه الجد والتصميم ، فتركه يمضى معه .

ولما وصلوا الى الاسكندرية ، عجزهم اقتحامها لبسالة أهلها فى الدفاع عنها مع جيش صلاح الدين ، فحاصروها من كل جانب، وكان ملك الفرنج قد أرسل الى قراصنته م بساحل الشام فأرسلوا سفنهم فى مياه الثغر يقطعون الطريق على كل سفينة تحمل الميرة الى أهله .

فتم تشديد الحصار عليها من البر والبحر ، ولكن أهلها أبدوا من الصبر والمصابرة والحمية والبسالة فى الدفاع ، ما أدهش صلاح الدين وذكره بأهل بلبيس وقال فى نفسه : «أمة بعضها من بعض ، لو لم يذلها حكامها الظالمون ! »

على أنه شهد فى أهل الاسكندرية ما لم يشهد فى أهل بلبيس من الخبرة بوسائل الدفاع والقدرة على اعدادها والمهارة فى اقامتها، ووجد بينهم زعيما شجاع القلب ، حكيم الرأى ، يتولى ديوان المدينة ويدعى الرشيد بن الزبير ، علم صلاح الدين أنه هو الذى جمع كلمتهم على نصرته ، ولكنه لم يعلم الا فيما بعد أنه من أصدقاء أبى الفضل ومن جماعته المصلحين .

وذهل المحاصرون اذ بلغهم أن أسد الدين قد طار من أعلى الصعيد الى القاهرة فحاصرها على من تخلف فيها من جنود شاور وجنود الفرنج .

وخشى شاور وحلفاؤه أن تسقط القاهرة فى يده ، اذ تركوها يوم تركوها دون استعداد لمثل هذا الحصار الذى لم يخطر لهم على بال ، وخافوا أيضا مما شهدوا من مقاومة أهل الاسكندرية

وتضامنهم مع صلاح الدين ، وما رأوا قبل ذلك من سخط الناس عليهم فى كل مكان ، فأشفقوا أن يحاط بهم من خلفهم ومن أمامهم وحار القوم ماذا يصنعون .

وهنا تقدم شجاع الى أبيه واقترح عليه أن يوفده الى أسد الدين ليعرض عليه الصلح بين الفريقين ، فوجد من أبيه اعراضا وتأبيا ، واتهمه بأنه ينظر الى مصلحة أسد الدين ، فقال له شجاع : « آنا لا أنكر يا سيدى أنى كنت أسعى أمس الى جمع كلمة المسلمين على أعدائهم الفرنج ، فلم ينجح مسعاى ، وحملت أسد الدين تبعة ذلك ، أما اليوم فانى لا أنظر الا الى مصلحتك قبل كل شىء ، أنتم هنا اليوم فى حال لاتحسدون عليها ، فانتهزوا هذه الفرصة قبل أن تسقط القاهرة فى يد أسد الدين فتحدثه نفسه بالمسير اليكم ، وقبل أن يعلم صلاح الدين بأن عمه قد وصل الى القاهرة فحاصرها فيتشدد ويرفض » .

وتعجب شاور مما سمع من ابنه من صواب الرأى وبعد النظر على خلاف ما عهد فيه ، ووجد فى حديثه من حرارة الاخلاص ، ما استحق عنده النظر والاهتمام ، وتذكر صلح بلبيس وما انتهى به من خروج الجيشين معا من أرض مصر ، فقال لنفسه : «لم لا يتم اليوم صلح كهذا ، فأتخلص من هؤلاء جميعا ؟ أليس هذا خيرا حتى من انتصارى مع الفرنج على جيش أسد الدين ؟ ما يدرينى حينئذ ماذا يصنع هؤلاء الفرنج معى ؟ ألا يحتمل أن يطمعوا فى البلاد فيجدونى عقبة فى طريقهم فيميلوا عنى الى العاضد فيوافق لهم على كل شىء ماداموا يضمنون له بقاء عرشه وذلك عندهم

حين يسير ؟ أجل لو كنت مكان «مرى» لفعلت ذلك ، فالعاضد هو الذى وقع الميثاق معه دونى • ويله ، لعله ما اقترح توقيع العاضد عليه الا لأنه كان ينوى أن يسلك هذا السبيل بعد أن يستعين بى فى هزم جيش نور الدين ؟

ولم يلبث شاور أن اقتنع برأى شجاع ، ولكنه لم يجرؤ أن يفاتح حليفه «مرى» فيه ، اذ خشى أن يظن به ظنا ، وهو يعلم أن «مرى» فى قلق شديد ، فلم لا يصبر حتى يفاتحه «مرى» فى الأمر من عنده ؟

وأبدى شـــارو مزيدا من القلق والتخوف ، وصار يلح على «مرى» أن يهاجموا الاسكندرية بأى ثمن قبل أن يعلم أهلهـــا بأن أسد الدين قد حاصر القاهرة فتقوى عزيمتهم على الاستماتة فى الدفاع •

فاعترض «مرى» على هذا الرأى وقال ان الاقدام على ذلك يعنى اليأس والانتحار :

ـ اذن فلنمض الى القاهرة لنقاتل أسد الدين •

ـ هذا أخطر علينا من ذاك •• فانا لا نعلم ماذا أعد أسد الدين هناك ، ثم لانأمن أن يطرد صلاح الدين فىأثرنا فنقع بين نارين •••

ـ قد اقترحت ماعندى •• فاقترح ما عندك •••

فأطرق «مرى» مليا ثم قال له : أخشى ألا يكون لنا مخرج من هذه الورطة الا الصلح • »

فأظهر شاور كراهيته لذلك فى أول الأمر ثم قال : « انكان

لابد من صلح فلنعجل به لنضمن لأنفسنا شروطا مرضية ، فاختر أحد رجالك لينطلق الى أسد الدين فيفاوضه فيه » •

ـ بل اختر أنت رجلا من قبلك ••

ـ انه يبغضنى ولا يطيقنى ••

ـ وهو يبغضنا نحن أكثر •

وبعد الأى وقع الاختيار على شجاع ، فانطلق فرحا يسابق الريح صوب العاصمة •

واكتشف شجاع بعد وصوله الى أسد الدين أن القيام بمهمته ليس هينا كما ظن ، فقد كان عليه لينجح فى اقنـــاع أسد الدين بقبول الصلح أن يكتم عنه ما يعانيه شاور وحلفاؤه من القلق والخوف ، وفى ذلك مشقة عليه اذ يشعر أنه يخون بذلك قضية العرب والمسلمين ، ولكنه عزى نفسه بأن أهل الاسكندرية أيضا فى ضيق وكرب قد يدفعانهم الى التسليم ، ولا سيما أنهم يجهلون حتى اليوم حصار أسد الدين للقاهرة •

ثم ان فى ما يطمع فيه من خلاص أبيه واحتمال صلاح الأمر بينه وبين نور الدين فى المستقبل ، وتفكيره بذلك عما تورط فيه من محالفة الفرنج حتى وصم نفسه بالخيانة عند الناس ، ما هون عنده كل ما يأتى فى هذا السبيل ، مهما يجد فى نفسه حرجا منـــه أو تأثما •

غير أنه وجد عند أسد الدين من الارتياح لفكرة الصلح ما أزال ما بقى فى نفسه من الشعور بالحرج فاطمأن قلبه وانشرح صدره •

فقد كان أسد الدين قبل مجيء شجاع قد شعر هو أيضا بحرج موقفه ، فان حصار القاهرة قد يطول وربما يضطر أهل الاسكندرية الى التسليم حين يشتد الضيق بهم من حصار البر والبحر ، وقبل أن تسلم القاهرة له فانها مازالت مليئة بالأقوات والذخائر ، واذا بدأ القوت يشح فيها ، فسيقع الضيق والجهد على أهلها قبل أن يقع على من فيها من جنود الفرنج وجنود شاور ، وسيفضي ذلك الى تذمرهم من فعل أسد الدين الذى ضرب الحصار على مدينتهم ، فتميل عنه القلوب التى كانت تميل اليه فيخسر بذلك القوة التى كانت من أكبر أسباب انتصاره • وهو حريص على تنمية هذه القوة ليعتمد عليها فى صراعه فى المستقبل ، اذ أيقن أن الصراع بينه وبين الفرنج فى مصر لا يمكن أن ينتهى فى هذه الجولة ، بل يحتاج الى جولة أو جولات أخرى يكون هو فيها أكثر جيشا وأقوى عدة ويكون شعب مصر أشد تحمسا له وأكثر استعدادا لمناصرته على العدو المشترك •

ومما زاده ترحيبا بالصلح أنه جاء على يد شجاع الذى كان له الفضل الأول فى تنبيهه الى الخطر وحثه على الاسراع لتداركه ، مؤثرا بذلك مصلحة العرب والمسلمين ، على مصلحة أبيه ، وأن شاور وحلفاءه هم الذين تقدموا بعرضه ، وذلك أفضل له وأكرم وأحرى أن ييسر له الحصول على شروط أفضل •

وكان أبو الفضل مختبئا خلف الخباء ، فسمع كل ما دار بين أسد الدين وشجاع ، كما فعل فى معسكر أطفيح ، ولكنه حين سمع نغمة الصدق والاخلاص فى صوت زوج ابنته ، وتذكر النذير

الذى تطوع بارساله الى أسد الدين ، وتذكر ابنته سمية ، وقد اشتد شوقه اليها بعد هذا الفراق الطويل ، لم يملك نفسه أن دخل الخباء وبسط ذراعيه لشجاع فاعتنقا فى شوق وحنان .

وفهم شجاع عند ذلك أين كان أبو الفضل وماذا كان يصنع ، فحمد الله على سلامته ، وتذكر زوجته سمية التى تنتظره الآن فى المدينة المحاصرة ، فهاجت شجونه وتشوق أن يتم الصلح بأسرع ما يكون .

ورجع شجاع يحمل البشرى الى أبيه ، وترددت الرسل بين الفريقين بعد ذلك ، ولم يلبث أن تم الصلح بينهما ، على نحو ماتم فى صلح بلبيس من وجوب جلاء الجيشين : جيش «مرى» وجيش أسد الدين عن أرض مصر الا أن «مرى» اشترط هذه المرة أن يجلو أسد الدين بجيشه أولا ثم يتلوه هو ، فقبل أسد الدين بعد اعتراض يسير .

ووقع «مرى» وأسد الدين وثيقة الصلح ، وكلاهما يكاتم الآخر مافى نفسه من العزم الأكيد على معاودة الكرة فى أقرب فرصة مواتية ، ولكن لغرض مختلف . أما «مرى» فليستولى على مصر ليتقوى بها على نور الدين ، وأما أسد الدين فليخلصها من وزيرها الخائن فيؤمنها من الوقوع فى أيدى الفرنج، ثم ليوقظ هذا البلد العظيم من سباته الطويل حتى تنطلق منه يوما كتائب التحرير وجحافل القوة والمجد ، فتعصف بالفرنج وتخرجهم من أرض الشام الى الأبد .

وفك الحصار عن الاسكندرية وعن القاهرة فى وقت واحد ،

فتنفس أهلهما الصعداء ، غير أن أهل الاسكندرية حزنوا لفراق صلاح الدين بعد ما عرفهم وعرفوه وأحبهم وأحبوه ، وجمعتهم به محنة الحصار وبزمالة الدفاع ، فشيعوه بقلوب مكلومة وعيون دامية .

أما أهل القاهرة فكانت عواطفهم مبهمة مختلطة ، فهم يحنون الى الاستقرار ويطمعون فى أن يسفر هذا الاتفاق الثلاثى عنه ويفضى اليه ، ولكنهم يرون أسد الدين يرحل بجيشه عائدا الى الشام ، من حيث يرون ملك الفرنج باقيا بعد بجيشه فى العاصمة وما حولها ، ولا يدرون ماذا هو صانع ، ثم يرون شاور قد رجع الى سلطانه مزهوا بما زعم أنه استطاع أن يجلى الجيشين معا ، فحفظ بذلك استقلال البلاد ، وكأنما لم يجن اثما ولم يرتكب خيانة ، اذ حالف الفرنج أعداء العرب والمسلمين فقاتل معهم العرب والمسلمين .

ولكن أهل الفسطاط لم تخدعهم المظاهر ، اذ كانوا على بصيرة من أمرهم ، فأدركوا أن شاور لم يصنع شيئا غير ما ارتكب من اثم الخيانة ، وأن الاتفاق الذى تم انما كان هدنة بين جيش الفرنج وجيش نور الدين ، وأن هذه الهدنة فى مصلحة الفرنج ، وأن التبعة فى ذلك على شاور ثم على العاضد ، وألا أمل فى خلاص البلاد ما بقى هذا فى الحكم ، وهذا على العرش .

وما لبثت الأيام القريبة أن جاءت بمصداق ما كانوا يعتقدون فهذا «مرى» بعد أن مكث أياما فى القاهرة جعل يطالب بتنفيذ الميثاق الذى وقعه العاضد ، فلما ذكره شاور بأن اتفاق الاسكندرية يجب ما قبله ويلغى كل ما سبقه ، أجابه «مرى» بأن الاتفاق انما ينسخ الجانب السياسى من الميثاق ولا شأن له بالجانب التجارى

عنه فهو باق كما كان ، وأنذره بأنه لن يبرح بجنوده البلاد حتى يضع ذلك موضع التنفيذ ، وأومأ له من طرف خفى بأنه انعارض فى ذلك فسيعتمد على العاضد دونه .

وكان العاضد قد أرسل يستدعى شاور اليه عقب فك الحصار عن القاهرة ليكرمه ويخلع عليه ، فلما جاء شاور الى القصر أحسن العاضد استقباله وأكرم مجلسه وأعرب له عن سروره لتوفيقه فى عقد هذا الصلح الذى بموجبه سيجلو الجيشان معا من أرض مصر ، فقال له شاور : «يسعدنى يا مولاى أنك راض عن وزيرك»

قال العاضد : « ليس كل الرضا يا شاور . »

فظن شاور أنه سيعتب عليه ما كان من اعراضه عنه وعدم الرجوع اليه فى شىء فقال : « انى معتذر الى مولاى ان حصل منى تقصير فى حقه . »

ــ كلا يا شاور انى لم أقصد ذلك ...

ــ فأى شىء قصدت يا مولاى ؟

ــ علام رضيتم ببقاء «مرى» بعد رحيل أسد الدين ؟

ــ اشترط «مرى» ذلك فقبل أسد الدين ..

ــ هذا حق من حقوقنا لا شأن لأسد الدين به .. وكان عليك أنت أن ترفض ..

ــ لم أشأ يامولاى أن أعطل ابرام الاتفاق من أجل شرط هين كهذا .

ــ ما يدريك يا شاور أنه شرط هين ؟ ألا تخشى اذا تخلف «مرى» بيننا أن يبدو له فيتمسك بالميثاق ...

ــ لا حق له فى ذلك ، فان صلح الاسكندرية قد جب كل ما سبقه .

ــ أجل ، ولكن فى الميثاق على ماأذكر شرط اتجاريا لاصلة له بالسياسة والحرب ، فأخشى أن يتمسك به ملك الفرنج .. فماذا أنت صانع ؟

وارتاب شاور عند ذلك فى غرض العاضد ، ولـكنه أخفى ارتيابه وقال : « حينئذ سأرى يامولاى ماذا أصنع » .

قال له العاضد : «ربما لاتقدرعلى رفضه وجنوده تحتل العاصمة»

فسكت شاور ولم يجب .

ومضى العاضد يقول : « لكن من يدرى لعل فى هذا الذى نكره اليوم ما ينعش حركة التجارة عندنا وينشر الرخاء فى الناس ، ماذا ترى فى ذلك يا شاور ؟

فأطرق شاور قليلا ثم قال : اذا اقتصر الأمر على ذلك فلا بأس ، ولكنا نخشى أن يكون ذلك قنطرة الى التدخل فى شؤوننا» .

وتنهد العاضد قائلا : «صدقت يا شاور . اسأل الله أن يقى بلادنا سوء المآل ، انى على كل حال مطمئن الى حكمتك وحسن سـياستك .

وقام العاضد فأخرج حلة سنية فخلعها على شاور .

وخرج شاور من عنده وهو يقول لنفسه «لابد أن «مرى» قد اتصل به وتواطأ معه .

فلما سمع من « مرى » هذا التلميح اليوم ، تأكد عنـده صدق ما ظن من قبل ، فلم يجد بدا من الموافقة .

وكان «مرى» قد جاء معه بطائفة من التجار ، فدعا شاور طائفة من تجار القاهرة ليجتمعوا بهؤلاء ، فيتدارسوا الوسائل والسبل ، لتنظيم التبادل التجارى بين مصر وبلادهم بالشام ، فلما

انتهــوا من ذلك ذهب « مرى » الى شــاور ، فقال له : انى سأترك حامية من جيشى فى القاهرة لحماية مصالحنا عندكم » •

فقال له شاور : هذه مصالح مشتركة بيننا وبينكم وسنحميها نحن لنا ولكم ، فان كنتم لاتثقون بنا فلا تعامل من غير ثقة • »

قال «مرى» : «نحن نثق بكم أنتم ، ولكنا فى حرب مع نور الدين ولا نأمن أن يرسل جيشه مرة أخرى لامتلاك مصر • »

وهم شاور أن يصر على المعارضة ، ولكنه ذكر العاضد ، وما يخشى من موافقته ، فسكت ووافق •

١٤

وكان شجاع قد فرح فرحا عظيما يوم تم عقد الصلح ، وفك حصار القاهرة فهرع الى بيته ليلقى سمية ويبشرها بأنه لقى أباها عند أسد الدين ، وأنه بخير وعافية وأن الأمان الذى اشترطه أسد الدين على شاور قد شمله فيمن شمل من أولئك الذين تطوعوا من أهل البلاد ، فانضموا الى معسكر أسد الدين أوقاموا بمناصرته ، وأنه آت للقائها عما قريب ، بعد أن ينتهى من توديع أسد الدين ورجاله •

وفرحت سمية بقرب لقاء أبيها ، فقد كانت فى شوق اليه بعد هذا الفراق الطويل ، وان كانت تعلم ما سوى ذلك مما بشرها به زوجها الذى لا يعلم أنها كانت تعلم من أمر أبيها ما يجهل • على أن فرحها لم يكن خالصا من شوائب الكدر والخوف ، فقلبها يحدثها بأن الذى بين أبيها وبين شاور أن يصف اليوم قليلا ، فريثما يتكدر مرة أخرى حينما تتلبد الغيوم من جديد •

ولكنها لم تشأ أن تفسد على زوجها ماهو فيــه من البهجة

والانشراح في ذلك اليوم الباسم من بين أيامه العابسات ، فكتمت مافى نفسها عنه وانبرت تقاسمه الفرح والابتهاج .

وطفق شجاع يحدثها عن آماله فى التوفيق بين أبيه ونور الدين واصلاح ذات بينهما حتى يتحدا معا ، ويتعاونا على جهاد الفرنج ، واخراجهم من بلاد الشام فيزول بذلك ما اتهم الناس به أباه من خيانة الدين والوطن ، فيما دفع اليه وأكره عليه من مصادقة الفرنج في الظاهر ، اذ حيل بينه وبين مصادقة أسد الدين بعد الذى كان منه فى بلبيس . وقال لها أنه سيستعين بأبيها فى هذا السبيل لما له عند أسد الدين من مكانة سامية ، ولما يربطه به من صداقة متينة شهد هو بعينه آياتها البينات .

وكتمت سمية أيضا مافى نفسها ، فجعلت تبدى له أنها تشاركه فى آماله العراض .

لله قلب سـمية ! ما أثقل ما ينوء به من الهموم والآلام ! ما كان أسعدها بزوجها ، وأسعده بها لولا أبوه ! وماكان أسعدهم جميعا لولا هذه الأحوال المضطربة التى تتقلب فيها البلاد !

وبلغ سرور شجاع ذروته حين تم التزاور بين أهله وأهل سمية ، فاجتمع شملهم بعد شتات ، وعاد التصافى بينهم بعد قطيعة وخصام . هاتان أمها وأمه تتحادثان فيما يعنيهما ، ومالا يعنيهما من الشؤون ، وهذان أبوها وأبوه يتناجيان فى صفاء وقد يتعاتبان قليلا ولكن لا يعدوان العتاب الجميل .

وما كان يهم شجاعا أن يسمع ماذا يقـولان ، فحسبه أنهما اليوم متوادان متصافيان ، وماكان يدرى وهو يراهما على هذه الحال من الصفاء ، ماذا كان يدور فى باطن كل منهما نحو صاحبه :

فأما شاور فقد أحس انه وحيد وأن الناس جميعا يكرهونه ويتهمونه، وأن مستقبله فى الحكم غير ثابت ولا مستقر ، فرأى أن يتودد الى أبى الفضل ليستعين بجاهه على اجتذاب قلوب النـاس اليه من جديد ولينتفع برأيه فى اجتياز هذه الفترة الدقيقة من فترات حكمه ، وهو بعد ذو قرابة ورحم ، فلا ينبغى أن تدوم القطيعة بينهما فنجور على من يلوذون بهما من الأهل والولد .

وأما أبو الفضل فكان قد تذاكر مع أسـد الدين طويلا فى قضية البلاد ومستقبلها قبيل ابرام صلح الاسكندرية ، وفيما يحتمل أن يحدث بعد جلاء أسد الدين بين الفرنج وشاور ، فاتفق رأيهما على اعتبار هذا الاتفاق هدنة مؤقتة فلا بأس من التساهل فيها مع شاور ومع الفرنج ، وأن عليهما أن يعملا على التمهيد للجولة التالية التى ينبغى أن تكون الفاصلة ، فتجتث الفساد اجتثاثا وتقبر مطامع الفرنج الى الأبد .

ومن ثم رأى أبو الفضل أن يغضى عن كل ما فعل شاور ، ويستأنف معه عهدا جديدا من المودة ليتمكن فى خلاله من العمل فى حرية ، واذا استطاع فى أثناء ذلك أن يرشده الى ما يصون حقوق البلا دمن أطماع الفرنج فذلك فضل خير .

وهكذا لم يكد شاور يقع فى المحنة عقب جلاء أسد الدين حينما تقدم اليه «مرى» بمطالبه فى تنفيذ الميثاق وابقاء حاميـة له فى القاهرة ، حتى وقف أبو الفضل بجانبه يشد أزره ويشير عليه .

ولا تسل عن فرح شجاع وسعادته حينما رأى أبا الفضـل لا يكاد يفارق أباه فى خلال تلك الأيام العصيبة يستشيره أبوه ويعمل بمشورته ، فقوى رجاؤه فى أن يصلح أبو الفضل بين أبيه

ونور الدين حتى يتحدا معا فى جهاد الفرنج • ولم يملك من شدة سروره أن فاتح أبا الفضل فى هذا المعنى فوعده أبو الفضل خيرا ، وقال له : «هذا غاية قصدى ياشجاع فعسى أن يعيننا والدك على تحقيقه» • وذهب شجاع الى أبيه فأخبره بما سمع من أبى الفضل، فسر شاور اذ قام ذلك دليلا عنده على اخلاص أبى الفضل فى الوقوف بجانبه حرصا منه على تحقيق هذا الهدف ، وقال لابنه : « من منا لا يرغب يابنى فى توحيد كلمة العرب والمسلمين على عدوهم ؟ »

وانطلق شجاع الى سمية فعانقها وهو يقول : « الآن ياحبيبتى اطمأن قلبى »

وكان أبو الفضل هو الذى أشار على شاور بالموافقة على مطالب الفرنج الى حين ، اذ خشى كما خشى شاور أن يميلوا عنه الى العاضد ، فينالوا من العاضد أكثر مما يطلبون ، فقد أيقن مما حدثه شاور عن مقابلته للعاضد أن للعاضد ضلعا فى الأمر ، ولكن أبا الفضل على حصافته لم يكن أحسن من شاور فهما لحقيقة غرض العاضد ، فقد ظنا معا أنه قصد أن تتم الموافقة على يديه تقربا الى ملك الفرنج ، وفاتهما أنه لم يقصد الا أن تجاب مطالب ملك الفرنج حتى يفيد هو من وجود حاميتهم فى العاصمة لضمان بقاء عرشه ، وحمايته من شاور ومن غيره •

وقد بلغ من حرص أبى الفضل على الاطلاع على كل مايجرى فى هذا الصدد أن سلك نفسه فى جملة التجار الذين اختيروا للتفاوض مع تجار الفرنج فكشف له ذلك أن معظمهم ليسوا فى الحقيقة تجارا ، وانما هم رجال محاربون فى صورة تجار ، فلم يبق عنده شك أن للقوم مآرب أخرى •

ولكن قضى الأمر فان مرى لم يغادر البلاد حين غادرها الا بعد أن ترك وراءه حامية كبيرة من رجاله ، احتلوا الحصون القائمة على أبواب القاهرة ، فصارت مقاليدها فى أيديهم .

١٥

واشتد سخط الناس لما رأوا أبواب عاصمتهم فى أيدى الفرنج يتحكمون فى الغادين منها والرائحين والداخلين اليها والخارجين ، وقالوا : « ماذا يبقى من استقلال بلد سلمت عاصمته للعدو ؟ وأخذوا ينحون باللائمة على شاور تارة وعلى العاضد أخرى ، بل ان منهم من ألقى التبعة فى ذلك على أسد الدين ، اذ رضى أن يرحل عن البلاد قبل رحيل الفرنج ، وكان عليه أن يصر على رحيلهم قبله أو فى الأقل على رحيل الجيشين معا فى وقت واحد . أهذا جزاء تأييدنا له وجهادنا معه ؟ وهل كان الفرنج يطمعون فى أكثر من هذا الذى أحرزوه ؟ علام اذن جاء البتة ليقاتلهم ؟ نحن لا نلوم شاور أو العاضد ، اذ ما كنا ننتظر منهما خيرا ولكن أسد الدين .. كيف يغرى الفرج بنا ثم يتركهم ؟

غير أن أهل القاهرة ما لبثوا على مر الأيام أن نقص سخطهم منذ بدأ تجار الفرنج يتوافدون على العاصمة بغير انقطاع ، فأخذت التجارة تنتعش فى أسواقهم ، وصاروا يحصلون على كثير من سلع الشام وفاكهتها بأسعار طيبة ، وصار تجارها يربحون كثيرا من تجارة تلك السلع ، ومن بيع سلع البلاد لتجار الفرنج ليصدروها الى بلادهم ولا سيما القمح والأرز .

ثم فشا هذا الشعور شيئا فشيئا فى سائر أهل مدن القطر وقراه ، اذ وجدوا شيئا من الرخاء يشيع فى أسواقهم بما يسحب

تجار القاهرة من سلعهم وغلالهم ليبيعوها لتجار الفرنج ، فحصل عندهم رواج بعد كساد .

ولكن أهل الفسطاط ظلوا وحدهم مقيمين على سخطهم ، ممتنعين عن شراء سلع الفرنج ، مانعين تجارهم من التعامل معهم في بيع أو شراء ، وقد يتجاوز أحدهم فيشتري من بعض الفاكهة لرخص سعرها فى القاهرة ويحملها الى الفسطاط فينكر جيرانه عليه ويشهرون به .

وأغري حب الربح نفرا من تجار الفسطاط ، فاجترءوا على عرض السلع المحرمة فى حوانيتهم ، فما مر يوم حتى ضربوا وأهينوا ونهبت حوانيتهم وحطمت تحطيما .

وبلغ الفرنج ماحدث فشكوا الي شاور واحتجوا عنده ، فقال لهم : « ماذا تريدون منى أن أصنع لأهل الفسطاط ؟ ليس فى وسعي أن أكرههم علي التعامل معكم فدعوهم واكتفوا بتجار القاهرة » .

فقالوا له : « ان لم تقدر أن تعاقب أولئك الذين اعتدوا على حوانيت عملائنا فيها ، فانا نحن نقدر علي ذلك » .

فحذرهم شاور وخوفهم من سوء العاقبة ، وحملهم تبعة ما يصيبهم ان أقدموا علي ذلك ، فلم يبالوا بتحذيره ، واستدعوا أولئك العملاء ليدلوهم على الأشخاص الذين اعتدوا عليهم ، فترددوا وخافوا وقالوا قد نزلنا عن حقنا فلا عليكم ،ولكن الفرنج أرغموهم على ذلك ، ثم انطلق فريق منهم شاكو السلاح ، فوثبوا علي بعض أولئك الأشخاص ، فأوسعوهم ضربا وجلدا ، حتي مات اثنان منهم وجرح الباقون .

فثارت ثائرة أهل الفسطاط ، وغلت الحمية فى نفوسهم ، وقالوا : والله لانسكت على هذا أبدا ولا ندع هؤلاء الشرذمة يستذلوننا ويتحكمون فى رقابنا ، ولنقاتلنهم ولنقاتلن أهل القاهرة ان وقفوا دونهم .

وطفق أبو الفضل يشجع هذه الحركة ، فى السر ، وانبث جماعته المصلحون يشبون نارها بين الناس ، ويتولون توجيههم وقيادتهم فيما يعملون ، وقد استطاعوا بارشاد أبى الفضل أن يوجهوا هذه الثورة العارمة بحيث تنصب على رؤوس الفرنج وحدهم دون أن تمس مقام شاور من قريب أو من بعيد خشية أن يحرجوا شاور ويضطروه الى الوقوف فى صف الفرنج . بل رجاء أن يجتذبوه الى الوقوف فى صفهم ان طوعا وان كرها بما يبثون فى الناس أن شاور غير مسؤول عما حدث من الفرنج وأنهم غلبوه على أمره ، وأنه فى السر يشجع الوثوب بهم والانتقام منهم ليتخلص من سيطرتهم عليه ، وأن المسئول هو العاضد لأنه هو الذى وقع الميثاق أمس ، ولم يوقعه شاور ، وهو اليوم يؤيدهم سرا ويأخذ بناصرهم ليحمى بهم عرشه من سخط الشعب .

ولم يكن فى ذلك مايجافى الحقيقة فقد تغير مابين شاور وبين الفرنج حقا ، فمالوا عنه الى العاضد منذ تردد شاور فى الموافقة على ماطالب به ملكهم مرى قبل رحيله ، ولم يرحل حتى رسم لهم سياسة التقرب الى العاضد والاعتماد عليه ، ومساعدته فى المستقبل على ازاحة شاور من كرسى الحكم ليجلس عليه من يرشحه العاضد لذلك كما كان ديدنه من قبل .

وقد صادف ذلك هوى فى نفس العاضد ، وأخذ يعمل من ذلك

الحين سرا على تنفيذ هذه السياسة ، ووقع اختياره على زعيم الخلافة ليكون وزيره المنتظر .

غير أن شاور كان محتملا أن يصانعهم ويصلح مابينه وبينهم لو لم يلتصق به أبو الفضل من أول الأمر فوقف بجانبه يؤيده ويشير عليه ، ويدعو الناس الى التغاضى عما سلف منه ، وارتقاب ماينتظر أن يقوم به فى المستقبل ، حتى بدأ الناس يعذرونه ويرضون عنه ، مما سر به شاور فلم يجد محيصا من الانسياق فى هـذا السبيل ، ولاسيما بعد أن شهد من قوة الشعب وعظيم أثره فى انتصار أسد الدين على جيوشه وجيوش الفرنج مجتمعة ، مازاده يقينا بألا بقاء له على كرسى الحكم مالم يكتسب رضا الشعب وثقته وتأييده .

وما شعر الفرنج الا بالغـارات تشن عليهم فى جنح الليـل والاغتيالات تتصيدهم فى وضح النهار ، من رهط ملثمين يتسللون تسلل النسيم ثم ينقضون انقضاض الصاعقة ثم يختفون اختفاء البرق .

وكذلك اغتيل كثير من الفرنج بأيدى المغـاوير من أهـل الفسطاط فوجدت جثثهم ملقاة على قوارع طرق العاصـمة ، أو اختطفوا فلم يوجد لهم أثر .

وأخذوا يطالبون شاور بالفدية كلما قتل واحد منهم أو فقد ، فكان شاور يعطيهم ما يريدون . وقد هم لما اشتد ذلك عليه أن يتعقب أولئك المغاوير ، فيضرب على أيديهم بدعوى حفظ الأمن والنظام ، لولا أن أبا الفضل نهاه عن ذلك وأقنعه بأن ذلك سيثير الناس عليه وقد بدءوا يرضون عنه فليدعهم .

ولم يكتف الفرنج بأخذ الفدية عن ضحاياهم بل أخذوا يسلكون

سبيل الانتقام من أهل الفسطاط خاصة ومن المصريين عامة . وقد استبد بهم الغضب والحنق ، فانفجر ما يبطنون فى أنفسهم من الحقد والضغينة على العرب والمسلمين فغشى على أبصارهم ، فلم يروا ما فى عملهم من اخلال بالسياسة التى رسمها ملكهم من وجوب المضى فى تضليل الشعب المصرى عن حقيقة ما يبيتون له.

وقد أغراهم أن عددهم قد تضاعف منذ رحل ملكهم بمن انضم اليهم من التجار الذين يفدون على العاصمة ثم ينقلبون جنودا محاربين يحتلون القلاع والحصون ، فأخذوا يتخطفون نساء الناس وبناتهم فى العاصمة وما حولها الى حصونهم وقلاعهم حتى اذا بلغوا من هتك أعراضهن ما يريدون استبقوهن فى خدمتهم أو أرسلوهن ليعدن ذليلات كسيرات الى أهليهن تشفيا وانتقاما .

وكانوا قد رسموا فى سياستهم من قبل أن يفرقوا بين المسلمين واخوانهم الاقباط بمختلف الوسائل وشتى السبل من اجتذاب قلوب الاقباط وايثارهم بالمصالح والمنافع وايغار صدورهم على اخوانهم المسلمين وتذكيرهم بأنهم واياهم على دين واحد وأن المسلمين جميعاأعداؤهم وأنهم قد جاءوا من بلادهم لانقاذالارض المقدسة من أيدى المسلمين ورفع لواء المسيحية فى ربوع الشرق ، فعليهم أن يكونوا معهم البا واحدا على أعدائهم المسلمين

ولكنهم كانوا يقابلون ممن اتصلوا بهم من الأقباط بالاعراض والازورار وربما جادلهم بعضهم كما وقع من زكريا ابن أبى المليح أحد وجهاء الاقباط وشعرائهم اذ تصدى لهم يوما ، فلما حاوروه ، قال لهم : « نحن جميعا مصريون، وهؤلاء اخواننا وبلادهم بلادنا والدين لا يفرقنا اذ نحترم دينهم ويحترمون ديننا وما أنتم بأحق

بنا منهم ، حتى الدين لا يجمعنا واياكم فان مذهبكم يختلف عن مذهبنا فليس يجمعنا بكم شيء .

فأرادوا اليوم أن يتوصلوا الى هدفهم هذا بطرق أخرى ، فأوعزوا الى بعض الخونة من صنائعهم ، فألقوا القاذورات فى بعض كنائس الفسطاط والقاهرة ليوهموا الاقباط أن ذلك من عمل اخوانهم المسلمين ، ثم ألقوا مثلها فى بعض مساجد المدينتين ليوهموا المسلمين أن ذلك من عمل اخوانهم الاقباط انتقاما مما وقع على كنائسهم .

وكاد هؤلاء الشياطين أن يبلغوا غرضهم ، اذ ثار الأقباط ثم ثار المسلمون فى كلتا المدينتين ، واشتبك فريق من هؤلاء بفريق من هؤلاء ، لولا أن ارتفع صوتان جهيران فى غمار هذه الفتنة المحتدمة بين أبناء الوطن الواحد ، فأصم دويهما الآذان فى أول الأمر حتى اذا أصغوا اليهما من خلال الفتنة العاوية سمعوا منهما فصل الخطاب ، فخشعت الأصوات ، وسكنت الجوارح ، وهدأت النفوس ، وثابت العقول .

قال أحد الصوتين فيما قال : أيها المسلمون المصريون ، ويلكم أين يذهب بعقولكم ؟ كيف تصدقون أن هذه القاذورات قد ألقيت فى مساجدكم بفعل اخوانكم الأقباط وعلى ملأ منهم ، اذن فصدقوا كذلك أن القاذورات قد ألقيت فى كنائسهم بفعلكم أنتم وعلى ملأ منكم ، تبصروا وتدبروا ثم أجيبونى : علام لم يقع هذا التلويث فى بيوت الله الا بعد أن جاء هؤلاء الأنجاس ، فلوثوا عاصمتكم بالرجس والعار ، وديثوها بالمذلة والصغار ؟ فان لم تفهموا ماوراء ذلك من العبرة فما أجدركم والله أن تكونوا أنتم الشياه وأن

يكونوا هم الجزارين قال الله تعالى : « ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين ! »

وقال صوت آخر فيما قال :

« أيها الأقباط المصريون أيها المسيحيون الصادقون ! كيف يضربكم الأعداء فتنتقموا من الاصدقاء ؟ انه ليس أبعد من تلويث اخوانكم المسلمين لكنائسكم الا تلويثكم أنتم لمساجدهم ! لقد عشنا فى هذا البلد الأمين قرونا وأحقابا ، فلم يقع قط مثل هذا الفعل الأثيم فى بيوت الله لا منكم ولا منهم ، وانما وقع اليوم بعد أن جاء هؤلاء المتوحشون ، فأذلوا الرجال وهتكوا أعراض النساء وارتكبوا ما يبرأ منه كل دين ، فما بالكم بالمسيحية دين المحبة والسلام . أما والمسيح الطهر لو لم يخطفوا غير أخواتكم المسلمات لوجب عليكم أن تثوروا لكرامتكم ، فكيف وهم لم يفرقوا فى انتقامهم وتشفيهم بين المسلمات والمسيحيات . ما أسرع ما تنسون ! وقد نسيتم صاحبكم برسوم الديروطى ، اذ رجعت اليه ابنته الوحيدة العذراء من حصونهم تجر ذيل العار فذبحها ثم انتحر ؟ اسألوا من اتصلوا به منكم ألم يحاولوا ايغار صدورهم على اخوانهم المسلمين ؟ فكيف غاب عنكم أنهم لما عجزوا عن التفرقة بينكم وبين اخوانكم عمدوا اليوم الى هذه الحيلة الوضيعة الآثمة؟ أتريدون أن تبحثوا عن الأيدى التى لوثت كنائسكم ، ومساجد اخوانكم ، فالتمسوها فى تلك القلاع والحصون ! »

أما الصوت الأول ، فصوت أبى الفضل الحريرى ! »

وأما الصوت الثانى ، فصوت زكريا ابن أبى المليح !

وكان أبوالفضل وابن أبى المليح قد تحريا قبل ذلك عن الجناة،

فأقروا لهما بأن الذى أوعز اليهم بتلويث الكنائس رجل من الأقباط يقال له ابن أبى حنش ، وأن الذى أوعز اليهم بتلويث المساجد رجل من المسلمين يدعى ابن المشهورة ، فأرسل أبو الفضل رجاله فأدركوهما وهما يحاولان الفرار الى حصون الفرنج بالقاهرة فجروهما وحبسوهما .

فلما انتهيا اليوم من خطبتيهما ، وهدأت الثائرة وخبت النائرة ، أخذا يشرحان للسامعين من الفريقين الحقيقة التى كشفا عنها ، ثم أرسلا فى طلب الخائنين فأحضرا وتعلقت العيون بوجهيهما الكاسفين

وصاح أبو الفضل : اقترحو اكيف نعاقب هذين الخائنين ! ؟

فصاح ابن أبى المليح : أرى أن يسلم ابن المشهورة الى المسلمين ويسلم ابن أبى حنش الى الأقباط !

فصاح الجميع موافقين .

وكان ذلك يوما مشهودا فى الفسطاط اذ شهد الناس ابن المشهورة ، وقد حفرت له حفرة فى أحد أحياء المدينة ، فألقى فيها فأخذا المسلمين يرجمونه بالحجارة حتى تمزق جسده وتقطعت أشلاؤه . ورأوا حفرة أخرى فى حى آخر قد اشتملت على ابن أبى حنش ، فأخذ الأقباط يرجمونه بالحجارة حتى تطاير مخه وتناثرت أعضاؤه .

وفرغ هؤلاء وهؤلاء من أداء واجبهم المقدس ، فهرعوا جميعا الى الميدان الكبير ، فاذا الأيدى تتصافح واذا الأذرع تتعانق ، واذا الصدور تتضام ، واذا الأرحام تحن الى الأرحام ، واذا دعواهم جميعا أن الحمد لله رب العالمين .

ثم انطلقوا يبحثون عن صاحبى الصوتين الهاربين ، فأخرجوهما

من بيوتهما فزفوهما فى شوارع المدينة محمولين على الاعناق فى موكب واحد ، ثم انقسم الموكب الى موكبين ، فاذا فى موكب الاقباط أبو الفضل محمولا على أكتافهم يطوفون به من كنيسة الى كنيسة ، واذا فى موكب المسلمين ابن أبى المليح محمولا على أكتافهم يطوفون به من مسجد الى مسجد .

١٦

وشهد شجاع هذا اليوم العظيم من أيام الفسطاط فطابت نفسه وقرت عينه ، وكان قد ألف فرقة فدائية من فتيان الفسطاط فصار يتردد اليها كل يوم ليدربهم على أعمال القتال الخاطف ، وينظم لهم الوسائل والخطط وكان أبو الفضل هو الذى اقترح عليه ذلك اذ قال له يوما : « كنت تقود فرقة الموت أمس ببلبيس ، فأحرى أن تؤلف مثلها اليوم من فتيان الفسطاط بعد ما احتل العدو العاصمة .

ـ هل أستأذن أبى فى ذلك أولا ؟

ـ هل استأذنته أمس ياشجاع حتى تستأذنه اليوم ؟ لا تحرج أباك بل فاجئه بانك قد فعلت ..

وعلم أبوه بعد ذلك فعاتبه على أن لم يستشره أولا فى ذلك ، فأجابه شجاع قائلا : « خشيت ياسيدى أن تشفق على ابنك فتمنعه وأنا لا أريد أن أعصى أمرك » .

وكان شاور قد كره ذلك خشية أن يخرج الامر من يده اذا اتسع الخرق عليه فيما بين الفرنج وأهل الفسطاط ، ولكنه لم يجرؤ أن يكاشف ابنه بذلك اذ أصبح يرى ابنه كالرقيب الذى فى ضميره يؤنبه على عمل السوء ونيته ويحاسبه حسابا عسيرا .

فقال له : اذن فاياك أن تغامر بحياتك يابنى فتصاب » .

ــ علام الخوف ياسيدى .. انها الشهادة .

ــ الشهادة لك والثكل لى ولامك .

ــ اطمئن ياسيدى فانما عملى فيهم التدريب والتنظيم ، وقلما أشترك معهم فى الهجمات .

قال ذلك شجاع ليطمئن قلب أبيه وهو لا يعنى ما يقول .

وهكذا ظل شجاع برهة يكتم عن أبيه حقيقة ما يقوم به مع فرقة المغاوير التى أطلق عليها فرقة الموت الى أن ضاق شاور يوما بكثرة ما يدفع للفرنج من فدية عن ضحاياهم فقرر الامتناع عن الدفع وقال لهم : « ان شئتم ألا تصابوا فامتنعوا عن الخروج من حصونكم » .

قالوا له : « انهم يشنون علينا الغارات على أبواب حصوننا » .

قال لهم : « ماذا أصنع لكم ؟ أنتم الذين بدأتم بالعدوان على الشعب » .

قالوا : « نحن هنا مقيمون بمقتضى الاتفاق ، فأنت مسؤول عما يصيبنا » .

قال لهم : « كلا لقد نقضتم الاتفاق اذ زدتم عدد الحامية فأصبحتم اليوم ألفا بعد أن كنتم مائتين وخمسين » .

فلما لم يجبهم الى طلبهم خرجوا من عنده غاضبين متوعدين .

وأدرك شاور ألا سبيل الى التراجع ، فأشاع هذا الخبر فى الناس فتحمسوا له ، وفوجىء شجاع ذات يوم بأبيه يقول له على انفراد : « كيف حال فرقة الموت ياشجاع ؟

ــ بخير حال ياسيدى .. يزدادون كل يوم عددا وقوة .

ـ أتقودهم أنت بنفسك ؟

فظن شجاع أن أباه قد اكتشف انه يشترك بنفسه فى هجمات الفرقة وأراد ان يوبخه على اخلاله بما وعـد ، فقال له : « نعم ياسيدى .. سامحنى اذ لم أستطع أن أبر بوعدى لك » .

وشد ما دهش شجاع اذ قال له أبوه : « بل أريد اليوم أن تقوم أنت بذلك » .

ثم كاشفه شاور بعزمه على أن ينزل بالفرنج ضربة مفاجئة حتى تكون منهم مقتلة عظيمة وقال له : « هل أستطيع أن أستعين بفرقتك فى ذلك ؟ » .

قال له شجاع وهو لا يكاد يصدق ما سمع من شدة الفرح : « كيف لا ياسيدى ؟ هذه فرقة الموت ولا عمل لها سوى هذا »

واختار شاور جماعة من رجاله الاشداء ليتفقوا مع فرقة الموت على خطة موحدة على أن يتولى قيادتهم شجاع ، فأخذ شجاع يعد العدة من يومئذ .

وأرسل شاور الى الفرنج ، فاعتذر لهم عما بدر منه من جافى القول، وأخبرهم بأنه سيعمل جهده على حفظ الامن والنظام وردع أولئك المغيرين حتى لا يضطر الى دفع الفدية للفرنج .

ففرحوا ظنا منهم أنه خاف من تهديدهم فأراد أن يصلح الامر بينه وبينهم ، ولكنهم لم يثقوا كل الثقة بما قال الا بعد ما رأوا الغارات والاغتيالات، قد أخذت تقل حتى انقطعت جملة، فاطمأنوا حينئذ وعادوا الى ما كانوا قد انقطعوا عنـه من اقامة حفـلات الشراب بين حصونهم فى ليالى الاحد .

وجاء عيد من أعيادهم ، فأقاموا حفل سمر استمر الى آخر الليل حيث شربوا وطربوا حتى سكروا ، واذا الفدائيون ومن معهم من رجال شاور ينقضون عليهم وهم لا يعون من فرط السكر، فأوسعوهم ضربا وطعنا وذبحا ، فلم ينج ممن حضروا الحفل منهم الا قليل ، وأحصى عدد قتلاهم فبلغوا أكثر من مائتين .

وأصبح الصباح واذا موجة من الحماسة قد سرت فى أهل القاهرة والفسطاط ثم امتدت الى سائر أقاليم البلاد ، وهتف الناس بحياة شاور بطل الجهاد ، ثم أخذوا يهتفون علنا بسقوط العاضد ، واتهامه بمصادقة الفرنج ليسندوا عرشه .

وحرج مركز العاضد وخشى المغبة ، فعقد مجلسا من دهاقين القصر وقرر على أثره أن يكتب رسالة سرية الى نور الدين يستنجد به من طغيان الفرنج المقيمين فى القاهرة ، ومما يخشى من عودة جيوشهم للانتقام لما وقع على اخوانهم من أيدى الشعب ، وقد رأى أن يبالغ فى ذلك ، فأخذ ذوائب من شعور نسائه فبعث بها مع رسالته الى نور الدين .

أما الفرنج فقد ملئوا رعبا بعد هذه الواقعة ، فانقبعوا فى حصونهم لا يبرحونها ليلا ولا نهارا ، وهم ينتظرون أن تقدم حملتهم للانتقام من المصريين . وكانوا يعلمون حين اجترءوا على شعب مصر بالبغى والعدوان أن ملكهم مرى يوشك أن يعود بحملته العظيمة المنتظرة ، فلما ذاقوا الويل من الغارات والاغتيالات تابعوا الرسائل اليه يستعجلونه القدوم حتى اذا كانت الواقعة أرسلوا اليه مستغيثين مستصرخين .

١٧

وأيقن شاور أن القوم آتون لا محالة فاستعد للقائهم ، وقد امتلأ اليوم أملا فى القدرة على صدهم لما وجد من حماسة الشعب وتأييده له، وزاده طمأنينة وقوف أبى الفضل بجانبه. وهو لايدرى أن أبا الفضل لم يستطع أن يثق به أو يطمئن اليه ، حتى بعد أن جهر شاور بعداء الفرنج وحتى بعد أن دبر لهم تلك المذبحة التى جعلته بطلا فى عيون الناس ، فظل يكاتب نور الدين سرا ، يطلعه على الاحوال ويستنجزه ما اتفق هو مع أسد الدين عليه . وكان شاور ربما يرتاب أحيانا بما يبطنه أبو الفضل لما يعلم من وثيق صلته بأسد الدين ، غير أنه لا يلبث أن يرى من اخلاص أبى الفضل فى مساعدته وتجميع قلوب الناس حوله ما يطرد الريبة من نفسه.

وأقبلت جموع الفرنج غزاة فاتحين هذه المرة ، فوصلوا الى بلبيس فانتقموا من أهلها خاصة أفظع انتقام، ثم أغاروا على الريف يقتلون وينهبون ولا يتركون شيئا الا استباحوه متشفين منتقمين.

ومما ضاعف حقدهم وحنقهم انهم وجدوا فى هذه المرة مقاومة من الناس فى كل مكان ، فصاروا يقتلون كل من بلغته أيديهم ، فلم يتركوا الشيوخ ولا النساء ولا الاطفال ، وارتكبوا من الفظائع ما تقشعر له الابدان وتنخلع له القلوب .

ولكن ذلك لم يزد الشعب الا اصرارا على الدفاع عن بلاده بكل ما يملك ، وتنادى بالجهاد فى سبيل الله ، فانتشرت الحركة فى كل مكان : فى الفسطاط وفى القاهرة وفى اسكندرية ، وسائر مدن القطر وقراه، الا أن حركة الجهاد تركزت قيادتها فى مدينة الفسطاط حتى كأنما صارت هى العاصمة مكان القاهرة .



وايقن شاور ان القوم آتون لا محالة فاستعد للقائهم ، وقد امتلأ اليوم أملا فى القدرة على صدهم لما وجد من حماسة الشعب وتأييده له

وفوجىء شارو بالعاضد قد أرسل فى استدعائه الى القصر ليقابله على انفراد ، فتردد شاور فى أول الامر خشية أن يغدر به ، ثم ذهب فى حشد من رجاله اليه . واستقبله العاضد وعلى وجهه دلائل الحزن الشديد ، فما ان خلا به حتى أسلم رأسه الى حجر شاور ، فطفق يبكى وينتحب كالطفل وهو يقول : « أغثنى ياشاور أدركنى ياشاور ! ليس لى سواك »

فعجب شاور وظن أن العاضد قد خشى أن يخلع ، فتوسل اليه ليبقيه فى العرش ، فقال له فى شيء من العطف والرثاء : « لا تخف يامولاى فلن يقع ما تكره »

فرفع العاضد رأسه قائلا : « قد جربنا مجيء رجال نور الدين ومجيء الفرنج ، فاستطعت أنت مشكورا أن تنقذ البلاد منهم وتصون استقلالها على كل حال ، وتحمى العرش ، أما هذا الذى أراه اليوم من انتقال الامر كله الى مدينة الفسطاط،فانه الكارثة.

ـ وأى بأس فى ذلك يا مولاى ؟

ـ أى بأس ؟ فى ذلك زوال ملك آبائى وأجدادى ، وسينتهى به حكمى وحكمك يا شاور .. فان أهل الفسطاط لن يخلصوا لنا أبدا ..

وكأنما نبه العاضد منه غافلا ، اذ اقتنع شاور فى الحال بما فى ذلك من خطر على حكم شاور نفسه ، ولاول مرة منذ زمن بعيد يخطر بذهنه أن مصيره ومصير العاضد واحد ، فقال له : « اطمئن يا مولاى فسأحول دون ما تخشاه » .

ـ ماذا أنت صانع ؟

فأطرق شاور قليلا ثم قال : « انى لا أستطيع أن أخبرك الآن

بشىء ، ولكن ثق يا مولاى أنى لن أدع الفسطاط تغلب القاهرة أبدا » ...

ـ لا أمان من ذلك ما ظلت قائمة تنافسها !

ـ كل هذا الامر الى يا مولاى .

ـ بوركت يا شاور .. انى والله لا أدرى كيف أشكرك .

وبينما كان أهل الفسطاط يعملون منهمكين فى اعداد وسائل الدفاع عن مدينتهم وقد استبد بهم شعور عجيب بأن مدينتهم هى الهدف الاول للعدو ، اذ نادى منادى شاور أن اتركوا مدينتكم وانتقلوا الى القاهرة ، فان الفسطاط ستحرق لئلا يحتلها العدو ويستولى على ما فيها من الذخائر ، وأن عجلوا اليوم بحمل ما تقدرون من أمتعتكم وأموالكم ، فسيشرع فى حرقها عشية غده

وذهل أهل الفسطاط لما سمعوا ، فاضطرب أمرهم ، واختلفاو ، فمن قائل : نطيع أمر شاور ، ومن قائل : كلا لا نترك مدينتنا لقول أحد ، هذا سوء تدبير بل خيانة .

وانطلق أبو الفضل الى شاور فصاح فى وجهه : « ماذا فعلت ؟ كيف تحرق الفسطاط وهى قلعة الدفاع الاولى ، وقاعدة الجهاد الكبرى ؟

فأجابه شاور فى تصميم : « أجل يا أبا الفضل ، ومن أجل ذلك لن أدع العدو يستولى على ذخائرها وأموالها ، فيمتنع فيها فلا نقدر عليه »

ـ ويلك ان أهلها سيقاتلون دونها حتى آخر رجل .

ـ فلينتقلوا الى القاهرة وليقاتلوا دونها مع أهلها ، فانى لا أريد أن تتفرق قوتهم .

ـ ويلك ان كان لا بد من ذلك ، فمر أهل القاهرة ينتقلوا الى الفسطاط ثم أحرقها ان شئت .

ـ كلا هذا لا يكون .. ان القاهرة هي العاصمة . وقد أصدرت أمرى . فلا سبيل الى الرجوع عنه !

أصدرت أمرك دون أن تستشير أحدا !

ـ بلى قد استشرت

ـ انك لم تستشرنى

ـ ليس على أن أستشيرك فيما لا خبرة لك به من شئون الحرب .

فاستشاط أبو الفضل غضبا ، وهو يقول : « بل فعلتها ياشاور ولتندمن غدا » .

ـ التبعة على لا عليك ..

ويئس أبو الفضل من اقناعه فخرج غاضبا ، وانطلق راجعا الى الفسطاط فوجد أهلها فى غمرة حماستهم لقتال الفرنج ، والرعب الذى استولى عليهم من الفظائع التى ارتكبوها فى الريف ، والثقة التى بقيت لهم فى شاور ، قد بدءوا يخلون بيوتهم ، ويحملون أهليهم وأموالهم وأمتعتهم صوب القاهرة ، فأدرك ألا سبيل الى اقناعهم بالبقاء ورأى ما فى الخروج على أمر شاور فى هذا الوقت العصيب من الخطر على الجميع ، فكف عما اعتزمه من المعارضة والانكار ، بل أخذ يشجع الناس بنفسه على الانتقال ويحرضهم على التعجيل والاسراع .

وأعد شاور عشرين ألف قارورة من النفط وعشرة آلاف مشعل نار ثم أرسل بها الى الفسطاط موزعة على أحيائها ، فما غربت شمس ذلك اليوم الذى أنذرهم به حتى اشتعلت النار فى كل مكان

وارتفع لهبها ، ودخان حريقها الى عنان السماء ، وأخذت المدينة تتوهج من بعيد كأنها قطعة من جهنم ، وأضاءت ما حولها ، فكأن الشمس ما غربت عنه بعد .

ووقف أهلها المساكين والحسرة تعتلج فى قلوبهم والدموع تسح من مآقيهم ، ينظرون الى ذاك الذى أمسى كتلة من نار ، وكان حتى عصر يومهم هذا مدينة عظيمة مجيدة تضم أنفس ما يملكون من متاع وأغلى ما يصونون من ذكريات ، ففيها مساقط رؤوسهم ورؤوس آبائهم ، وفيها ملاعب صباهم ومسارح لهوهم فى أيام الشباب ، ومواطن تبتلهم فى عهد الشيخوخة ، موصولة بما سطر التاريخ على أديمها من آيات المجد التليد والطريف ، وبما يتضوع فى جوها من أنفاس الصحابة والتابعين ومن تلاهم من الائمة المجتهدين .

وكانوا قد أزعجوا فى النقلة ، وأعجلوا فيها ، فترك أكثرهم أموالهم وأثقالهم لينجوا بأنفسهم وعيالهم ، وماجوا واضطربوا كأنما خرجوا من قبورهم فى المحشر ، فاستبقوا ليجوزوا الصراط الى القاهرة !

واستحال الطريق نهرا ينبع من الفسطاط ويصب فى القاهرة ، ويسيل بأفواج البشر من كبار وصغار وذكور واناث ومن ماشين وراكبين وحاملين على ظهورهم ومحمولين على ظهور غيرهم .

وكأى من شاب عجز أبوه الشيخ أو أمه العجوز عن مواصلة السعى فالقى المتاع الذى على ظهره ليحمل أمه أو أباه .

وكأى من دابة حملت فوق ما تطيق فبركت فى وسط الطريق ، فوقف صاحبها حائرا لا يدرى ماذا يأخذ من حملها وماذا يدع .

ورب طفل انفصل عن والدته فى كظة الزحام ، فطفقت تناديه باكية مولولة ، تتلفت يمنة ويسرة ولا تستطيع أن تبحث عنه وراءها لئلا يجرفها الزحام .

وقليل من أهل الفسطاط من تمكنوا من حمل أموالهم ونقل متاعهم ممن وجدوا الدواب أو استطاعوا اكتراءها ، فقد بلغ كراء الدابة من الفسطاط الى القاهرة بضعة عشر دينارا وكراء الجمل ثلاثين .

ثم قليل منهم من استطاعوا أن يجدوا دورا يسكنونها فى القاهرة ، أما أكثرهم فقد كان أسعدهم حظا من سبقوا الى المساجد والحمامات ، فتكأكأوا فيها بعضهم على بعض ، وما وجد الباقون غير الازقة والطرقات ، فتسابقوا عليها وتنافسوا فيها حتى غصت بهم القاهرة فصارت كأنها خلية من خلايا النحل أو بيت من بيوت النمل

١٨

وأقبل الفرنج ميممين صوب الفسطاط ، فقد جعلوها هدفهم الاول لما بلغهم أن القوة التى يخافونها قد تركزت هناك ، فاذا استطاعوا القضاء عليها سهل عليهم ما بعد ذلك . ولذلك قرر ملكهم مرى أن ينقضوا على هذه القوة الشعبية أولا ، وأن يتجنبوا الالتحام مع جنود شاور ما أمكن ، فربما ينجحون فى التفاوض معه أو مع الخليفة نفسه بعد أن يقضوا على القاعدة العظمى لقوة المقاومة الشعبية التى قاسوا منها فى طريقهم عبر الريف فيضمنوا بعد ذلك أن أسد الدين لن يجد سندا له اذا عاد ، فقد أدركوا أنه لا العاضد ولا شاور يحتمل مختارا وجود أسد الدين فى مصر .

فما راعهم وهم منطلقون فى طريقهم الا دخان عظيم يتعالى فى أفق السماء من بعيد فوقفوا برهة متعجبين ، ثم واصلوا مسيرهم فاذا نيران تشتعل وتمتد ألسنتها الهائلة الى عنان السماء ، فوقفوا مرة أخرى مبهوتين، وجعلوا يتأملونها ويقدرون موضعها، فادركوا أنها صاعدة من حيث تقوم مدينة الفسطاط ، ولكنهم لم يتيقنوا من ذلك حتى صاروا منها على أميـال ، فرأوا أن ينزلوا (بركة الحبش) ريثما يعرفون سر هذا الحريق الكبير ، ويرون ما يكون من الامر .

وتشاور مرى مع رجاله ، فاتفقوا على أنه لا معدى من أحد أمرين لا ثالث لهما ، فاما أن يكون شاور قد أخطأ فى تدبيره من الناحية الحربية فظن أن حريق الفسطاط هو الخطة المثلى لصد عدوه ومدافعته ، وما أن يكون قد قصد القضاء على هذه القـوة الشعبية التى تركزت فى الفسطاط خشية أن تغلبـه على أمره فى المستقبل أو تكون عونا لجيش نور الدين عليه ، كما كانت من قبل .

وقد رجـح مرى هذا الامر الثانى من طول خبرته بشـاور ومعرفته لخباياه فما لبث أن تقـدم بجموعه صوب القاهـرة ، فطوقوها . وقد وثقوا أن النصر قد صار مضمونا لهم ، فضربوا خيامهم حول العاصمة على هينتهم وأقاموا فيها مطمئنين . وأصبح قصارى خوفهم أن يجيء جيش نور الدين من الشام ولكن أين جيش نور الدين ؟ لن يصل اليهم اذا جاء الا بعد أن تسلم القاهرة لهم ، فيدخلوها ويقيموا فيها ممتعين .

ولكن طمأنينتهم لم تدم طويلا ، فما لبث فرقة الموت من فتيان



فما راعهم وهم منطلقون في طريقهم الا دخان عظيم يتعالى في أفق السماء من بعيد فوقفوا برهة متعجبين ، ثم واصلوا مسيرهم فاذا نيران تشتعل وتمتد ألسنتها الهائلة الى عنان السماء

الفسطاط ومن انضم اليهم من غيرها أن نشطت من جديد . فأخذ أبطالها المغاوير يغيرون تحت ستار الليل على خيام الفرنج فيصيبون من يصيبون ثم يختفون كالاشباح •

وبقيت النار تشتعل فى الفسطاط أربعة وخمسين يوما ، ثم أخذت تخبو بعد أن صارت المدينة رمادا •

ولكن القاهرة بقيت تحت الحصار تصلى نارا وقودها الارواح والابدان لا السقوف والجدران ، ثم لا يستحيل وقودها الى رماد بل الى رمم ذات نتن وفساد ! هاهم أولاء أهلها قد تناهى بهم الخطب واشتد عليهم الكرب وفشا فيهم الجوع والموت ولا سيما فى اللاجئين واللاجئات من أهل الفسطاط الذين تغص بهم الازقة والطرقات • وكانوا فى أول الامر يتبلغون بما يأتيهم من صدقات المحسنين فأخذت تقل تلك الصدقات حتى انقطعت أو كادت ، فصاروا يجأرون بالشكوى ، ويمشون جماعات جماعات يجوبون الشوارع ويسبون شاور ويلعنونه ، ويتهمونه بالخيانة والغدر ، وكل ما تنطلق به ألسنتهم من قبيح النعوت والصفات •

وضاق شاور بأمرهم لا يدرى ماذا يصنع بهم ، كما ضاق باختلال الامن فى المدينة اذ كثرت جرائم القتل وحوادث السرقة والسطو على المنازل فأدرك ألا صبر على هذه الحال ، وألا بد من التماس مخرج قبل أن يقع ما لا تحمد عقباه فأخذ أياما يفكر ويقدر •

وكان يعلم أن مرى قد بدأ يضيق من طول الحصار ، وأن الاشاعة التى أطلقها شاور عن قرب قدوم أسد الدين قد أحدثت أثرها فيه وفى رجاله ، فضلا على غارات الليل التى يشنها عليهم الفدائيون ، فرأى أن ينتفع بهذا كله فى عرض الصلح عليه واقناعه

به مع وعده باطلاق الاسرى الذين كانوا من حاميته فى العاصمة من قبل ومع اطماعه فى مال عظيم يؤديه له اذا قبل الصلح ومغادرة البلاد •

فكتب رسالة الى مرى رميت اليه من سور المدينة ، فجاء الرد منه بقبول التفاوض فى ذلك • وهم شاور أن يخرج بنفسه اليه ، ليتمكن من اقناعه بفصاحته وقوة حجته ، ولكنه خشى من غدره ، فاكتفى بارسال القاضى الفاضل بعد أن لقنه ما ينبغى أن يحاور به ملك الفرنج• وناهيك بالقاضى الفاضل ذكاء وفصاحه، ولكنه أيقن بعد أن استمع الى توجيه شاور أنه ما كان ليقدر أن يبلغ الغاية فى أداء مهمته لو لم يقتبس من بيان شاور ونصاعة حجته حتى سأل نفسه وهو فى طريقه الى ملك الفرنج : « ماذا يكون حاله لو رزق مع براعته فى الكتابة والانشاء ما عند شاور من بلاغة القول وقوة الاقناع » ثم استطرد يقول لنفسه : « ماذا يكون حال شاور هذا وهو ما هو فى الدهاء والفطنة والكرم والشجاعة وقوة الشكيمة مع هذا البيان الساحر ، لو رزق الاخلاص لدينه ووطنه ؟ اذن لكان اليوم رجل العرب غير مدافع •

ونجح القاضى الفاضل فى مهمته ، فتم الصلح على ألف ألف دينار يأخذها مرى وينسحب من البلاد • وقد سلمت له مائة ألف دينار فى الحال وأجل الباقى حتى يتمكن شاور من جمعه بعد فك حصار القاهرة ، وانسحاب مرى بجيشه من حولها ليعسكر بهم على فراسخ من جنوب الفسطاط الى أن يقبض الباقى فيغادر مصر •

ولكن مرى لم يقم طويلا فى معسكره هناك ، اذ بلغه أن أسد الدين قد أقبل فى جيش كبير لا يقل عن ستة آلاف فارس ، وحملة

كاملة العدة فأيقن ألا قبل له بملاقاته بعد ما شهد من ازدياد مقاومة الشعب للفرنج ، وميله الى أسد الدين ، فقرر مغادرة مصر على الفور دون انتظار بقية المال الذى له ، واكتفى بأن كتب الى شاور يخبره بأنه قد عجل بالرحيل الى بلده ثقة منه بأن شاور سيرسل اليه ما بقى من مال الصلح ، فسلم شاور للرسول جوابا يشكر له فيه حسن ثقتـه ، ويؤكد له أنه سيفى بما عليه فى أقـرب وقت مستطاع .

وكان شجاع ابنه حاضرا فسأله : « هل تنوى يا سيدى أن تفى له بذلك حقا ؟ فأجابه شاور قائلا : « ويحك يا شجاع ما أطيب قلبك » !

وكان شجاع قد أنكر على ابيه حريق الفسطاط ، واعتبر ذلك ذلة لا تغتفر وسوء تدبير لا مبرر له ، الا أنه لم يبلغ به ذلك الى حد اتهامه بالخيانة ، فكل ما أخذ عليه أنه استبد برأيه فى هـذا الامر الخطير ، ولم يراع ما ينتج عنه من الكوارث والويلات لاهل المدينـة المنكوبة ، ولم ينظـر بعين الاعتبـار الى ما كان عليه أهلها من الحمية واليقظة، وما أعدوه فى مدينتهم من أسباب القوة، ووسائل الدفاع ، فكانت أحرى لو لم تأكلها النار ، أن تكون عونا له فى صد العدو ومقاومته وتعطيل تقدمـه ، ولكنها زلة جديدة أوقعه فيها غلوه فى الاعتداد برأيه ، وعدم مبالاته بما يقول الناس غدا عنه . وعلى شجاع وحده أن يخجل عن أبيه من سـوء فعل أبيه،ويتجرع غصص المذلة والهوان مما يسمع من كلام الناس فيه.

أواه .. أكلما بدأ الناس يرضون عنه ، ويحمدون له حسنة من حسناته أو مأثرة من مآثره ، أو عملا مجيدا من أعماله ، بحث عن

سيئة جـديدة فتطوع بارتكابها ليحبط بها كل ما فعل من خـير وكسب من فضل ؟

ان الذى يحير عقله أن أباه ليس ضعيف الرأى ولا قصير النظر ولا قليل البصر بالامور ، بل هو موف على الغايه فى ذلك كله ، فكيف .. كيف بالله يقع فى مثل هذه السقطات الواضحة التى لا يقع فيها حتى ذوو الرأى الضعيف ، والنظر القصير ، والبصر القليل بالامور ؟

ثم انه قد اصطلح مع أبى الفضل فعاد ما بينهما من المودة ، ووقف أبو الفضل بجانبه مؤيدا له ومنافحا عنه وداعيا اليه، وصار أبوه يستشيره فى الجليل والحقير من الامور ، فواعجبا كيف لم يستشره فى هذا الامر الخطير الذى لا يدانيه فى خطره أمر ؟ بل وا أسفاه أن نبهه أبو الفضل فلم ينتبه وحذره ونذره ، فلم يبأل بالتحذير والانذار .

ولم يستطع شجاع أن يخفى عن أبيـه استياءه من عمـله ، فغاضبه على شدة حبه له ، حتى كاد لا يكلمه ولا يجلس اليه ، ولكن شاور يمضى فى سبيله لا يلوى على شىء كأنما لا يعنيه غضب ابنه الوحيد ولا حزنه ولا اغتمامه فى شىء .

وكان يكون الامر أهون على شجاع لولا دخول أمه بينه وبين أبيه ، فلا تكاد تؤنس منه أى ازورار عن أبيه أو عتب عليه حتى تبادر بلومه وتعنيفه ، دون أن تسأل عن سبب أو تستمع الى عذر، بل تقول دائما : ان أردت الخير والبركة فانزل على رأى أبيك وابتغ رضاه واتق اغضابه .

فما وسع شجاعا الا طاعتها ، فاسترضى أباه فى الظاهر ليرضيها،

ولكنه صار يتجنب لقاءه فى البيت جهد ما يستطيع . ووجد فى الطواف على اللاجئين من أهل الفسطاط لمواساتهم وعونهم وتفقد حاجاتهم وقضاء ما يقدر منها عذرا يتعلل به فى الغياب عن البيت طوال النهار وشطرا من الليل .

وكانت سمية تشعر بما يكابد زوجها فترق له وتحنو عليه ، ولكنها لا تنطق بشيء ، ولا تدخل فيما بين زوجها وبين أبيه أو أمه ، خشية أن تزيد بذلك همه واساه . وقد فات هذه الزوجة المحبة الوفية أن زوجها الذى لا يقل عنها صدق حب ورقة شعور، يدرك ما تعانيه هى من جرائه ، ويقدر المعنى الذى تصمت من أجله عن مساءلته فى خطبه، فيزداد من أجلها أسى على أسى وهما على هم .

ولما رأى الفرنج قد شرعوا فى حصار القاهرة ، أحس كأنما وجد المهرب من ذلك الحرج الذى يعانيه من جهة أبيه ، فترك له كتابا فى البيت يخبره عن نيته وغايته ، ثم تسلل من المدينة مع رفاقه من فرقة الموت ، قبل أن يتم حصارها بقليل ، ليتمكنوا من شن الغارات على الفرنج من خلفهم ، ودعوة غيرهم من فتيان القرى التى حولها للانضمام الى فرقتهم متطوعين مجاهدين .

فكان شجاع وهو يعمل فى هذا السبيل يشعر كأنما عليه أن يكفر عن السيئة التى ارتكبها أبوه ، فيبدى من المغامرة بحياته ، ما يبلغ حد التهور فى كثير من الاحايين .

ثم لما فك الحصار عن القاهرة ، وانسحب الفرنج بعيدا عنها ، أعجبه ما صنع أبوه ، فطار فرحا اليه ، واعتنقه وقبل رأسه مثنيا على حسن تدبيره ولطف حيلته ، ثم جعل يعتذر اليه عما كان من خروجه بغير اذن منه ، فسر شاور من فعله ، وقال له ضاحكا :

« ويحك يابنى ألم تعلم أن العمل الذى قمتم به أنت ورفاقك كان من أكبر ما أعاننى فى اقناع مرى بقبول الصلح ؟

وحينما وردت الأنباء بقدوم أسد الدين ، أبدى شجاع من الفرح والاستبشار ما أحرج صدر أبيه ، وأخرجه من حلمه ، فصاح فى وجهه : « اقتصد ويلك يالك من ولد قليل البر ، أتقعد فى الظل وتترك أباك قائما وحده فى الشمس » ؟

وكانت بديهة شاور هذه أسرع على شجاع من أن يتابعها فى الحال ، فسكت غير طويل ثم قال مجاريا والده فى كنايته : بل سنقعد يا سيدى جميعا فى الظل

ـ هيهات .. ان أسد الدين يريد أن ينزع العمامة التى تقى رأسى ضربة الشمس ! أو قد نسيت عداوته لى ؟

ـ ماعاداك الا من أجل الفرنج .. أما وقد صارحتهم العداء ، وأنزلت بحاميتهم تلك الواقعـة ، ثم دافعت جيش مرى حتى استطعت أن تجليه بحيلتك ، فلن يجد أسد الدين من سبب لمعاداتك

ـ لكنه سيجد أسبابا للبقاء فى مصر ..

قال له شجاع : « ما عليك ياسيدى الا أن تحسن لقاءه ، فتعيد الى نفسه الثقة ثم تعقد معه ميثاقا على التعاون فى جهاد الفرنج ، فسيعود حينئذ الى بلده » .

وقد شك شاور فى قبول أسد الدين ذلك منه ، الا أنه ارتاح على كل حال لهذا الرأى الذى جرى على لسان ابنه ، فقال لنفسه : ليس أمامى اليوم غير هذا السبيل »

وكان أهل القاهرة قد تنفسوا الصعداء لما ارتفع عنها الحصار ، ثم ازدادوا سرورا لما سمعوا بقدوم أسد الدين . وحمدوا لشاور

ما صنع ، وتحدثوا معجبين كيف استطاع بحيلته ودهائه أن يطاول ملك الفرنج ريثما تأتى نجدة من الشام ، فلما أحس باقتراب مجيئها احتال عليه تلك الحيلة البارعة فحمله على الانسحاب بعيدا عن العاصمة متوهما أنه سيقبض بقية المال من شاور ، ولا يعلم أن شاور قد خدعه . هكذا كان جل أهل القاهرة يتحدثون عن دهاء شاور وحكمته .

أما اللاجئون من أهل الفسطاط ، فقد هدأت نفوسهم قليلا لما شبعوا من جوع ، ثم تذكروا أنهم أصبحوا لا بيوت لهم ولا متاع ، فعاودهم الأسى ، وتذكروا أن شاور هو الذى أحرقها ، فعاودهم السخط عليه ، ولم يشفع له عندهم أنه أخذ يعد لهم المضارب والخيام فى أرباض القاهرة ليسكنوها ، فأين المضارب والخيام من الدور الواسعة ، والبيوت الجميلة ذات المتاع والرياش ؟

غير أن نبأ قدوم أسد الدين أنساهم كثيرا من همهم ، وفتح لهم باب الأمل فى أن ينظر الى قضيتهم بعين العدل والانصاف ، فتبنى لهم المساكن والبيوت وتعطى لهم الأمتعة والمرافق تعويضا لهم عن بعض مافقدوه ، فهيهات أن يعوض ما فقدوه .

وقد سلك ملك الفرنج فى مسيره طريق الصحراء الشرقية ليتفادى من لقاء أسد الدين الذى أقبل من طريق بلبيس معقبا على آثار الفرنج فواسى أهل بلبيس فيما نكبهم الفرنج ، ثم مضى فى طريقه معرجا على كل محلة فى الريف ، فكان كالبلسم لكل قرح مسهم من أيدى الفرنج . وقد لقى من ترحيب المصريين به فى كل مكان ، ووجد من صبرهم وحميتهم وحماستهم ، ماجعله يقول

لنفسه ولأصحابه « ان كان لناخلاص فمن هنا .. ليبعثن الله من هؤلاء غدا من يخرج العدو من الوطن العربى كله !

فلما وصل الى القاهرة رأى عجبا : رأى الناس جميعا على اختلاف طبقاتهم يخرجون لاستقباله ، وقد ارتدوا أحسن ثيابهم ، ورأى بينهم أقواما تنطق أسمالهم البالية وهدومهم الرثة بالبؤس والتعاسة ، ولكن تنطق وجوههم بالبشر والابتهاج .

وكان شاور ورجاله ، وأبو الفضل وجماعته ، وشجاع وفرقته فى مقدمة المستقبلين ، حتى دخلوا العاصمة فى موكب عظيم ، لم تر مثله من عهد بعيد .

وقد فرح الناس جميعا حين رأوا شاور راكبا بجانب أسد الدين يحادثه ويباسطه ، ويلتقى عرفا جواديهما بين الحين والحين ، كأن لم يكن بينهما شىء من قبل . وسرى فيهم شعور غامر بأن ويلات الحرب قد انزاحت عن أرض مصر ، فلن يقتتل شاور وأسد الدين بعد يومهم هذا ، ولن يجرؤ الفرنج على العودة بعد اتحاد هذين القائدين .

لهذا فحسب أو قريب من هذا فرحوا كل هذا الفرح وابتهجوا كل هذا الابتهاج .

ترى كيف يكون فرحهم وابتهاجهم لو علموا أن الذى طربوا له اليوم شىء زهيد بالنظر الى غدهم السعيد ، يوم يشرق على البلاد عهد جديد .

السفر الثالث

ماكان الناس يعلمون يوم استقبلوا أسد الدين ، وساروا فى موكبه أنهم كانوا يستقبلون عهدا جديدا ، ويسيرون فى موكب العهد الجديد ، بل لم يشعروا بأن العهد الجديد قد أظلهم حتى بعد أن أشرقت فى سماء البلاد بعض أنواره ، وظهرت على أرضها بعض آثاره .

ذلك أنه دخل الى عاصمة القطر ثم انتشر فى أقاليمه دون أن يشن حربا حتى على الطغاة الظلمة ، ودون أن يسفك من دمائهم أو دماء جنودهم وأتباعهم قطرة واحدة .

فهم أولاء يرون العاضد مقيما فى قصره كما كان ، ويرون وزيره شاور باقيا فى منصبه كما كان ، ويرون جنود الدولة فى ثكناتهم ومعسكراتهم كالعهد ساكنين مطمئنين ، يأكلون ويشربون ويرتدون الحلل الفاخرة ذات الطرز الجميلة والسمات المميزة لرتبهم وأقدارهم ينتظرون أمرا من شاور ليطيعوه ، أو أمرا من الخليفة ليطيعوه أيضا اذا وافق شاور عليه .

أما وجود أسد الدين معسكرا بجيشه بأرض اللوق خارج العاصمة ، فلم يكن ذلك عند الناس بدعا من الأمر ، فقد سبق أن أقام بجيشه هكذا من قبل حيث مكث برهة طويلة بعد القضاء على ضرغام واعادة شاور الى منصبه ، فلم يصنع غير ذلك من شىء يذكر ، الى أن ارتحل صوب بلبيس للقاء الفرنج ، فكان من أمره معهم ماكان . ثم جاء بعد ذلك كرة ثانية ، فقاتل جنود شاور وجنود الفرنج ، وانتصر عليهم فى الصعيد ، واستولى على

اسكندرية ، فماذا كان خاتمة أمره ؟ أبرم مع شاور وحلفائه اتفاق الاسكندرية ، فرجع الى بلاده دون أن يصنع شيئا .

فماذا عسى أن يصنع اليـــوم ، وقد قدم بعـــد ماعادى شاور الفرنج فقاتلهم ثم أجلاهم عن البلاد ، فدخل يوم دخل مسالما لشاور مصادقا له ولعله قد شكره وأثنى عليه اذ كفاه مؤنة قتال أعدائه ؟

وهكذا لم ير الناس من شيء جديد يشعرهم بأنهم قد دخلوا فى عهد جديد ، وأنهم يعيشون منذ اليوم تحت جناح ثورة هائلة بعيدة المدى عميقة القرار لم يقم فى بلادهم منذ أشرق فيها نور الاسلام أعظم منها خطرا ولا أوسع منها أثرا .

ولا ملام على الناس اذ لم يتبينوها من أول وهلة ، ولا يصح اتهامهم بالغفلة أو قلة الادراك بل اللوم — ان كان لابد من لوم — عليها هى اذ طلعت عليهم ثورة بيضاء ، لايرى الناظرون فيها بقعة واحدة حمراء ، وعهدهم بالثورات حتى الصغرى منها أنها كانت كالعرائس تختضب قبل زفافها حتى يكون زفافها مشـــهودا يملأ الأبصار والأسماع !

ثم أدركوها فيما بعد حين اختلط بياضها الصامت بألوان شتى من جراء اتصالها وتغلغلها فى صـــميم حياتهم وحيـــاة بلادهم ، فأصبحت هى ناطقة بما طرأ عليها من الألوان المختلفة ، وصاروا يلمســـون أثرها فى كل شأن من شؤون حيـــاتهم وكل مرفق من مرافق بلادهم .

ولكن حتى اذ ذاك ظل سرها مكتوما عنهم لايعلمه الا قليل .

ولم يكن ذلك عن تقصير منهم فى البحث والاستطلاع ، وتقصى الأسباب التى أفضت الى هذا الانقلاب الكبير ، واستكناهها من

النتائج التى انبثقت عنه ، فقد بذلوا فى ذلك غاية وسعهم ، فكان قصارى ما انتهى اليه أبعدهم نظرا وأسدهم رأيا وأصحهم فهما أن أسد الدين قد استطاع بقوة جيشه وبمعاونة بعض المخلصين من أبناء مصر ، كأبى الفضل وأمثاله أن يهيمن على أمور البلاد حين تراخت قبضة شاور وقبضة العاضد أيضا على أثر مامنى به كلاهما من الهزائم والصدمات ، ففقد شاور ماكان عنده من روح الكفاح والجلاد ، كما فقد العاضد مقدرته الأولى على الكيد وتدبير الخطط من وراء الستار ، فخلا الجو لأسد الدين فأمكنه أن يقوم بهذا الاصلاح الشامل ، ويحقق منه بعد ما زالت العقبات من طريقه ما كان من قبل مستحيلا أو كالمستحيل .

وانهم لمعذورون اذ لم يستطيعوا أن يصلوا الى أبعد من هذا ، لأن النفر القليل الذين يملكون اطلاعهم على جلية الأمر ، لم يشاءوا أن يبوحوا بالسر لأحد احتسابا منهم لله ، وزهدا فى الشهرة والجاه عند الناس .

وأنى يخطر ببالهم أن هذه الثورة قد انقدح نورها أول ما انقدح فى قلب رجل واحد من المصريين هو ذلك التاجر من تجار الحرير الذى يدعى أبا الفضل ، ثم أقبسه لطائفة من أصدقائه وثق بصلاحهم واخلاصهم فصار النور يضىء فى قلوبهم خافتا لا تدركه حتى أبصارهم هم ، وانما تدركه بصائرهم وحدها .

ثم أخذت هذه البصائر النيرة ــ وقد توحدت فصارت بصيرة واحدة كبيرة ــ تتلمس سبيل الخلاص فى ذلك الديجور الحالك ، فتهتدى اليه بعد لأى ، ولكنه بعيد جد بعيد ، ودون الوصول اليه عقبات وعقبات يكفى أيسرها لملء قلوبهم يأسا لولا ايمان لم

يدع فيها موضعا ليأس من رحمة الله أو قنوط .

وإذ وضح لهم سبيل الخلاص اشتد بهم الشوق الى تحقيقه ، وتحول الشوق الى عزم ، فأمدهم العزم بقوة هائلة جعلتهم الجماعة الوحيدة المتماسكة فى مجتمع متهيل غير متماسك .

وسبيل الخلاص عند جماعة المصلحين هو القضاء على أصل الفساد القابع فى القصر . ولكن كيف يتم ذلك ، وفى يده وأيدى الوزراء الذين يتلاعب بهم ، تلك القوة العظيمة قوة الجيش ، وقد أصبحت لا تحمى الدولة بل تحمى العرش والجالس عليه ،فصارت سوط عذاب لاعلى العدو الذى يتربص بالبلاد على الحدود بل على الشعب .

ونظروا فاذا وراء الحدود من أرض الشام مجاهد عـــربى عظيم يقف وحده مناضلا دون العدو لينتزع منه بعض ما اغتصبه من أرض العرب ، ويحول دون استيلائه على مابقى منها فى أيدى أهلها العرب ، فتوجهت قلوبهم اليه ليستعينوا به فى تخليص مصر من فسادها الحاضر وتأمينها بذلك من كارثة الوقوع عاجلا أو آجلا فى يد العدو المشترك .

ومن ثم بدأ رئيس الجماعة يكاتب نور الدين ، ثم اتفق أن ولى شاور الوزارة فتعلقت آمالهم به عسى أن يستعمل قوة الجيش فى تحقيق هدفهم ، ولكن لم يلبث أن تغلب عليه ضرغام ، فأشاروا على شاور باللجوء الى نور الدين والاستنجاد به وأيدوه برسائلهم لدى نور الدين حتى استجاب لهم ، فكان ذلك أول خطوة عملية فى هذا السبيل .

فلما تبين لهم أن شاور ليس جديرا بثقتهم ، نفضوا أيديهم منه

ولكنهم مضوا فى سبيلهم ، وانتفعوا بالكوارث والأحداث التى نزلت بالبلاد من جراء الحروب التى دارت على أرضها بين جيش نور الدين والفرنج ، لما كان لها من أثر عظيم فى تنبيه وعى الشعب ، فأصبح الشعب قوة فعالة فى تقرير مصير بلاده •

وكانت الأيام التى قضاها أسد الدين خارج القاهرة يحاصرها ، والفرنج يحاصرون الاسكندرية ذات خطر كبير من وضع الأسس الثابتة لهذه الثورة المباركة التى تجنى البلاد ثمارها اليوم ، اذ كان رئيس الجماعة مقيما معه فى خيمته ، فكاشفه بكل ما فى نفسه ، وذاكره فيما ينبغى عمله فى هذا السبيل ، فوافق أسد الدين على كل ما اقترحه أبو الفضل الحريرى ، ولم يبق الا أن يعرضه على نور الدين ليوافق عليه •

وهكذا غادر أسد الدين مصر للمرة الثانية ، وهو على اتفاق تام مع أبى الفضل على أن يعود مرة أخرى لتنفيذ خطتهما الكبرى • فلما عاد هذه المرة الثالثة كان أبو الفضل وجماعته قد هيأوا كل شىء ، ورتبوا كل شىء ، دون أن يلتفتوا لما جد من محاربة شاور للفرنج أو يعطوه أى اعتبار منذ نفضوا أيديهم منه •

٢

وظن شاور أن فى وسعه أن يستعيد ثقة أسد الدين اذا تودد اليه كما اقترح ذلك عليه ابنه شجاع ، فيصالحه على شىء ويرضيه بما يريد • فاستجاب له أسد الدين فى الظاهر ، وكان حريا أن يستجيب له فى الباطن كذلك لو لم يكن متفقا مع أبى الفضل وجماعته على وجوب اطراح شاور ، وعدم الاعتماد عليه ، والمضى فى عملهم دون التعرض له بخير أو شر حتى يبدى هو صفحته فان

ممكث سكتوا عنه وتركوه ، وان قاوم أو حاول أن يعرقل ضربوا على يده وأزاحوه عن الطريق .

ومكث شاور أياما وهو يتردد على أسد الدين فى معسكره بأرض اللوق زائرا متوددا فيستقبله أسد الدين أحسن استقبال ويجالسه ويباسطه ، ويثنى على قتاله للفرنج ، وعلى حسن حيلته حتى أجلاهم عن البلاد ، فكفاهم بذلك مؤونة قتالهم . فيسر شاور من ذلك وينتظر أن يحدثه أسد الدين عما ينوى أن يعمل فى مصر ، ولكن أسد الدين يتجاهل هذه المسألة أمامه ، فلا يعرض لها بحديث .

الى أن ضاق شاور يوما بالحال ، فخلا بأسد الدين ، فكاشفه بما فى نفسه ، قال له « قد تمت نعمة الله علينا فعدنا واياكم أصدقاء ، وزاح الله عنا فتنة الفرنج ، أفلا نتفاوض اليوم فيما ينبغى أن نعقده بيننا وبينكم ؟ » .

فأجابه أسد الدين مداعبا : « أو قد ضقت يا أبا شجاع باقامتنا فى بلادكم ؟ » .

ـ كلا والله .. انكم لعلى الرحب والسعة .. ولكنى أخشى أن تعجلكم الأحداث فتغادروا مصر قبل أن أتفق معكم على شىء .

ـ انى لا أستطيع أن أتفق معك على شىء ..

فاضطرب شاور قائلا : « ولم يا أسد الدين » ؟ .

ـ انى لست حاكما مثلك .. وانما أنا جندى من جنود نور الدين فنور الدين هو الذى يتفق معك ..

فسرى عن شاور قليلا وقال : « أنت تنوب عن نور الدين » .

ـ أنوب عنه فى شؤون الحرب لا فى شؤون السلم .

ـ تفاوضني على أساس الاتفاق القديم بيني وبين نور الدين •
ـ ان أردت الحق يا أبا شجاع فاني قد نسيت شروط ذلك الاتفاق من طول ما تقادم عهده ••
ـ سأذكرك به ان شئت •• ثلث الخراج والتعاون معه على قتال الفرنج ••
ـ هل تقبل أنت اليوم ذلك ؟
ـ أقبل التعاون على قتال الفرنج •• وسنتفاوض في ثلث الخراج ••
ـ قد أخبرتك أني لا أملك التفاوض في شيء ••

فهم شاور أن يقول له : « فيم اذن بقاؤك في مصر ؟ ولكنه استهجن ذلك فأمسك ، وكفاه أسد الدين مؤونة ذلك اذ مضى يقول : « وأنا باق هنا حتى يصل الى كتاب من نور الدين فأمتثل لأمره »

فتشجع شاور حينئذ فقال : « كأنك يا أسد الدين لا تعلم اليوم كم تنوون أن تقيموا بيننا » •

ـ لا يا أبا شجاع حتى يصل كتاب نور الدين ، فأعلم ما يريد •

ورجع شاور الى داره والهواجس تذهب به كل مذهب • آه لو أعلم ماذا وراء هذا الرجل ! ثم خطر له فجأة أنه ربما كان أسد الدين قد اتفق من دونه مع العاضد على شيء ، وتذكر أن العاضد قد خلع عليه وعلى رجاله يوم قدموا ثم قابله أسد الدين بعد ذلك في قصره مرة أو مرتين ، فقال لنفسه : عجبا كيف لم يخطر لي هذا الخاطر من قبل ؟•

ومضى شاور متسللا الى القصر ليستطلع الحقيقة من العاضد ، وكان على وفاق معه ، وصفاء ، منذ استجاب لرغبة العاضد في

القضاء على الفسطاط ، فاستقبله العاضد مرحبا كعادته ، وقال له :
« ماذا شغلك عنا يا أبا شجاع ، فانا لم نرك منذ أيام ؟ » .

ــ ما شغلنى يا مولاى غير هؤلاء القوم ، أتفقد حاجاتهم ، وانظر فى راحتهم .

وأدرك العاضد من لحن قوله أنه ضائق الصدر بهم ، فأحب أن يستطلع ذلك منه . وهكذا أراد شاور أن يستطلع من العاضد ، فاذا العاضد هو الذى يستطلع منه .

ــ لقد ظننت ياشاور أنك على وفاق معهم دونى .. وأن ذلك هو الذى شغلك عنى . !

ــ كلا يا مولاى لن أتفق معهم اليوم على شىء الا بعلمك ومشورتك .

ــ أو قد كلمك أسد الدين فى شىء ؟

ــ لا يامولاى .. لم يفعل بعد .. فهل كلم مولاى فى شىء ؟

ــ أنا ؟ ماذا يدعوه الى الكلام معى .. وعنده الوزير المسئول ؟

وهم شاور أن يخبره بما دار بينه وبين أسد الدين لولا أنه خشى أن يغض ذلك من قدره فى عين العاضد ، فآثر أن يطويه عنه

ولكن العاضد قرر أن يخبر شاور بما دار بينه وبين أسد الدين فى المقابلة الثانية فقال : « لقد أردت أن ألقاك يا شاور لأطلعك على مادار بينى وبين أسد الدين اذ سألته عما ينوى أن يعمل هذه المرة فى بلادنا ، فتخلص بلطف ولم يجبنى جوابا صريحاً .

ــ فهل رابك هذا منه يا مولاى ؟

ــ كلا .. ما رابنى اذ ظننت أنه يريد أن يكلمك أنت لثقته بك من دونى .

وهنا وقع شاور فى الفخ الذى نصبه العاضد .

ـ كلا يامولاى انه لا يثق بى ، فقد سألته أنا أيضا ، فلم يعطنى جوابا صريحا ..

فأبدى العاضد حينئذ استياءه من شاور وقال له : « والله ياشاور ماساءنى أن لم يثق بى أسد الدين مثلما ساءنى أنك أنت لا تثق بى ، لم كتمت عنى هذا فى أول الأمر ؟ »

فأخذ شاور يعتذر ويتنصل ويقول : « هب لى ذلك يامولاى .. فانه بقية مما سلف من قلة اطمئنانى اليك » .

ـ ويلك يا أبا شجاع .. عفا الله عما سلف .. وقد أنقذت أنت عرش آبائى بقضائك على مدينة الفسطاط ، فكيف أنسى لك هذا الجميل ؟ أتدرى ماذا كان يكون لو بقيت الفسطاط اليوم ؟ اذن لنزل أسد الدين عندهم هناك فتصرفوا فى شؤون الدولة وجعلوا مدينتهم العاصمة وأعلنوا انتهاء حكم الفاطميين .

فقال شاور وقد اطمأن الى العاضد وزال ارتيابه : «ومايدريك يامولاى ألا يكون أهل الفسطاط يعملون مع أسد الدين اليوم على تحقيق هذا الذى ذكرت ؟ »

ـ الآن أعجبتنى ياشاور ! أجل هكذا دعنا نتكاشف ونتصارح فيما بيننا ، فأنت أولى بنا ونحن أولى بك من هؤلاء ..

ـ صدقت يا مولاى .. القريب قبل الغريب ..

وانصرف شاور من عند العاضد وقد اطمأن باله الى حين .

٣

وما علم شاور حين أرسل كلمته التى طرب لها العاضد أنه قد أصاب كبد الحقيقة دون أن يشعر ومن حيث لم يقصد ، فأنى له

أن يعلم أو يخطرعلى باله أن أسد الدين كان مجتمعا فى ذلك الوقت ذاته ، مع أبى الفضل وجماعته ومعظمهم من أهل الفسطاط ، ويتذكر أن فى هذا الذى سنح بباله عرضا حين سمع كلام العاضد عن الفسطاط والقاهرة .

وليست هذه أول مرة يلقى فيها أسد الدين جماعة المصلحين فى القاعة الخاصة بهم من دار الفضل ابن أبى الفضل اذ كان قد أخذ يتردد اليها متنكرا متخفيا لا يعلم بسره غير قليل من خاصة رجاله ، وحتى هؤلاء يعلمون أنه يذهب ليجتمع مع أبى الفضل وطائفة من المصريين من أهل الحل والعقد ليتشاور معهم فى أمور البلاد ، ولكنهم لا يدرون أن هؤلاء جماعة سرية وأن أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين قد انتخبا عقب قدومهما فصارا من أعضائها

وكان أبو الفضل قد أطلع أسد الدين على سر الجماعة ، منذ كان مقيما معه فى خيمته أثناء حصار القاهرة ، لكى يخبر نور الدين بذلك فيطمئن ، ووعده أنه سيجمعه بهم عند عودته ، وينتخبه عضوا فيهم اذا شاء ، فلما عاد أسد الدين اقترح على أبى الفضل أن ينتخب ابن أخيه صلاح الدين أيضا ، وقال له انه أكتم للسر منى ، فأجابه أبو الفضل الى طلبه .

وكان يوم انتخاب هذين يوما مشهودا فى تلك القاعة العتيدة التى حملت جنين الثورة سنين طويلة حتى وضعتها اليوم خلقا سويا ، فقد حضر يومئذ أربعون رجلا من أعضاء الجماعة ، وتقدم أبو الفضل الى أسد الدين وصلاح الدين فحلفهما أمامهم على المصحف أن يكتما سر الجماعة وأن يعملا لطرد الأعداء من بلاد العرب والمسلمين وحماتها منهم ، فأقسما على ذلك .

ولما انتهى القسم أخذ أبو الفضل يقدمهم واحدا واحدا الى العضوين الجديدين فكانا يتعجبان من اختلاف مهنهم ، وتبـاين طبقاتهم ،فهذا قاض وهذا امام جامع ،وهذا حداد وهذا بزاز وهلم جرا

وتكلم أسد الدين فقال : « ان أولى النـاس أن يكون فى جماعتكم لهو الملك العادل نور الدين » .

فأجاب أبو الفضل قائلا : « اننا نعتبر نور الدين منا وان لم يكن معنا ولولاه مانجحنا فيما سعينا اليه .. ورب رجال ماعرفناهم ولا عرفونا وهم منا » .

ثم بدأ الجماعة يتذاكرون فى خطتهم الكبرى ويتباحثون فى وسائل تنفيذها وفى موقفهم من شاور وموقفهم من العاضـد ، وموقفهم من جيش الدولة ، وفى اختيار الرجال الموثوق باخلاصهم وأماناتهم من أهل الكفايات لتسند اليهم المهام الخطيرة فى كل شأن من شئون الادارة والاصلاح . وكان أبو الفضل قد وضع برنامجا لذلك فاتخذوه أساس البحث والمناقشة ، فأخذوا بما أخذوا منه وعدلوا ما عدلوه .

وتوالت جلساتهم بعد ذلك فكان يحضر أسد الدين مرة ويحضر صلاح الدين مرة أخرى ، ليبقى أحدهما فى المعسكر ، عند غياب صاحبه مبالغة فى التكتم . وظلوا أياما يجتمعـون ويتشـاورون ويقررون ما يقررون دون أن ينفذوا من ذلك شيئا الى أن كان ذلك الاجتماع الذى حضره أسد الدين على أثر المقابلة الأخيرة بينه وبين شاور ، فلما حكى لهم ماسمع ذلك اليوم من شاور ، أدركوا أن قد آن الأوان للشروع فى تنفيذ الخطة خشية أن يسبق شاور فيقدم على شىء قد يكبدهم مشاق هم فى غنى عنها ، فأجمعـوا على ذلك .

وفى غد ذلك اليوم حضر أبو الفضل الى المعسكر فاختلى بأسد الدين ونفر من كبار رجاله فيهم صلاح الدين ، فتشاوروا طويلا حتى اهتدوا الى الطريقة التى يبلغ بها أسد الدين هذا الأمر الى شاور والى العاضد ، والى جيش الدولة أيضا بحيث لايترك لأحد منهم مجالا للاعتراض على ذلك .

وما ارتفع ضحى اليوم التالى حتى ركب أسد الدين فى نفر من رجاله الى قصر العاضد فاستأذن لمقابلته ، فأذن له واستقبله أحسن استقبال كعادته ، فلما استقر بهما المجلس قال للعاضد ..

ـ انى تلقيت أمس كتابا من نور الدين يقرىء أمير المؤمنين العاضد فيه التحية ويرجو أن يكون فى خير وعافية ..

ـ فأخذ العاضد يثنى على نور الدين بما هو أهل له ثم قال : « انا لن ننسى أبدا جميله .. اذ ما استغثنا به يوما الا أغاثنا بكم مرة بعد مرة » .

ـ انه يرى ذلك واجبا عليه فى سبيل الله وسبيل العرب والمسلمين ، وقد أمرنى اليوم يامولاى أن أبقى مقيما بجيشى فى مصر تحت خدمتكم خشية ألا يتمكن فى المستقبل من انجادكم حين تستنجدون به مرة أخرى ، لما يقتضيه ارسال الحملة من انفاق أموال هو فى أشد الحاجة اليها لمواجهة العدو هناك ..

فأجابه العاضد قائلا فى الحال : « هذا كرم عظيم من نور الدين ، وانى سأصدر أمرى بأن تكون نفقتكم من خزانة الدولة أسوة بجيشنا كل على قدره ورتبته » .

فدهش أسد الدين مما شهد من العاضد ، فقد ظن أنه سيتوقف قليلا أو يلوح فى وجهه شىء من قلة الرضا ، وما علم أن العاضد

قد استعد بهذا الجواب من قبل ، اذ كان قد توقع شيئا كهـذا فقرر بعد التفكير فى جميع الاحتمالات أن يوافق أسـد الدين ويجاريه فى كل ما يريد بغية أن يحفظ له ذلك فيبقى على عرشه ، وحينئذ لا يضيره أن يتولى أسد الدين الوزارة مكان شاور ، بل لعله يكون خيرا له من شاور الذى طالما جرعه الغصص .

واستشف العاضد مافى نفس أسـد الدين فمضى يقـول : « لا يدهشنك ماسمعت منى فانى ما استغثت بكم هذه المرة لأدعكم تتركون بلادى هدفا لمطامع الفرنج من جديد فكفى ماقاسينا منهم » .

فشكره أسد الدين على ذلك ثم قال : « أخشى يا مولاى ألا يرضى رجالى بالبقاء فى الخيام خارج المدينة » .

فأسرع العاضد يقول : « هذا لا يجوز .. يجب أن تخصص لهم دور فى داخل المدينة كالدور التى ينزل فيها جنودنا . لا فرق بين هؤلاء وهؤلاء .. فانى أعتبرهم جميعا جنودى منذ اليوم » .

فكرر أسد الدين شكره ، وتهيأ للانصراف ، فقال له العاضد : « هل كلمتم شاور فى ذلك ؟

ـ لا يامولاى .. قد رأيت من واجبى أن أخبرك أولا .. وانى ماض اليه الساعة لأخبره .

فلاح السرور فى وجه العاضد ، وقال : « اذن فأخبره بمـا سمعت منى لكى يتهيأ لتنفيذ أمرى » .

وكان شاور قد بلغه ركوب أسد الدين الى القصر فارتاب وهام فى أودية الظنون ، وحار ماذا يصنع ، فما أخرجه من حيرته الا مجىء أسد الدين اليه فى دار الوزارة ، فاستقبله فى الديوان مرحبا محتفيا ، فأخبره أسد الدين بمثل ما أخبر العاضد ، فلم يستطع

شاور أن يخفى ماعلا وجهه من العبوس ، وجعل يقول : « هذا أمر خطير يجب النظر فيه والتفكير فى عواقبه حتى لا يؤدى الى خلاف بيننا وبين نور الدين ، بعد ما حمدنا الله على زواله » .

فقال أسد الدين : « ان نور الدين هو الذى ارتأى هـذا الرأى ، وهو لا يقصد الا الوفاق والتعاون على مافيه خير مصر وخير العرب والمسلمين ، فكيف يؤدى الى خلاف بينكم وبينـه الا اذا كنتم أنتم تريدون الخلاف ؟

فسكت شاور قليلا ، ثم قال « وهل كلمت العاضد فى ذلك ؟

ـ نعم .. فكان أكرم منك يا أبا شجاع .. اذ ما اكتفى بالموافقة حتى أمر بأن تكون نفقتنا على مصر واعتبارنا من جنود مصر .

ـ انك لا تعرف العاضد يا أسد الدين ..

فقال أسد الدين مداعبا : « ولا أعرفك أيضا يا شاور ، فانك كنت دائما لغزا غامضا على .. فتارة تكون معنا وتارة علينا وتارة بين بين » .

وأدرك شاور أن الأمر قد خرج من يده ، وأشفق أن يكون العاضد أحصف منه وأحكم ، فرأى أن يصلح موقفه .

ـ أتدرى يا أسد الدين ماذا ساءنى فى هذا الأمر ؟

ـ أى شىء يا أبا شجاع ؟

ـ انكم بدأتم بالعاضد قبلى ، وما كان لكم أن تفعلوا ذلك ، وأنتم تعلمون أنه هو الذى وقع الميثاق مع الفرنج ، وأننى أنا الذى أعلنتها حربا على حاميتهم حتى أجليتهم جميعا ..

وكان فى وسع أسد الدين أن يقول له : « وأنت حاربتنا مع الفرنج وقبل ذلك خليت بيننا وبينهم فى بلبيس ولم تنجـدنا »

ولكنه قد قرر أن يسالمه ما أمكن ، فقال : « عفا الله عما سلفه يا أبا شجاع ، وما بدأنا بالعاضد لمزية له عندنا دونك الا أنه الخليفة . وأنا أعتذر لك على كل حال ، وأعدك أن أرجع فى المستقبل اليك أولا قبله .

فأظهر شاور الرضا وقال : « وثلث الخراج ألم يشر اليه نور الدين فى كتابه ؟ »

ـ بلى انه اقترح أن ينفق علينا منه ، ولكن لاداعى اليه الآن بعد ما عرضتم أن تكون نفقتنا عليكم ، وأنت تعلم أن نور الدين لا يريد المال لنفسه بل لينفقه فى سبيل الله ، وهذا فى سبيل الله ..

وأطرق شاور هنيهة ثم قال : « هذا خير يا أسد الدين ، ولو أنك قبلت مفاوضتى يوم اقترحت عليك لربما انتهيت معى الى مثل هذه النتيجة » .

ـ لا بأس يا أبا شجاع .. كل شىء رهين بوقته .. وما كنت اذ ذاك أملك شيئا قبل مجىء كتاب نور الدين . والحمد لله اذ وجدت من العاضد ومنك كمال الموافقة » .

فعاد العبوس الى وجه شاور .

ـ أما زلت تذكر هذا العاضد يا أسد الدين ؟

ـ كيف لا وأنا بحاجة الى أمر منه اليوم بأن يعطى لرجالى دور يسكنونها فى المدينة ؟

ـ لا شأن لك بالعاضد ، أنا الذى سآمر لهم بذلك ..

ففرح أسد الدين وشكره اذ كفاه مشقة الرجوع الى قصر العاضد ، ولم ينصرف من عند شاور حتى أخذ منه الأمر .

٤

وما لبث جند أسد الدين أن قوضوا خيامهم بأرض اللوق ، فانتقلوا الى المدينة فى مساكن مصاقبة لمساكن الجنود المصريين حتى كأنهم فريق منهم . وقد استاء هؤلاء فى أول الأمر وارتابوا ، ولكنهم رأوا الخليفة والوزير راضيين بذلك فسكتوا . وكانوا قد ضاقوا حينئذ بما لحقهم من الخسائر فى الحروب التى خاضوها متحالفين مع الفرنج ثم مقاتلين معهم على حسب ماساقهم اليه شاور حتى ذهب كثير من رجالهم ، وحتى صار عامة الناس ينظرون اليهم بازدراء ويتندرون عليهم بأنهم جيش مرى الذى أسلم أو جيش شاور الذى كفر ، فقال بعضهم لبعض : « لعل وجود هؤلاء القوم يزيل عنا هذه الوصمة ، ويمنع شاور أن يدفع بنا فى حروب لانجنى منها غير المذلة والعار » .

وقد أمر أسد الدين رجاله بأن يتوددوا الى العساكر المصرية ، فكان لذلك أثر جميل فى شيوع المودة والصفاء بينهم وبين هؤلاء الطارئين . ومما ساعد على ذلك أيضا أن جيش مصر لم يكن فرقة واحدة من عنصر واحد ، بل كان فرقا مختلفة من عناصر مختلفة أهمها فرقة المغاربة . وفرقة الأتراك ، وفرقة السود أو العبيد ، فلم يجدوا فى أنفسهم حرجا كبيرا من أن تنضم اليهم هذه الفرقة الجديدة التى يطلقون عليها فرقة الغز ، بل ما لبث هؤلاء الغز من جراء توددهم للجميع أن صاروا أحب الى كل فرقة منهم من الفرقتين الأخرتين ، لما بين هذه الفرق الثلاث من تنافس قديم .

أما أسد الدين فقد نزل دارا كبيرة استأجرها له أبو الفضل

فى وسط العاصمة ، غير بعيد من دار الوزارة التى يقم فيها شاور ، فصار يستقبل الناس فيها على اختلاف طبقاتهم ، أفواجا أفواجا ، بين زائرين مسلمين ، وأصحاب شكاوى وذوى حاجات ، وخاصة من أولئك اللاجئين الذين فقدوا ديارهم وأموالهم فى حريق الفسطاط ، فكان يأمر بتقييد شكاويهم وحاجاتهم للنظر فيها ، ثم يبعث بها الى شاور فى ديوان وزارته مشفوعة برجاء لطيف ليوقعها ، فكان شاور يتكرم بتوقيعها وانفاذها طيب النفس فى أول الأمر ، الا أنه لم يلبث أن ضاق بذلك لما كثر عليه وشعر أنه مأمور لا آمر ومحكوم لا حاكم ولا سيما حين أخذت الرقاع تصل اليه خالية مما كان يحليها من عبارات الرجاء والاستشفاع ، ولكنه لم يستطع أن يمتنع أو يعترض خشية أن يفقد حتى هذا الحق الباقى له فى التوقيع والانفاذ .

وقد أصبح لهذه الدار كتبة وموظفون ممن اصطفاهم أبو الفضل وجماعته من أهل الكفاية والأمانة ، يحسنون استقبال الناس ومعاملتهم ، فأخذ الناس يشعرون شيئا فشيئا أنهم فى عهد جديد لا يحتاجون به فى رفع ظلاماتهم وقضاء حاجاتهم الى الوساطات والشفاعات .

وكان أول عمل جديد للعهد الجديد أن اهتم باعادة بناء الفسطاط وعمارتها ، فدعا أهلها الى ذلك وشجعهم بالمال والمعونة ، فتسابقوا الى ذلك وشرعوا يعمرون ماحول الجامع ، جامع عمرو ثم أخذ العمران بعد ذلك يتسع قليلا قليلا .

وكان لهذا العمل صدى جميل فى نفوس الناس جميعا ، فأهل الفسطاط قد شعروا بالانصاف واستبشروا برجوع مدينتهم

الحبيبة ، وأهل القاهرة قد فرحوا كذلك اذ تخلصوا مما كان يضايقهم من وجود هؤلاء اللاجئين بينهم يزاحمونهم فى المساكن ويكلفونهم المغارم ، ويقذون عيونهم بمظاهر البؤس والشقاء .

ولكن العاضد تألم كثيرا من اعادة بناء الفسطاط ، وقد حاول فى أول الأمر أن يثنى أسد الدين عن ذلك ، واقترح عليه أن يأمر ببناء المساكن لهم فى أطراف القاهرة ، زاعما أن ذلك أفضل لهم ، وأقل نفقة على الدولة ، وأجدر أن يزيل التنافس القديم بين أهل المدينتين حين تجمعهم مدينة واحدة هى العاصمة . وقد ألح العاضد فى ذلك الحاحا شديدا على خلاف عادته فى الشئون الأخرى حتى عجب أسد الدين وداخله ريب فى أن يكون العاضد حقا هو الذى اقترح ذلك الحريق على شاور ، فاعتذر أسد الدين بلطف ، وقال له : « لو تقدمت لنا بذلك يامولاى قبل أن نعلنه فى الناس ! أما الآن فلا سبيل الى الرجوع ، والا حدثت فتنة لا تؤمن عواقبها ، وأرجو أن يزول التنافس بين المدينتين غدا الا فى الخير » .

واغتم العاضد من يوم ذاك ، وأخذت تساوره الظنون والمخاوف ، وان أخفى ذلك وظل على صلة جميلة مع أسد الدين ورجال العهد الجديد .

أما شاور فانه — على استيائه من هذا العهد الجديد الذى بدأت دولته تزول فيه شيئا فشيئا ، وسلطانه يضمحل على الأيام — قد فرح فى قرارة نفسه بتجديد عمارة الفسطاط ، اذ وجد فى ذلك سبيلا للانتقام من العاضد فيما تخلى عنه وغدر به وأخل بالاتفاق السرى بينهما على ذلك «الغريب» . ثم انه وجد فى هذا العمل أيضا سبيلا الى ازالة سخط الناس عليه ، وكف ألسنتهم عن القدح فيه والتنديد

المستمر بخيانته أو سوء تدبيره ، فأبدى همة كبيرة ونشاطا بالغا فى تأييد هذا المشروع وتشجيع القائمين عليه على خلاف عادته فى الشئون الأخرى ، حتى عجب أسد الدين ورجاله وتأكد عندهم من الموازنة بين موقفه وموقف العاضد أنه صادق فيما كان يزعم لهم — كلما جاءت سيرة حريق الفسطاط وما فيه من خطأ من الناحية الحربية — أن حريق الفسطاط كان من رأى العاضد وأنه ماكان ليلجأ اليه فى مدافعة الفرنج لولا الحاح العاضد عليه واضطراره هو الى مسايرته خشية أن ينشق عليه فى ذلك الوقت العصيب .

على أن هذا التباين بين موقف العاضد وموقف شاور من قضية الفسطاط لم يلبث أن صار سبيل تقارب بينهما ثم اتفاق ، فقد استدعاه العاضد سرا ذات يوم ، فلما اختليا جعل العاضد ينكر على شاور ما أظهر من التحمس الشديد لتجديد عمارة الفسطاط ، فانبرى شاور يعتب عليه ما بدأ به من تأييد الغريب فأخل بالاتفاق بينهما أن يكونا البا واحدا عليه .

وتعاتبا طويلا حتى انتهيا الى أن أعتب كلاهما الآخر ، فتعاهدا أن يعودا الى ماكانا عليه من الوقوف معا للتخلص من هذا الخطر المشترك ، ما وجدا الى ذلك سبيلا .

وظل تجديد عمارة الفسطاط غصة فى حلق العاضد لا يكاد يسيغ معها طعاما و لاشرابا الى أن قام العهد الجديد بعزل جميع قضاة المذهب الفاطمى وتوحيد القضاء فى القطر كله على المذهب السنى لأنه مذهب عامة المصريين ، واسناد منصب قاضى القضاة الى فقيه من جماعة المصلحين هو صدر الدين ابن درباس . فلما سمع العاضد بذلك هان عنده أمر الفسطاط فى جنب ما حدث ،

فقال لنفسه ولخاصة رجاله : « قد كنت أخشى من تجديد الفسطاط على القاهرة ، فهاهم أولاء اليوم قد حولوا القطر كله الى فسطاط !

وأتبع العهد الجديد هذه الخطوة بخطوة أخرى فى هذا السبيل فعمد الى (دار المعونة) وغيرها من السجون التى كان محبوسا فيها كثير من المعادين للبيت الفاطمى ، فأطلق سراحهم ، وهدم تلك السجون لتبنى على أنقاضها مدارس للسنة بين شافعية ومالكية .

فما بقى عند العاضد من شك أن العرش الذى هو جالس عليه يوشك أن يهدم كما هدمت تلك السجون .

٥

وبينما كان العهد الجديد ماضيا فى طريقه من اصلاح الى اصلاح وأبو الفضل وجماعته من وراء الستار منهمكين فى دراسة مختلف الشئون وبحث وجوه الاصلاح وتقديم المقترحات الجديدة ، وقد طربوا لما أتاح الله لهم من نجاح ، فألهب حماستهم للعمل ونشاطهم فيه ، اذا قالة سوء سرت بين الناس فتهامسوا بها برهة ، ثم أخذوا يلغطون الا من عصم الله .

فاغتم أسد الدين وتألم ، وطلب من أبى الفضل أن يعقد اجتماعا فى الحال لبحث هذا الشأن .

وعقد الاجتماع فى القاعة العتيدة ، وكان من شهوده قاضى القضاة صدر الدين ابن درباس والقاضى الفاضل ونجم الدين الخبوشانى وأبو الليث المحتسب وابن حكيم امام الجامع الأقمر ، وغيرهم من أساطين جماعة المصلحين ، وحضر أسد الدين وابن



وبينما كان العهد الجديد ماضيا فى طريقه من اصلاح الى اصلاح، وابو الفضل وجماعته من وراء الستار منهمكين فى دراسة مختلفه الشئون وبحث وجوه الاصلاح وتقديم المقترحات الجديدة ، وقد طربوا لما اتاح الله لهم من نجاح ، فألهب حماستهم العمل ونشاطهم فيه ، اذا قالة سوء سرت بين الناس فتهامسوا بها برهة ، ثم اخذوا يلغطون الا من عصم الله .

أخيه صلاح الدين ، فلمـا استقر بهم المجلس افتتح نجم الدين الحديث :

ـ هذه قالة سوء أريد بها الفتنة ، فلعن الله من أرسلها ، وغفر لمن لغط بها وهو لا يدرى ما تنطوى عليه من شر . ولا ينبغى لك يا أسد الدين أن تهتم بها فانها سحابة صيف وتنقشع ، وما أنتم والله بدخلاء فى مصر ، فأنتم منا ونحن منكم ولكن الذين أرسلوا هذه القالة هم الدخلاء .

وتطلع الحاضرون الى أسد الدين ليسمعوا ما عنده :

ـ أنا أعلم يا اخوانى أنها قالة سوء أريد بهـا الفتنة ، ولئن ساءت عامة رجالى فانها لم تسؤنى بقـدر ما أخافتنى أن تحبط أو تعرقل ما بدأناه من عمل لخير مصر وخير العرب والمسلمين .

فقالوا جميعا : معاذ الله يا أسد الدين أن يقع ما تخشاه ونحن معك على الكبير والصغير .

وقال أبو الفضل : « لا ريب أن هذه من العاضد ، وقد أشرنا عليك مرارا أن تبادر بخلعه فتريحنا وتريح البلاد منه » .

قال نجم الدين : «أى والله لقد آن لك اليوم أن تفلق رأس الحية» .

ـ رويدكم يا جماعة ، فان هذا ينبغى أن يتم بالتدريج لئلا نثير ثائرة الجند المخلصين للعرش وخاصة من المغاربة والعبيد . وأنتم تعلمون أن العاضد قد استغاث بنور الدين ، وبعث اليـه بشعور نسائه ، فليس فى وسعى دون الرجوع الى نور الدين أن أتعجل بخلعه من أجل قالة قالها علينا .

فقال ابن حكيم : « اذن فأعرض عنها يا أسد الدين ولا تبال بها وهبها كأنها لم تكن .

فانبرى صلاح الدين عندئذ يقول : « ان عمى لم يبال كثيرا بهذه القالة ومامن أجلها جمعكم ، وانما ذكرته بأمر كان يريد أن يفاتحكم به من قبل فشغل عنه . تكلم يا عم واشرح لهم ماتريد » .

ـ بل تول أنت ذلك عنى يا يوسف فأنت أفصح به منى .

فقال صلاح الدين : « يامعشر المصلحين المخلصين ، انا قد بحثنا معكم فى كل شىء ولكنا لم نبحث بعد حقيقة وضعنا فى بلادكم ، وكان علينا أن نفعل حتى تكونوا على بينة منا وتكون على بينة منكم » .

فابتدره ابن حكيم قائلا : « ما هذا يا صلاح الدين ؟ نحن وأنتم شىء واحد ومصر بلادكم كما هى بلادنا » .

ـ على رسلك يا ابن حكيم دعنى أتم حديثى .. لاينبغى أن ننكر أننا غرباء فى هذا البلد ، فنحن تتبع نور الدين ، ونور الدين لا يملك مصر ولا يحكمها ، ولكنه أراد أن يجمع قوى العرب جميعا لمحاربة أعدائهم الفرنج ، وقد رأى أن مصر تستطيع أن تقوم فى ذلك بالنصيب الأكبر لو هيىء لها السبيل ، فأرسلنا هذه المرة لنبقى فيها اذا وجدنا ذلك فى مصلحة الجهاد المشترك وآنسنا رغبة من المصريين فى بقائنا عندهم وموافقة عليه ، والا فانه يأمرنا بالرجوع الى دمشق فماذا ترون ؟

فقالوا جميعا : « سبحان الله ، وهل بقى عندكم شك فى رغبتنا فى بقائكم وتمسكنا به ؟ »

ـ انا لا نسألكم يا جماعة المصلحين عن أنفسكم ولكن عن غيركم من المصريين .

قال صدر الدين ابن درباس : « والله ما أنصفتم المصريين ان حكمتم عليهم بقالة سوء أرسلها فاسق فجرت عفوا على ألسنتهم ، وأنتم تعلمون أن قلوبهم معكم على ذاك الذى أرسلها ابتغاء الفتنة وابتغاء ابقائهم عبيدا له » .

فصاحوا جميعا : « صدقت والله يا صدر الدين ، لقد عبرت عما فى نفوسنا جميعا » .

وتهيأ أسد الدين عندئذ للكلام فقال : « اننا نعرف بأنفسنا صدق ما قلتم، ولكن ماذا تقولون لو انتهت الأمور بمصر الى أن تكون ولاية من ولايات نور الدين أترضون ذلك ؟ »

فساد الصمت لحظة ثم قال نجم الدين : « لم لانرضى بذلك ؟ أليس نور الدين ملكا مسلما وهو خيرمن هذا العاضد ألف مرة ؟»

فاعترض أبو الفضل قائلا : « كلا يا نجم الدين ان هـذا لن يكون ، وما ذلك لأننا لا نرضى نور الدين ملكا علينا ، فانه أفضل ملوك العرب والمسلمين قاطبة ولكن مصر بلد عظيم يصح أن يكون غيرها ولاية تابعة لها ، ولكن لا يصح أن تكون هى ولاية تابعة لغيرها ، ونحن نريد لها أن تقوم من تلقاء نفسها بنصيبها الأكبر فى جهاد العدو ، وتحرير بلاد العرب والمسلمين لا أن تكون محمولة على ذلك مدفوعة اليه » .

فاستحسن الباقون كلامه ماخلا نجم الدين اذ قال : « تذكر يا أبا الفضل هداك الله أن الاسلام قد أبطل العصبية ، فانها من أخلاق الجاهلية » .

ـ كلا يانجم الدين ، هذه ليست عصبية ، ولكن مصـلحة المسلمين تقتضى استقلال هذا البلد ، وعدم تبعيته لغيره ، وان كان

حاكمه فى كمال نور الدين وفضله . والتاريخ أصدق شاهد ، فان مصر ما خضعت فى الاسلام الا للمدينة فى فجرها الأول على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ثم سادها الاضطراب بعد ذلك ولم يلبث أن وضح كيانها المستقل فى جميع العصور ، وقد ساعد ذلك على قيام دولة الطولونيين ثم الاخشيديين ثم هؤلاء العبيديين ، فهل كان ابن طولون يستطيع أن يقوم بما قام به من جهاد الروم بعد أن ملك الشام الى حدود الفرات ، لو لم يستقل بمصر ويجعلها عاصمة ملكه ؟ وهل كان فى الامكان أن تبقى دولة العبيديين فى مصر لو أن المعز لدين الله رجع الى المغرب واعتبر مصر ولاية تابعة له ؟ لقد أدرك المعز هذا المعنى فقصر اهتمامه على مصر وقطع صلته ببلاده الأصلية حتى نقل منها جثث آبائه فدفنها فى مصر . نحن لا ندعو الى عصبية يا نجم الدين ، ولكننا نريد أن تنطلق القوة الكامنة فى هذا البلد العظيم لخدمة العرب والمسلمين أجمع .

فأعجب الحاضرون بكلام أبى الفضل الا أنهم أشفقوا أن يضيق به أسد الدين وابن أخيه فما راعهم الا صلاح الدين يقول : « لله درك يا أبا الفضل ، لقد قلت الحق وشرحته أحسن شرح ، وانا قد اقتنعنا بهذا المعنى لا من التاريخ كما فعلت ، بل مما شهدنا بأعيننا من حال مصر وما أودع الله فيها من قوة لا تحد وغنى لا ينضب .

قال نجم الدين : « هذا كله حق ولكنا لا نريد أن نفرط فيما كسبناه من تعاونكم معنا ، اذا أصر نور الدين على أن يجعل مصر ولاية تابعة له »

قال أبو الفضل : « ان كان نور الدين لا يدرك هذا المعنى ،

فعلينا أن نشرحه له حتى يقتنع به ، وليس لنا أن نوافقه على كل ما يريد ، فنجور على مصلحتها ومصلحة العرب والمسلمين كذلك» .

فقال صلاح الدين : « هذا بيت القصيد . أن نور الدين لم يكلم عمى فى هذه المسألة ألبتة ولكن عمى رآكم تعدونه ليكون حاكما مكان شاور ، فبدا له أنه ان صار حاكم مصر فينبغى ألا يكون تابعا لنور الدين ، يعزله ان أراد ويستدعيه للرجوع اليه متى شاء ، فأحب أن يسمع رأيكم فى هذا » .

قالوا جميعا : « هذا غاية ما نريد »

ومضى صلاح الدين يقول : « ولعلكم تستطيعون الآن أن تدركوا سر تشبثه بابقاء العاضد فى ملكه ريثما يضمن قدرته على الاستقلال بمصر ، فانه لو خلعه اليوم لصارت مصر تابعة لنور الدين على التو »

قالوا : « الآن فهمنا سبب امتناعه عن ذلك على شدة الحاحنا عليه » .

وهنا قال أسد الدين : ان يوسف ابن أخى قد قال لكم جل مافى نفسى ، ولكن فاته أن يخبركم بأنى لا مطمع لى فى حكم مصر الا من أجل حرصكم على توليتى والا فانى مستعد أن أغادر بلادكم وأعود الى نور الدين .

فقال أبو الفضل : « كلا يا أسد الدين ، لن ندعك تذهب عنا ، وان حاولت ذلك منعناك بالقوة ، فانا لا نرضى أبدا أن يذهب سعينا الذى سعيناه سدى فنعود الى حكم شاور وحكم العاضد ، ويرجع الفساد فى مصر كما كان . كلا لامناص لك من أن تتولى حكم مصر مستقلا بها عن نور الدين ، ولكن متعاونا معه على

جهاد الفرنج ، ثم تخلع العاضد وتخلصنا من عرشه وعرش آبائه» •

فوافقوا جميعا على كلام أبى الفضل •

وتطلق أسد الدين عند ذلك ، وعاد اليه مرحه وخفته ، فأخذ يقول مداعبا : « بأى قوة تمنعنى يا أبا الفضل من السفر لو أردت ؟ بقوة شاور أم بقوة العاضد ؟ »

فتضاحكوا جميعا وقد شملهم السرور لما انتهوا اليه من حل جميل لهذه المشكلة ، ولكن أبا الفضل أجاب قائلا فى جده وصرامته : « بل بقوة الشعب يا أسد الدين » •

ثم التفت أسد الدين الى القاضى الفاضل ، فقال له مداعبا أيضا : وأنت يا عبد الرحيم ياكاتب انشاء شاور ، فيم سكوتك طول الوقت ، ولم تنطق بكلمة ؟ أتخشى أن ينقل كلامك الى شاور ؟

ـ قد كان هذا فيما مضى يا أسد الدين ، أما اليوم فما عدت أخشاه • انى ان طردنى شاور فسأعمل كاتب انشاء لك •

وهكذا انتهى الاجتماع بجو يسوده الصفاء والمرح •

ولكن جماعة المصلحين لم يتركوا العاضد دون حساب على القالة التى أرسلها ، فما فرغ ابن حكيم امام الجامع الأقمر من صلاة الجمعة التالية ، حتى خطب الناس خطبة بليغة ، تعرض فيها لتلك القالة ، وألمع الى الذى أرسلها ، حتى كاد يصرح باسمه وكان مما قال : « أيها المصريون ، لن يكون رجل ينفع بلادكم ، ويصلحها غريبا فيكم ا لا اذا كنتم أمة سوء ، فكنتم معه كما قال أبو الطيب :

أنا فى أمة تداركها اللـ ـه غريب كصالح فى ثمود

ولستم بحمد الله كذلك بل أنتم أمة خير وصلاح ، فلا غريب فيكم الا ذلك الذى يريد بكم السوء دائما ولا يحب لكم خيرا أبدا •

وبلغ العاضد ما حدث فقال لخاصته : « لقد هان أمرى على الناس حتى اجترأ على امام من جوامع آبائى »

ـ مرنا يا مولانا نأتك به ليلقى عقابه ..

ـ ويلكم كيف نعاقب رجلا دافع عن أسد الدين ورجاله ؟ اذن تثبت على أنفسنا أننا نحن الذين أرسلنا القالة ..

وقرر العاضد أن يكلم أسد الدين فى ذلك فأرسل اليه يستدعيه ، فلما حضر استقبله بالبشر والترحاب كعادته ، ثم قال له : « انى أعتب عليك يا أسد الدين أن تركتم امام الجامع الأقمر يعرض بى ويتهمنى أمام الناس بأنى صاحب القالة ، حتى جعلهم يتوهمون أن بينى وبينك شيئا وأنت تعلم منزلتك عندى واعجابى بك واعزازى لك فى السر قبل العلانية »

وبعد أن شكره أسد الدين على ثنائه الجميل قال : « لعلك قد علمت يامولاى أن هذا العهد قد أطلق كل امرىء أن يقول ما يشاء الا أن يقذف أحدا أو يمس عرض أحد ، أو يحرض على فتنة ، ومبلغ علمى أن امام الجامع الأقمر ، لم يأت شيئا من ذلك .

ـ لكنه أراد أن يفهم الناس غير الحقيقة فيما بينى وبينك .

ـ هذا أمر بيننا وكلانا يعرف حقيقة الآخر ، فليفهم الناس ما شاءوا ، فذلك لا يضير مودتنا فى شىء ..

ولما انصرف أسد الدين قال العاضد لخاصته : « ان الرجل قد حذق شيئا من الدهاء منذ نزل فى مصر » .

٦

واختفت القالة من ألسنة الناس كفرية قام على بطلانها ألف دليل ودليل ، فأخذوا يعجبون كيف كانوا يلغطون بها ، وهم يرون

حسنات العهد الجديد ماثلة أمام أعينهم فى كل مجال ، وكيف لم يكتشفوا فى الحال من ذا قالها ولأى شىء قيلت ، وان ذلك منهم لعلى طرف الثمام .

وانهم اليوم ليحمدون الله على ما وفى سلم ، اذ يرون العهد الجديد ماضيا فى سبيله أقوى وأثبت ممــا كان وأسرع ، فكأنما كانت تلك الفتنة نذيرا لرجاله ، أن حثوا الخطا فان الطريق بعد طويل ، وفوتوا العدو فانه على آثاركم لا يتوقف ساعة ولا يميل .

وأصبحت دار أسد الدين ديوانا لا تهدأ فيه الحركة ، ولا ينقطع فيه الزحام ، وكانت الرقاع والأوامر والمراسيم تنطلق من هذا الديوان الى ديوان الوزارة فيوقعها شاور بختم الوزير ثم تعود منطلقة الى ديوان أسد الدين ، فيجرى تنفيذها فى الحال .

وبلغ الضيق بشاور ذات يوم أقصاه ، فتوقف فى توقيع مرسوم من المراسيم ليعطله أو يؤجله ، فما كان من أسد الدين الا أن طلب المرسوم ، فلما عاد اليه أمر بتنفيذه من غير توقيع شاور ، وعلم شاور بذلك فصار يسارع بالتوقيع دون توقف أو تردد .

وظل كذلك برهة الى أن شعر يوما أن ليس فى امــكانه أن يستمر على هذه الحال ، فقد صار كأنه حامل أختام أسد الدين فحسب ، ولم يعد له رأى فى شأن من الشئون ولا أمر ولا نهى . وقد انقطع الناس عن ديوانه ، فلم يعد يتردد عليه أحد . حتى رسول أسد الدين صار يغشاه مرة واحدة فى اليوم يحمل اليه الرقاع والأوامر جملة واحدة ليوقعها شاور جميعا فيمضى بها الى أسد الدين ثم لا يعود اليه الا من الغد برقاع جديدة ، فيقضى شاور بقية يومه فى ديوان الوزارة لا يصنع شيئا ولا يعرض عليه شىء .

وينظر الى من بقى من كتبة ديوانه وموظفيه ــ فقد طلب أسد الدين كثيرا منهم فانتقلوا الى ديوانه ــ فيراهم جالسين لايصنعون شيئا ، وانما يقضون وقتهم فى الحديث وتبادل النكات والملح ، فيضيق صــدره بهم ويود لو يصرفهم الى بيوتهم لئلا يشــهدوا ما وصلت حاله اليه ، فقد صار يخجل منهم ، ويتوهم كلما تناهت اليه أصواتهم يضحكون من نكتة يتبادلونها أنهم يتندرون عليه •

وكان كاتب انشائه القاضى الفاضل هو وحده الذى يجلس اليه ويأتنس بالحديث معه ، ويفضى اليه بذات صدره ، فــكان جل حديثه الشكوى من هذا الزمان الذى يخفض الرفيع ويرفع الوضيع ، ويذل الأصيل ويعز الدخيل ــ يعنى بالأصيل نفســه وبالدخيل أسد الدين ــ والقاضى الفاضل يجاريه فى ذلك ويعزيه ويسليه جهد ما يستطيع ، حتى اذا قام شاور من عنده وصعد الى داره انكب هو على الكتب التى أحضرها معه من مكتبته الخاصة يطالعها فى شغف الى أن يجىء موعد انصراف الديوان فينصرف •

وجلس ذات يوم مع شاور كعادته ، فقال له شاور : « انى لم أعد أطيق هذه الحال يا عبد الرحيم ، والله لقد صار هذا الديوان عندى كأنه سجن مطبق وان هواءه ليكاد يخنقنى ••

ــ فقال القاضى الفاضل متلطفا : « لا حيــلة لك الا الصبر يا أبا شجاع حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا • »

ــ الصبر ! والله لو ابتلى أيوب بمثل ما ابتليت به لانفجر ••

ــ فلتكن أنت أصبر من أيوب •

ــ آه يا ليتنى كنت مغرما بهذه الكتب مثلك فأتعزى بها ••

ــ ان شئت أعرتك منها ما تحب •

ـ ويحك يا عبد الرحيم .. شاور بن مجير السعدى يقلب صفحات الكتب وغيره يأمر وينهى فى البلاد .

ـ فاذا أنت صانع يا أبا شجاع ؟

ـ لقد حدثتنى نفسى أن أترك دار الوزارة لأســـد الدين وعصابته وأنتقل انا بأهلى الى بيتنا بيت سعيد السعداء .. فمارأيك؟

ـ وترسل اليك الرقاع هناك ؟

ـ ترسل أو لا ترسل .. ذلك لايعنينى بل صار يملأ قلبى فيحا أن أوقع على أمور ينسب فضلها الى سواى . سأترك لهم ختمى هنا ليوقعوا به على ما يشاءون .

ـ وأنا يا أبا شجاع ماذا يكون مصيرى ؟

ـ قد فكرت أيضا فى أمرك يا عبد الرحيم ، فأرى أن تبقى فى مكانك تعمل كاتب انشاء له على حالك ، فانه لن يستغنى عنك ..

فأطرق القاضى الفاضل لحظة ثم قال : « ولكننى لن أجد عنده ما عندك يا أبا شجاع : فماذا لو استقلت ؟ »

ـ كلا لا تفعل ، فقد يظنون أنك ممن يعادى عهدهم هــذا الذى سموه العهد الجديد .

ـ ليظنوا ما شاءوا فانى لا أبالى ..

ـ أنت فى حاجة الى راتبك .

ـ سيغنينى الله عن ذلك .

ـ أمن أجلى تصنع ذلك ؟

ـ أجل فانى لا أستطيع أن أتلون ألوانا يا أبا شجاع .

ـ ويحك فابق فى منصبك اذن من أجلى لعلك تستطيع غدا أن تنفعنى بشىء .

وأدرك القاضى الفاضل ما يرمى اليه شاور ، وقد استدرجه بهذا الحديث ليبوح له بهذا السر ، ولكنه تجاهل ذلك .

ـ كيف يا أبا شجاع ؟

ـ لا أستطيع الآن أن أخبرك بشىء ، ويلك ياعبد الرحيم جئت أستشيرك فى أمرى فتناسيته واهتممت بأمر نفسك .

ـ لا تنس يا أبا شجاع أن أمرى من أمرك ، أتريد أن تعرف رأيى فيما ذكرت ؟

ـ نعم ماذا ترى ؟

ـ افعل فهذا أحفظ لمقامك وأصون لكرامتك ، ولأن تتقدم اليهم بذلك الآن من تلقاء نفسك متفضلا متكرما خير من أن يحملوك عليه غدا اذا بدا لهم ذلك .

فلما كان الغد ، ذهب القاضى الفاضل الى أسد الدين رسولا من شاور ليبلغه ما عزم عليه من النزول له عن دار الوزارة رغبة منه فى التيسير على أسد الدين فيما يضطلع به من المهام .

وأسر اليه القاضى الفاضل بكل مادار بينه وبين شاور ، فقال له أسد الدين : « هذا خير .. أره أنك معه الى النهاية حتى يبوح لك بأسراره فنتقى مكائده ودسائسه ، ارجع اليه فبلغه شكرى لأريحيته وحسن صنيعه »

ومالبث شاور أن انتقل الى بيت سعيد السعداء ، فانتقل أسد الدين الى دار الوزارة ، فأقام فيها ونقل اليها ديوانه . وفرح رجال العهد الجديد بهذا النصر الذى جاء يسعى اليهم دون أن يسعوا اليه ، وكان لانتقال ديوانهم الى ديوان الوزارة واستغنائهم عن مراجعة

شاور وانتظار توقيعه على الأوراق أثر كبير فى تسـهيل الأعمال وتأديتها على وجه أكمل وأسرع •

وانطلقت أعمال الاصلاح والتعمير فى كل مجال ، فمن تأمين السبل والقضاء على اللصوص وقطاع الطرق ، الى تحصين البلاد وعمارة أسوار القاهرة والاسكندرية وبلبيس وتقـوية قلاعها وحصونها ، وتعزيز ثغر الاسكندرية وثغر دمياط ، وتقوية الجيش وتشجيع المصريين على الانضواء فيه حتى يتكون جيش جديد من ذات الشعب لا يدين بولائه للاسرة الفاطمية ، ولا يستعمل سوط عذاب على الرعية ، ولا يساق كالأنعام ليحالف أعداء العـروبة والاسلام على أبناء العروبة والاسلام •

وفى هذا السبيل اهتم العهد الجديد بتدريب الشباب عـلى أعمال القتال لا ليتولوا الدفاع عن مصر غدا فحسب ، بل لينطلقوا مجاهدين فى سبيل الله ليقوموا بالنصيب الأكبر فى طرد العـدو الدخيل من الوطن العربى كله •

وأنشئت مراكز للتدريب فى كل حى من أحياء العاصمة ، وفى بعض الأحياء التى تم عمرانها من مدينة الفسطاط الجديدة ، وتطوع كثير من الفتيان فانخرطوا فى تلك المراكز بين مدربين ومتدربين ، وكان فى طليعة المتطوعين لتدريب الشباب شجاع بن شاور

٧

وقد وجد شجاع فى هذا العمل الحبيب الى نفسه عزاء من هم كان يؤرقه وما زال ، ومهربا من حيرة كانت تزلزله وما برحت •

يا ويح هذا الشاب ، ما أشد ماقست الأيام عليه !

لقد ظن يوم قدم أسد الدين القاهرة ، وخرج أبوه فى كوكبة

من رجاله ، وخرج هو مع رفاقه المغاوير من فرقة الموت يستقبلون القادم الكريم مع ألوف المستقبلين من جميع طبقات الشعب ، أن همومه قد ذهبت ولن تعود ، وأن مواجعه قد شفيت ولن تنتكس .

هذا أبوه وأسد الدين يسيران متصافيين فى الموكب السعيد ، وهذه جموع الشعب تحييهما فرحة مستبشرة ، وقد ذهب العدو مدحورا واصطلح الصديق مع الصديق . وهذا أبوه فى الأيام التالية ليوم الموكب يتردد الى أسد الدين ، ويجلس الى شجاع فيحدثه بما شهد من مودة أسد الدين وحفاوته ، ويعيد عليه ما قاله أسد الدين فى الثناء عليه فيما أوقع بحامية الفرنج ، وفيما دافع جيشهم بعد ذلك حتى أجلاه عن البلاد ، فكفى أسد الدين شر قتالهم فى أرض مصر ، فيطرب شجاع لحديث أبيه ، ولا يمل سماعه ، وهو يعيده مرة بعد مرة .

ولكن الأيام مالبثت أن أخلفت ظن شجاع ، اذ خيبت رجاء أبيه ، رجع شاور ذات يوم من عند أسد الدين ، فاذا على وجهه عبوس ، واذا هو ينفخ ويتأفف ، قال له شجاع : « ماخطبك يا سيدى ؟ ألم تجد أسد الدين هناك ؟ » .

فأجابه شاور متأففا متكرها ، كأنما يقتلع القول من لهاته اقتلاعا :

ـ بلى وجدته : أين يذهب ؟ انه باق هنا الى يوم القيامة .

فاضطرب شجاع لما سمع وتوجس شرا ، ولكنه تجلد وتماسك .

ـ ماذا جرى ياسيدى ؟ هل وقع بينكما شىء ، لاسمح الله ؟

لم يقع شىء جديد الشىء القديم بينى وبينه لايمكن أن يزول .

ـ لكن هذا قد زال أمس فماذا جد اليوم ؟

فصاح شاور منفجرا : « ويلك ! أجئت تحاسبنى ؟ دعنى الساعة فانى ضيق الصدر » .

فتقهقر شجاع ناحية الباب ليخرج ، ولكنه لم يستطع أن يترك أباه قبل أن يعرف جلية الأمر منه فتقدم ثانية اليه .

ـ يا سيدى اغضب على ماشئت ، ولكن أخبرنى بما جرى لعلى أستطيع أن أصنع شيئا ..

ـ أجل .. تستطيع أن تصنع له هو لا لى .. أنت تشفق عليه هو لا على أبيك ؟

ـ معاذ الله ياسيدى ! أنت والدى ، فلا أسد الدين ولا غيره يمكن أن يفضلك فى قلبى .. علام ياسيدى تشك فى حبى لك ؟

وشعر شاور أنه قد قسا على ابنه بغير حق ، فقال وقد عادت الرقة الى قلبه : « كلا يابنى ما أشك أنك تحبنى ، ولكنك لا تقدر أن تصنع لى شيئا فى هذا الأمر ، فدعنى وهمى ولا تثقل به قلبك .

ـ ان همك ياسيدى من همى ولا أستطيع أن أراك مغتما ولا أغتم .

فأجلسه شاور ، وطفق يحكى له مادار بينه وبين أسد الدين ذلك اليوم ، وكيف أن أسد الدين يتهرب من الاتفاق معه على شىء ، ويداوره ولا يريد أن يصارحه ، حتى أيقن اليوم أنه يريد به سوءا ويبيت له شرا ، وأنه ينوى أن يبقى فى مصر ، وينتزع منه الحكم »

وحاول شجاع أن يسرى عن أبيه فطفق يهون عليه الأمر ، ويقول لعله يقصد كذا ، ولعله ينوى كذا ، فيجادله أبوه ويقول : ويحك يابنى ! لا أحد يستطيع أن يخدعنى !

ومنذ ذلك اليوم عادت هموم شجاع وآلامه ..

وقد هم أن يذهب الى أسد الدين فيكلمه فى هذا الأمر لعله

يجد عنده ما يزيل شكوك أبيه ، ولكن ماذا يقول لأسد الدين ؟

أأقول له : يا أسد الدين ان أبي يخشى أن تبقى في مصر وتنتزع الحكم منه ؟ هذا كلام لا يقال . وهبني قلت له هذا ، فأى شيء يحمله على مصارحتي بما لم يشأ أن يصارح به أبي ؟ بل هبه صارحني مخلصا وأكد لي أنه لاينوى هذا الذى ظنه أبي ، فكيف أقنع أبي بذلك ؟ أولا يعتقد أن أسد الدين قد داورني كما داوره هو من قبل ؟ ثم ماذا أقول له لو قال . نعم ، انى سأبقى فى مصر لأن شعبها يريدنى مكان أبيك ؟ أأقول له : كذبت ، هـذا غير صحيح ؟ أم أقول له : لا حق لك في ذلك وان أراد شعب مصر ، فان أبي هو صاحب الحكم وان رغم الناس كلهم أجمعون ؟

وكان همّ شجاع كالخنجر ذى الحدين ، يدمى قلبه أنى تحرك يمنة أو يسرة ، فهو يخشى على أبيه من أسد الدين ، كما يخشى على أسد الدين من أبيه . لوكانت الأولى وحدها لكان الأمر هينا ، اذن لسعى جهده ، مع أبيه وكافح فى سبيله بكل ما أوتى من قوة ، فاما أن ينتصر أبوه فيرضى ، واما أن ينهزم فيستريح هو مما يقاسيه من عذاب الحيرة والقلق . ولو كانت الثانية وحدها لكان الأمر أهون اذن لأنذر أسد الدين بما سمع من شاور وحذره مما يحتمل من كيده وغدره ، وحرضه على أن يتغذى بعدوه قبل أن يتعشى عدوه به ، ولن يجد أسد الدين صعوبة فى الايقاع به لان قلوب الناس معه .

وعلم بتسلل أبيه الى القصر ، فقلق ، وأشفق أن يتواطأ مع العاضد على مالا يرضاه الله والوطن . وسأل أباه حين رجع من القصر : أين كان ، فارتبك وغمغم ، ثم زعم له أن العاضد كان قد

استدعاه منذ ايام فذهب ليقابله اليوم فوجده معتكفا لا يقابل أحدا لوعكة أصابته ، فأحس شجاع بأن أباه قد أخفى عنه الحقيقة ، فتعاظم قلقه وزادت وساوسه •

وحدثته نفسه أن يذهب الى أبى الفضل ليكاشفه بما فى نفسه لعله يجد عنده مخرجا ، ولكنه تذكر أن الأمر لا يتعلق بسره هو بل بسر من أسرار أبيه • وأبو الفضل ليس على وفاق مع شاور منذ حريق الفسطاط ، وقدوم أسد الدين لم يزل ما بينهما من خصام وان لطفة فى الظاهر ، فصارا يتصافحان أمام الناس اذا التقيا ، ويكلم أحدهما الأخر ، ولكن باطنهما لم يزل فيه مافيه ، وقد حاول شجاع مرارا أن يصلح بينهما فلم ينجح لا مع أبيه ولا مع أبي الفضل » •

أواه ! ان أبا الفضل كان ولم يزل النجى الأمين الذى يلجأ اليه شجاع كلما حزبه أمر ، فيجد من رأيه ومشورته ما ينير له السبيل ، ولكنه لا يستطيع اليوم أن يلجأ اليه ، فالى من يلجأ ؟

أيلجأ الى القاضى الفاضل ؟ انه صديق أمين وانه لذو عقل ورأى ، ولكنه لن يجد عنده فى هذا الشأن مايريد ، لأنه أمين سر شاور ولا يقبل أن يخوض فى مثل هذا حتى مع شجاع •

أيلجأ الى والدته ؟ لكنه يعرف ماذا هى قائلة له : « ان أردت الخير والبركة فلا تعترض على والدك فى شيء » وقصارى مايفيد من ذلك لو فعل أن يثقل قلبها بهم جديد •

أيلجأ الى زوجته ؟ انها لعطوف ودود وانها لذات عقل ورأى ، ولكنها ابنة أبى الفضل ومشربها من مشربه ، ولا تخلو مكاشفتها بسر أبيه هذا من حرج •

أواه . هذا سر لا ينبغى أن يكاشف به أحدا حتى سمية !

وأحس بوطأة المصاب اذ شعر بالوحدة القاتلة تأخذ بتلابيبه حتى تكاد تكتم أنفاسه . ولم يتنفس الصعداء الا حين جاء أسد الدين ليزور أباه ، فنزل شجاع من أعلى الدار مسرعا فاستقبله حتى دخل به عند أبيــه فى الديوان ، وتمنى لو دعاه كلاهما أو أحدهما لشهود مجلسهما حتى يسمع ما يقولان ، ولكن ذلك لم يحدث فانسحب .

وحدثته نفسه أن يسترق السمع اليهما من مكان قريب ، ولكنه استهجن ذلك ورآه لا يليق فوقف غير بعيد منتظرا على أحر من الجمر ، وهو يدعو الله فى سره أن يجعل هذه الزيارة المفاجئة بشارة خير ومفتاح فرج .

واستدعى القاضى الفاضل فدخل عندهما ثم خرج فأسرع اليه شجاع يسأله فقال له : « ان الوزير أمرنى أن أكتب له أمرا بأن تعطى جنود أسد الدين دورا يسكنونها فى القاهرة ، ولما أراد شــجاع أن يســـــتوضحه قال له : « دعنى أكتب الأمر أولا ثم استوضحنى بعد ذلك » .

وخرج أسد الدين لينصرف ، فحرس شــجاع على تشييعه ليتفرس فى وجهه فرآه طلقا متهللا ، فاستبشر خيرا ، ثم انطلق الى القاضى الفاضل ليستوضحه فلم يجد عنــده جوابا اذ قال له : « اذهب الى أبيك فسله » .

ودخل عند أبيه فوجده مطرقا واجما ، فاكتأب وتوجس سوءا ، ولكن شاور لم يلبث أن رفع رأسه وأبدى الرضا والطمأنينة قائلا: « ادخل ياشجاع ، أتريد أن تعرف مادار بينى وبين أسد الدين ؟

اليوم ؟ لقد أراد العاضد أن يكيد لى فوعد أسد الدين بأن يأمر لرجاله بدور يسكنونها فى القاهرة ، فأحبطت كيده ، اذ سبقته فأمرت أنا لأسد الدين بذلك ، ليعلم كل منهما أننى أنا صاحب الأمر والنهى » .

وفهم شجاع من بقية حديث أبيه أن أسد الدين قد نوى حقا أن يقيم طويلا بمصر نزولا على أمر نور الدين ، ولكن ليس ثم ما يؤيد خوف أبيه أنه سينتزع الحكم منه ماظل أبوه متعاونا معه على تحقيق مايريده نور الدين من توحيد القوى لمحاربة الفرنج. وفيما صنعه اليوم مايبشر بذلك ، وحسنا فعل اذ سبق العاضد الى هذه المكرمة ، فلعل العاضد قد نوى حقا أن يتقرب الى أسد الدين على حساب أبيه فأحبط أبوه تدبيره ، فسر شجاع لهذه النتيجة ، واطمأن باله ، ولم يشأ أن يسترسل مع أبيه فى هذا الشأن خشية أن يسمع منه مايكره ، فيقلق باله من جديد .

وسمع نبأ الدار التى نزل بها أسد الدين فى سرة العاصمة ، وأنه أخذ يستقبل الناس فيها أفواجا أفواجا ، فلم ينكر من ذلك شيئا ، فقد كانوا يتوافدون عليه فى معسكره خارج القاهرة ، فأحر بهم أن يتوافدوا عليه اليوم وقد صار بينهم داخل العاصمة . وعزا ارتياب أبيه بذلك الى ماداخله من الغيرة الطارئة التى لاتلبث أن تزول .

وهكذا قدر لشجاع لما شغله من هم أبيه ألا يشعر ببداية قيام العهد الجديد الذى كان هو نفسه من بناته الا بعدما شعر به عامة الناس

وأخذت الرقاع ترد من أسد الدين الى ديوان أبيه ليوقعها ، فأحس حينئذ برثاء لأبيه الذى يحاول جاهدا أن يكتم مايعانيه من

الموجدة والأسى ، مظهرا أنه لايزال صاحب الأمر والنهى حيث يختم الرقاع ويخط بقلمه توقيعها •

وامتزج فى قلب شجاع هذا الرثاء الشديد لحال أبيه ، بفرح شديد للعهد الجديد الذى أحس به الآن ينبض فى كل عرق من عروق البلاد ليحييها بعد موات ويبعثها بعد همود ، فكان شعوره عجبا من العجب وكان موقفه من ذلك أعجب •

انه ليشعر برغبة شديدة فى اعلان سروره واستبشاره ، ولكنه لايستطيع ذلك اشفاقا على أبيه أن يظنه شامتا فى الشامتين • وقد صار لا يستطيع أن ينظر الى وجه أبيه الا اختلاسا خشية أن يلمح أبوه دلائل السرور فى عينيه فيتضاعف أساه الدفين •

وقد كان من حظه فى أول الأمر أن شاور كان يتجلد تجلدا شديدا ، فلم يظهر تضعضعا لأحد من أهله ولا من غير أهله ، فظل بينهم على حاله من الشموخ والوقار كأن الأمور ماتزال تجرى فى البلد بأمره ، وكأن هذه الاصلاحات التى تتم على قدم وساق ، انما هى من تدبيره بالاتفاق مع أسد الدين ورجاله ، فكفى شجاعا بذلك حرج الموقف أمام والدته التى يعزها غاية الاعزاز ، فكان لايرى بأسا اذا جلس اليها فى غير مشهد أبيه أن يحدثها بما يجرى فى البلد من اصلاح ، وتعمير ، وما لأبيه فى ذلك من فضل كبير ، اذ قبل أن يتعاون مع أسد الدين على مافيه صلاح البلد وخير الشعب

وقد غاب عن شجاع أن والدته تدرك من حقيقة الحال مثل ما أدرك فقد أحست بما يعانيه زوجها من القلق والأسى ، وان لم تشأ أن تظهر ذلك لزوجها مراعاة لشعوره ، ومجاراة له فيما اختار لنفسه من مظهر التجلد والتجمل ، ولا لابنها كراهية أن تكشف

له ضعفا يحرص أبوه على كتمانه .

أما سمية ، فقد كان موقف شجاع منها أعجب وأغرب ، فانه على فرط حبه لها وشدة تعلقه بها ، يشعر شعورا خفيا بأنها عين لأبيها على أبيه . واذا كان أبو الفضل قوى الارتباط بأسد الدين حتى فى صلاتهما الظاهرة للناس ، فانه يجد حرجا فى الافضاء اليها بذات صدره فيما يتصل بحقيقة موقف أبيه مما يجرى اليوم فى البلاد . آه لو يستطيع أن يكاشفها بما فى صدره ، اذن لربما وجد من عطفها وحنانها ما يسرى بعض الهم الذى يعتلج بين جوانحه .

وتحس سمية بما يحس به زوجها الحبيب فترثى لحاله ،وتتألم لما به ، ولكنها لاتستطيع أيضا أن تكاشفه فيما لم يشأ هو أن يكاشفها فيه .

وظلت الحال على ذلك الى أن بدىء بتجديد عمارة الفسطاط، وظهر من شاور ماظهر من الاهتمامالشديد بهذا المشروع والنشاط البالغ فىتنفيذه حتى أشعر الناسجميعا بأنه هو القائم الأول فى هذا السبيل ، فحينئذ تغير الموقف فى بيت شاور كما تغير خارج بيته ، فاستطاع أن يعلن فرحه العارم من غير تحفظ أمام أبيه وأمام والدته وأمام زوجته وأمام الناس أجمعين .

وتكاشف أهل بيتشاور بعضهم لبعض حين أحسوا جميعا أن أباهم قد عاد حقا رب الموقف ومالكالزمام ، وأنتلكالسحابة القاتمة التى كانت تغشى مابينه وبين أسد الدين قد انقشعت ،فاذا هما يد واحدة تعمر من الفسطاط ما أتلفه الحريق ، وتصلح لأهلها فى هذا السلم المستتب ما أفسدته ويلات الحرب .

وقد ضاعف سرورهم أن أبا الفضل قد مد يده الىشاور فعاد

الصفاء بينهما من جديد وعاد التزاور بين البيتين كما كان. وانطلق شجاع يساعد أباه فى الاشراف على حركة البناء فى تلك المـدينة الحبيبة الى نفسه لمـا تضمه من ذكريات غالية تتصل بتلك الأيام التى كان يختلس فيها ساعات اللقاء بحبيبته اختلاسا .

وصار فى خـلال ذلك ، يتردد على ديوان أسد الدين كأنه ديوان أبيه لا فرق بينهما عنده ، فكلاهما يموج بالحركة فى تلك الأيام ولا يستريح كتبته وموظفوه ساعة من نهار لكثرة ما بأيديهم من الأعمال ، وتوافد اللاجئين واللاجئات من أهل الفسطاط ، كل ينتظر أن يعطى نصيبه من المعونة ليشرع فى انشاء بيته من جديد .

ولكن هذه الحال لم تدم ، فما كادت هذه الحركة الدائبة فى الديوانين تخف بعد أن فرغ معظم المستحقين من أهـل الفسطاط من أخذ ما فرض لهم من المعـونات فانتقلوا الى مدينتهم يبنون ويعمرون ، حتى أخذ ديوان شاور يعود الى ماكان عليه من السكون والخـواء ، من حيث بقى ديوان أسـد الدين على حـاله ينبض بالحياة ، ويموج بالحركة ، وينمو بما يجد من الأعمـال ، ويزيد عـدد العاملين فيه بمن يسحبهم أسد الدين من كتبة ديوان شاور وموظفيه فيضمهم اليه .

ذلك أن شاور لم يستطع أن ينبرى للنهوض بأعمال الاصلاح الجديدة انبراءه لتجديد عمـارة الفسطاط ، اذ لم يجد فى نفسه انبعاثا لذلك فتخلف عن المشاركة الجادة والمعـاونة الفعالة ، فعاد كما كان قانعـا بالتوقيع على ما يرسله الديوان الجـديد اليه من الأوامر والرقاع .

ولم يلبث أن عاوده الضيق كما كان بل اشتد فى هذه المرة حتى

لم يعد قادرا على تجلده وتجمله السابقين ، فصار يعلن تبرمه وتضجره لأهله ولغير أهله ، وقد أحس أن شمسه قد أفلت فلن يرجى لها طلوع .

وكان أكثر ما يعلن ضيقه وتبرمه لابنه شجاع ، وهو يشعر شعورا خفيا بأن ابنه هذا مسؤول عما أصابه من السقوط والادبار وأن له يدا فى ذلك ، وأنه لولاه لكان له مع هؤلاء شأن آخر ، ولما وصل على أى حال الى هذا الدرك من الذل والمهانة .

ولم يستطع أن يكتم هذا الشعور عن ابنه فصار يصارحه به كلما جره الحديث الى ذلك . فكان شجاع يتألم ولا يقول شيئا ويمضى شاور فى ذلك يسوق الحجج الواهية والبراهين المتهافتة ، فيحيلها ببلاغته وبيانه كأنها حجج بالغة وبراهين دامغة حتى اعتقد شجاع آخر الأمر أنه مسؤول عن ذلك حقا ، أو كاد . وكان شاور ربما راجع نفسه فى ذلك بعض الأحيان فاستسخف شعوره هذا الذى لا يقوم عليه برهان ، فلا نكران أن شجاعا أبر أبنائه جميعا به ، وأصدقهم حبا له ، ولكنه لا يلبث أن يعود الى هذا الظن المتغلغل فى نفسه فيحس — لا يدرى كيف — أن شجاعا كان يقف دونه كالرقيب على أعماله ، فيحد من حريته وانطلاقه ويحول فى كثير من الأحوال بينه وبين وسائل لو اتخذها لتغير مجرى الحوادث ، فلم يبلغ أعداؤه منه ما بلغوه . وكان كثيرا ما يقول له كلما تم عمل جديد من أعمال الاصلاح : « افرح واطرب يا شجاع ، فان أصحابك قد قاموا اليوم بعمل جديد » فيسكت شجاع على مضض .

ولما قرر شاور ما قرر من ترك دار الوزارة لأسد الدين لم يستشر شجاعا فى ذلك ولم يخبره ، فما علم شجاع الا من والدته

وزوجته حين رجع الى الدار فرآهما منهمكتين فى حزم الأمتعة لنقلها الى بيت سعيد السعداء ، فكتم شجاع ما فى نفسه ولم يبده لهما .

ولما قابل والده لم يعتب عليه أنه أخفى هذا الأمر عنه ، كما ينتظر أن يفعل ، بل قال له : « لقد أحسنت ياسيدى فى هذا القرار الذى اتخذته ، ستستريح ان شاء الله فى بيت سعيد السعداء بعيدا عن هذه الدار التى أضحت كالسجن لنا جميعا » .

فكان جواب أبيه له أن قال : « أجل ، لا ريب أن هذا يسرك ويطربك . سيتم لأصحابك غدا كل مظاهر الحكم والسلطان » .

وكان شجاع حريا أن يفرح لما انتقل مع أبيه وأهله الى بيت سعيد السعداء لولا ذلك التقريع الدائم الذى يلقاه من أبيه ، وقد احتمل ذلك طويلا لا يعارضه ولا يرد عليه الى أن نفد صبره يوما ، فذهب الى أمه دامع العين ، كسير القلب ، فشكا اليها ما يلقي من اضطهاد أبيه على غير ذنب جناه فجعلت أمه تصبره وتواسيه واعدة اياه بأنها ستكلم أباه فى ذلك .

وما راعه من الغد الا أن دعاه أبوه متلطفا على غير عادته ، فاعتذر له عما كان منه فى حقه ، وقال له «سامحنى يابنى ، فقد ذهب هذا الخطب بلبى ، وان مثله لخليق أن يذهب بلب الحليم »

واستبد الفرح بشجاع فعانقه وهو يقول : « أستغفر الله يا سيدى والله ماكان قصدى أن تعتذر الى ، فمن أنا حتى أسامحك؟ وانما جل قصدى أن ترضى عنى ، وقد فعلت الساعة ، فالحمد لله » .

ثم اقترح شاور على ابنه أن يرحل مع عروسه الى ضيعة له فى قليوب ، ليقضى فيها برهة يروح فيها عن باله ، فوقع هذا الاقتراح موقع الرضا من نفس شجاع ، فقد كان بحاجة شديدة الى الترويح

والتفريج ، ولكنه لم تطاوعه نفسه أن يترك أباه وحده وهو فى هذه المحنة ، فاعتذر اليه قائلا : «انى أفضل ياسيدى أن أبقى هنا بجانبك»

ولكن شاور ألح عليه قائلا : « بل تذهب بسمية معك لتسرى عنها فانها لم تقض معك أياما سعيدة منذ تزوجتها » .

فقال شجاع متنصلا : « لاتشغل نفسك ياسيدى بأمر سمية فانها راضية كل الرضا ولا تشكو شيئا » .

ـ اسمع كلامى .. انى أريدك أيضا أن تتفقد الضيعة ، فقد أهملناها من زمن قديم .

ـ أما هذا فحبا يا سيدى وكرامة ..

وفرحت سمية بالخبر ، فقد كانت فى أشد الحاجة الى التفريج عن كربها الحبيس كما فرحت زبيدة أيضا اذ أشفقت على ابنها مما كابده من الهم الثقيل ، فرجت أن يجد فى رحلته هـذه بعض التسرية والترويح .

٨

وكانت الأيام التى قضاها شجاع وسمية فى قليوب من أسعد أيام حياتهما المليئة بالهموم والآلام ، فقد شعرا كأنما تجدد عرسهما ، وكأنهما يستأنفان حياة جديدة كلها حب ودعة وسلام فى حضن الطبيعة الرءوم .

وقد ارتفع ذلك الحجاب القائم بينه وبينها من جراء موقفهما من شاور ، فأصبحا يتكاشفان فى كل شىء حتى فيما يتصل بأمر شاور ، فصار شجاع لا يجد حرجا فى أن يقص عليها كل ما عانى فى هذا السبيل من محنة ومن كيد ، وكأنه انما يقص عليها حلما مزعجا انتبه منه مرعوبا فحمد الله على أن ما شهده كان مناما لا حقيقة .

وفى هذا الجو الطليق استطاع شجاع أن يفكر فى أمر أبيه تفكيرا هادئا غير متأثر بعاطفته نحوه ولا بهيمنته عليه ، فأخذت الأمور تنجلى له على حقيقتها أوضح من ذى قبل ، فاذا هو قد فرط كثيرا فى حق العهد الجديد من جراء أبيه ، ولم يفرط فى حق أبيه من أجل أسد الدين الا قليلا على خلاف مازعم أبوه .

فهذا العهد الجديد قد قام فاشترك الصغير والكبير فى نصرته وتأييده ، وانبرى كل قادر على شىء فعاونه بما يقدر عليه ، ولكنه هو لم يصنع شيئا ولم يشترك فى شىء ، اللهم الا ذلك الجهد الضئيل الذى بذله فى ابان عمارة الفسطاط حين رأى اهتمام أبيه بذلك فعاونه عليه . وكان حريا به أن يكون فى طليعة العاملين المجتهدين فى بناء هذا العهد وتثبيت قواعده وأركانه لولا ماشغله من أمر أبيه ، فألهاه عن كل شىء .

وقر عزمه أن يكفر عن ذلك حين يعود الى العاصمة ، فيتطوع فى عمل من الاعمال ، وما أكثرها فى هذا العهد الذى أتاح المجال للكفايات التى كانت مغمورة فبرزت أو محبوسة فانطلقت تعمل وتبدع .

ولكن علام ينتظر حتى يعود الى العاصمة ؟ ألا يستطيع وهو فى عزلته الجميلة أن يقوم بعمل نافع ؟ بلى انه ليستطيع .

وهبت سمية ذات صباح فاذا زوجها يقول لها : « هلمى يا سمية معى الى الحقول لأعلمك الرماية هناك » .

فسألته ضاحكة : « الرماية ؟ .. »

ـ أجل .. الرماية والمسايفة وركوب الخيل وسائر أعمال القتال .

وظنته فى أول الأمر يمزح ، فلما رأت الجد منه تعجبت ..

ـ أى شىء دفعك الى هذا يا شجاع ؟

فأخبرها أنه قد فكر فى ذلك منذ شـهد ماحدث للنسـاء من الترويع حين غزا الفرنج البلاد ، فهتكوا أعراض كثير من الحرائر لعجزهن عن الدفاع عن أنفسهن ، ولكن لم تتح له فرصة لتنفيذ ذلك حتى اليوم .

واستحسنت سمية الفكرة فى الحال ، ولـكنها أرادت أن تحاوره ليقول لها كل ما عنده ، فسألته : هل يظن أن الفـرنج سيعودون مرة أخرى ؟ فأجابها متحمسا : « ان الحرب قائمة بيننا وبينهم ، فان لم تدر معارك فى ديارنا فستدور فى ديارهم ، ولن نضع السلاح حتى يخرجوا من الوطن العربى كله » .

وأحست سمية بحماسة عجيبة لما سمعت منزوجها ، وتذكرت ماكانت تسمع من أبيها فىهذا المعنى ،غير أنها لاتحسب أن أباها يوافق على اشتراك النساء فى أعمالالقتال لما تعرفمن رأيه فيهن .

وبدأت تتدرب على الرماية كأنها تلعبمعزوجها فىأولالأمر ، وما لبث أن تحول اللعب الى جد . ثم أخذ زوجها يدربها على ركوب الخيل وعلى استعمال الخنجر والسيف والرمح ، فـكانت سمية تجد لذة عظيمـة فى هذه الرياضـة ، ولا سيما اذ نظرت فى المرآة فوجدت وجهها قد زاد غضارة ونضارة .

ولم يقتصر شجاع فى خلال الأيام التى قضاها فى قليوب على تدريب زوجته سمية وحدها ، فقد اتصل بفتية من أهل قليـوب وصار يجمعهم فى ضيعته ويولم لهم ، ثم اقترح عليهم أن ينشئوا فرقة للدفاع عن بلدتهم اذا هاجمها مغير ، فاستجابوا لدعوته ، وأخذوا يتدربون على يديه فى أوقات خصصها لهم غير الأوقات التى كان يقضيها مع سمية .

وانقضت فى ذلك ثلاثة أشهر كأنها ثلاثة أيام .

وود الحبيبان لو بقيا مدة أطول فى قليوب ، لولا أنهما اشتاقا الى أهلهما ، واشتاق شجاع خاصة أن يطمئن على حال أبيه ، وأن يتطوع فى عمل من الأعمال بالعاصمة ، فارتحل بزوجته من قليوب بعد أن ترك فيها قلوبا فتية تنبض حبا له واعجابا به وحماسة للدفاع عن الوطن .

٩

ولما عاد شجاع الى القاهرة وجد أباه قد اجتهد فى تعمير بيته وتحسينه وأنفق فى ذلك أموالا طائلة حتى جعله أفخم وأبهى من دار الوزارة ، واستكثر من العبيد والخدم ، حتى صار عددهم أكبر ممن كانوا معه حين كان فى دار الوزارة . وأصبح هو فى حال حسنة من هدوء البال وانشراح الصدر ، وبشاشة الوجه ، وقد زايله ذلك العبوس والقلق والتشكى والتذمر فعجب شجاع مما رأى من تبدل حال أبيه ، ولكنه لم يلبث أن علم منه أنه قد قرر أن يعتزل حياة السياسة، ويريح باله من همومها وأثقالها، ليقضى ما بقى من حياته فى دعة وسلام ، فسر شجاع من ذلك سرورا كبيرا ، وحمد الله على أن انتهت حال أبيه بهذه الخاتمة السعيدة فلم يعد يخشى منه ولم يعد يخشى عليه .

وقد رابه قليلا أن أباه لم يفرح بعودته من قليوب كما ينبغى ، اذ كان يود لو بقى ابنه هناك مدة أطول ، ولكنه عزا ذلك الى حرص أبيه على سعادة ابنه وراحته ، ولا سيما وقد أصبح فى حال من الدعة والاستقرار لاتدعو الى وجود ابنه بجانبه .

قال شجاع لنفسه : «الآن أستطيع أن أقوم بواجبى لهذا العهد الجديد فأكفر عما سلف من تقصيرى فى خدمته » .

وانطلق الى أبى الفضل ، وكان قد صار خازنا لأموال الدولة اذ ذاك فزاره فى منزله ، حيث وجد سمية قد سبقته هناك لتقضى عند أهلها بضعة أيام ، فلقى منه الترحيب كعادته ، وجلسا يتحدثان فى شؤون شتى من خاصة وعامة . وأثنى أبو الفضل على ما قام به شجاع فى قليوب ، وان أخذ عليه تدريبه سمية على ما لا يجدر بغير الرجال ، فأخذ شجاع يدافع عن رأيه .

وكان مما احتج به أن الصحابيات فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كن يخرجن مع المقاتلين الى الميدان .

ــ ماكن يقاتلن بل يخدمن المقاتلين ويأسون الجرحى ويحملن الرواء للعطاش .

ــ بل كان منهن من اشتركن فى القتال .. وخاصة فى فتوح الشام على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ــ ما أحسبهن الا اضطررن الى ذلك ..

ــ قد تضطر نساؤنا أيضا ..

ومضيا يتناقشان دون أن يستطيع أحدهما أن يقنع الآخر بما ذهب اليه ، الى أن قال أبو الفضل فى النهـاية : « هى زوجتك على كل حال ، فأنت أولى بها منى ، وليس فيما فعلت من جناح ، وان كنت لا أميل اليه ولا أوافق عليه » .

وكانت سمية تسمع وتضحك دون أن تقول شيئا ، أما أمها فكانت تقول : مابقى فى آخر الزمان الا أن تخرج النساء لقتال الرجال .

واتنظر شجاع أن يرشحه أبو الفضل لعمل من الأعمال ، وقد

لمح له بذلك الا أنه آنس منه تحاشيا ، فلم يراجعه فى ذلك ، وانما عرض عليه رغبته فى التطوع لتدريب الفتيان على نحو ما فعل قديما يوم أنشأ فرقة الموت ، فاذا أبو الفضل يشجعه على ذلك ، ويقول له : « هذا أفضل عمل تقوم به اليوم ياشجاع فان القوة أهم مانحتاج اليه فى هذا العهد ، وقد قرر أولو الأمر أن ينشئوا مركزا لتدريب الفتيان على حمل السلاح ، فحبذا لو تطوعت أنت فى هذا السبيل » .

وانصرف شجاع من عند أبى الفضل وفى نفسه بعض العتب ، الا أنه مالبث أن التمس لأبى الفضل عذرا فيما فعل ، فلعله كره أن يرشحه لمنصب من المناصب خشية أن يظن به المحاباة ، أو لعله خشى ألا يثق أولو الأمر بشجاع من أجل انتسابه الى شاور . وشجاع يعلم أن قادة العهد يختارون الكفايات حيثما وجدت دون أى اعتبار آخر ، من جاه أو نسب ، فلم يجد فى نفسه أى غضاضة اذ لم يسندوا منصبا اليه ، وفى باب التطوع مجال الجميع .

وما ان أنشئت مراكز التدريب فى البلاد حتى اختار شجاع حى العسكر فتطوع فى تدريب فتيانه ، وبذل من الهمة والنشاط ما جعل هذا المركز يفوق سائر المراكز نظاما ودربة .

وكان شجاع سعيدا بعمله هذا ، غير أن شاور لم يشأ أن يترك ابنه وشأنه ، فما لبث أن أنكر عليه قناعته بهذا العمل الحقير فى زعمه ، واتهمه بسقوط الهمة وقلة الطموح .

قال له ذات يوم وقد رجع الى البيت متأخرا : «والله انى لأرثى لك يا شجاع وآسى لحالك » .

ــ فيم يا سيدى ؟

ــ جهد مبذول •• وجزاء غير مأمول ••

ــ الجزاء ياسيدى راحة القلب فى الدنيا ورضوان الله فى الآخرة

ــ راحة القلب يابنى فى جليل الأمور لا فى سفسافها ••

ــ هذا من أجل الأمور عندى •

ــ لأنك لم تجد غيره •• ثم سلهم لماذا يجزون من دونك ولا يحيلون على الله سواك ؟

ــ ماذا تعنى يا سيدى ؟

ــ أعنى أصحابك هؤلاء •• قادة العهد الجديد ••

ــ انى ما طلبت منهم شيئا فمنعونى •

ــ لم ينتظرون حتى تطلب ؟ هذا حموك قد أصبح خازنا لأموال الدولة ، أفلا يستطيع أن يجد لك منصبا يليق بقدرك ؟

ــ لا مكان للمحاباة ياسيدى فى هذا العهد ••

ــ أى محاباة ؟ ألا يعرف كفايتك ؟ فكيف يعطلونها وهم يزعمون أنهم يختارون الكفايات وينصفون أصحابها ؟

ــ انى ما عطلت كفايتى على كل حال ، فقد تطوعت فى خدمة بلادى بما فى مقدورى وطاقتى ••

ــ واحر قلباه •• من طيب قلبك وغفلتك •• أماعرفت بعد أنهم انما أقصوك لمكانك منى ؟ ويلهم لقد تركت لهم كل شىء •• أفلا يولون ابنى ماهو أهل له ؟ !

ــ لا بأس يا سيدى ، فانى لست بحاجة الى المنصب ، فعندنا بحمد الله ما يكفينا •

ــ أو قد غرك هذا الذى جمعته لكم ؟ غدا يصادرونه منا كما صادروا أموال غيرنا من الأمراء والكبراء !••

ــ الله ياسيدى هو الرازق الكريم !

ولم يكتف شاور بكلامه لابنه فكلم سمية زوجته وقال لها : « اذا لقيت أباك ياسمية فاسأليه أن يرشح زوجك لمنصب يليق به فلا ينبغى أن يهملوه هكذا وهو ذو كفاية لا تنكر ..

فوعدته سمية خيرا ، وقد اقتنعت هى أن زوجها مظلوم ، فلما ذهبت تزور أباها كلمته فى ذلك وألحت عليه ، وحاول أبوها أن يقنعها بكل سبيل فلم ينجح :

قال لها : « تعلمين يا بنيتى ماكان من شاور » .

ــ وماذنب شجاع فى ذلك ؟ لقد كان ضد أبيه وفى سبيلكم لقى منه ما لقى ..

ــ أجل ، لا ذنب لشجاع فيما كان من أبيه ، ولـــكن لقادة العهد عذرهم اذا لم يعتمدوا عليه اليوم على الأقل حتى تحصل لهم الطمأنينة من جهة شاور ، ثم ماحاجة زوجك الى المال وقد جمع له أبوه ما يكفيه ؟

ــ ليس من أجل المال يا أبى . ولكن من أجل المنصب والمقام .

ــ هذا العمل الذى يتولاه شجاع .. أفضل من كل منصب .

ــ ذاك عمل يستطيع أن يقوم به أى جندى فى الجيش .

ــ انك لاتعلمين ياسمية ماذا صنع شجاع هناك .. لقد أنشأ نواة لكتيبة كاملة بفرسانها ورجالتها ومقدمتها وساقتها وطلائعها ..

ــ أفجزاؤه على ذلك أن ينسى ويهمل ؟

وطالت المراجعة بينهما ، هى تلح وهو يعتذر ، حتى قال لها آخر الأمر : « يابنيتى أنا من جهتى لا أستطيع أن أقترح تعيين زوجك ، ولكن دعيه هو يذهب الى أسد الدين فسيعرف له فضله » .

فقالت له : « انك لا تريد أن تصنع له شيئا » •

وانصرفت غاضبة وبقيت مغاضبة أباها برهة طويلة •

وكلمت شجاعا فاقترحت عليه أن يذهب الى أسد الدين لعله يعرف فضله فيوليه منصبا يليق بقدره ، فتعجب شجاع من قولها وسألها : « من أين أتيت بهذا ؟ من الذى اقترحه عليك ؟ »

فسكتت سمية ولم تجب •

ــ كنت عند أبيك قريبا فلا ريب أنه هو الذى اقترح ؟

ــ نعم هذا اقتراحه •

ــ كلمته أنت فى ذلك ؟

ــ نعم ••

ــ لقد سمعت هذا من أبى وسمعته من أمى ، أفأسمعه منك أيضا يا سمية !!

لقد كنت أظنك آخر من تخوض فى هذا اللغو ••

ــ هذا حقك يا شجاع !

ــ كلا ، لاحق لى على أحد •• نعم من حقى أن أعمل فى خدمة بلادى ولم يمنعنى أحد هذا الحق ••

١٠

وتكدر قليلا مابين شجاع وسمية من جراء ما حدث ، لكنه مالبث أن رضى عنها لما استرضته ، ووعدته أنها لن تخوض فى هذا الحديث مرة أخرى ، وان ظلت واجدة على أبيها لقلة اهتمامه بأمر زوجها ، ولو شاء لصنع له شيئا فقبله شجاع دون غضاضة •

وعاود القلق شجاعا من جهة أبيه مرة أخرى ، اذ رأى رجالا يترددون عليه ، ماكانت لهم صلة به من قبل • غير أنه علل نفسه

فى أول الأمر بأن أباه ربما آثر أن يبتعد عن حياته القديمةماأمكنه، فاتخذ هؤلاء الأصدقاء الجدد . الى أن لمح ذات ليلة رجلا يتسلل من عند أبيه فى الظلام بعد ما جلس معه برهة على انفراد ، ودب فى قلبه الشك ، فتتبع أثره ليعرف من هو فاذا هو ابن الخياط ، ذلك الجاسوس القديم الذى كان أبوه قد ضربه أمامه من قبل ، والذى ظهرت موالاته للفرنج بعد ذلك أيام وجود حاميتهم فى القاهرة .

هذا كان عدو أبى فما الذى جاء به الآن اليه ؟

وأرق شجاع ليلتها ، ولم ينم ، فلما كان الغد ، غدا الى أبى الفضل فى دار الوزارة ، فاختلى به وسأله عن ابن الخياط هذا : كيف لم يقبضوا عليه وقد كان معروفا بالتجسس للفرنج وموالاتهم ؟

ــ هل رابك شىء من أمره اليوم ؟

فتوقف شجاع لحظة ثم قال : « لا ، ولكنى لمحته أمس يمشى فى الشارع مطمئنا بين الناس ، فوقع فى قلبى أن أنبهكم الى أمره لعلكم نسيتموه أو اختبأ عنكم فلم تجدوه » .

ــ كلا يا شجاع ، اننا ما نسيناه ، ولكن السياسة الجديدة قائمة على الاعراض عما كان فى الماضى واعتباره كأن لم يكن ..

وعاد شجاع الى بيته مغموما لا يدرى ما يفعل ، فقد كان يود لو قبض على ابن الخياط اليوم حتى تنقطع صلته بأبيه قبل أن يتواطأ معه على شىء لا يرضاه لأبيه ولا لسلامة البلاد .

وأفضى الى سمية بما فى نفسه ، فقد ارتفع ذلك الحائل بينه وبينها فى مسألة أبيه ، وخاصة بعد ما رأى ازورارها عن أبيها من أجله هو فأصبح يكاشفها بكل شىء .

ووجد من سمية عطفا وحنانا سرى عنه بعض مايلقى ، وحدثته

أنها هي أيضا ترى كثيرا مما يريبها في شاور وأنها تلاحظ عليه كأنه لا يرتاح لوجود شجاع في المنزل ، حتى أنه حسن لها ذات يوم أن تعود مع شجاع الى قليوب ليقضيا برهة أخرى هناك ، فتذكر شجاع أن أباه كان قد كلمه هو أيضا في ذلك .

وأحس شجاع أنه لم يعد اليوم وحده في محنته ، فقد صارت سمية معه يكاشفها وتكاشفه ، وتقوم له بمراقبة أبيه في أثناء غيابه ، فهون ذلك كثيرا من خطبه .

وتنازع قلبه عاطفتان متناقضتان : احداهما ترغب في اكتشاف سر أبيه ، والأخرى تشفق أن تطلع منه على مكروه ، فقرر بعد لأى أن يعمد أولا الى مناقشة أبيه في شأن العهد الجديد ، لعله يستطيع أن يغير رأيه فيه ويزيل تحامله عليه ويستل سخيمته على رجاله .

دخل على أبيه يوما وليس عنده أحد فقال له : « يا سيدى ! انك قد انصفت نفسك حين لزمت دارك وألقيت هموم السياسة وراء ظهرك ، فاسترحت واطمأننت ، واستراح أهلك واطمأنوا ، ولكنى أراك ماتزال تتحامل على هؤلاء القوم وأنت ترى هذا الاصلاح العظيم الذى تم على أيديهم ، أفليس خيرا من ذلك ياسيدى لو أنصفتهم كما أنصفت نفسك فرضيت عنها كما رضوا عنك ؟ »

فأجابه شاور غاضبا : « قد علمت أنك تميل اليهم وتؤثرهم على ! »

ــ كلا ــ والله ــ ياسيدى ، مايعنينى أمرهم كما يعنينى أمرك ..

فسكت شاور قليلا ثم قال : « قد أمكنتنى اليوم من نفسك ، أفتريد أن تسمع رأيى فى هؤلاء ؟ »

ــ نعم ... فلعلنا نتفق على شىء ..

ــ انهم قد خدعوا الناس عن حقيقتهم ، وكنت أنت أول مخدوع

ـ هذه أعمالهم تشهد لهم ..

ـ أو تظنهم مخلصين فى ذلك ؟ لو كانوا مخلصين ما أهملونى هذا الاهمال !

ـ ياسيدى ، انك لم تظهر الرغبة فى خدمة هذا العهد ، فتركوك على حريتك .

ـ بل لكيلا أكشف عوراتهم ..

ـ هذا سوء ظن منك لاحق لك فيه ..

ـ ويلك ! ماذا تريد أن أصنع لهم ؟ أحنى لهم رأسى ؟

ـ انهم لا يريدون أن يحنى لهم أحد رأسه ، فهم قوم متواضعون ويعملون ليل نهار فى خدمة الشعب ..

ـ بل يعملون لأنفسهم فى صورة خدمة الشعب ، اذكرلى عملا واحدا من أعمالهم خاليا من هذا الغرض ..

ـ كل أعمالهم خال مما ذكرت ..

ـ ويلك ! أأعجبك مصادرتهم لأموال الناس وأملاكهم ؟

ـ ما صادروا غير أموال الأمراء التى احتجنوها عن الشعب ، فأنفقوها فى خدمة الشعب ..

ـ هكذا يزعمون ، ولكنا ما رأينا الشعب استفاد شيئا .. أين الرخاء الذى وعدونا به ؟

ـ الرخاء آت غدا لا محالة حين تبدأ المشروعات التى قاموا بها تؤتى أكلها ..

ـ هيهات .. ما عهدت البلاد قط غلاء فى الاسعار كهذا الذى تعانيه اليوم .. وما الغد الا ابن اليوم ..

ـ ان كان غلاء فمن أثر ما وقع من تدمير فى البلاد وترويع

للفلاحين فى الأرياف أيام حرب الفرنج ، ولما يقوم به الفرنج اليوم من حصار البحر ، فعاقوا ورود السلع الى البلاد .

ــ ان كان هذا من عمل الفرنج فأين عملهم هم لرفع هذا الغلاء عن الناس أو تخفيفه ؟

ــ أنسيت أنهم أبطلوا الرسوم جميعها ورفعوها عن الناس فى جميع الأقاليم ؟

ــ ويلك . هل بقى فى أيدى الناس مايدفعون منه تلك الرسوم ؟ والله لخير للناس أن يدفعوها ويكون لديهم مال من أن ترفع عنهم وليس فى أيديهم شىء !..

ــ سبحان الله ياسيدى !.. الحسنات تتحول عندك الى سيئات؟

ــ بل أنت الذى تتحول عندك السيئات الى حسنات !..

١١

وأدرك شجاع بعد ماحاور أباه مرة بعد مرة أن من المحل تغيير رأيه فى هذا الشأن ، بل أشفق فى بعض الاحيان أن يتحول رأيه هو قبل أن يتحول رأى أبيه ، فقرر أن يكف عن جداله وأن يتركه وشأنه .

ولكن خيال ابن الخياط ظل ماثلا أمام عينيه لا يفارقه فى ليل أو نهار . واستبدت به رغبة فى أن يعرف حقيقة الصلة بينه وبين أبيه ، وكان قد عرف أن شاور يأذن له من الباب الخلفى ، فظل شجاع يرصده ليالى فى نفس الموعد بعد صلاة العشاء حتى بصر به ذات ليلة يدخل متسللا . فتسلل شجاع الى موضع قرب من حجرة أبيه كان قد فكر فيه واختاره من قبل بحيث يسمع مايدور بينهما دون أن يشعرا به .

ووقف شجاع حابسا أنفاسه فسمعهما يتناجيان ، وكان فحوى

نجواهما أن أسد الدين ينوى أن يستقل بمصر عن نور الدين ، فالرأى أن يكتب «مرى» ملك الفرنج كتابا الى أسد الدين يذكر له فيه أنه يوافقه على التهادن ، مادام أسد الدين لا ينوى أن يؤيد نور الدين فى حربه مع الفرنج ، ثم يتعمد الرسول الذى يحمل الكتاب أن يقع فى أيدى رجال نور الدين ليفتشوه فيجدوا عنده هذا الكتاب ، فهذه الخطة كفيلة بافساد مابين نور الدين وأسد الدين ، وفى ذلك فائدة لكلا الطرفين «مرى» وشاور ..

واضطرب شجاع حين سمع من نجواهما هذا القدر ، وارتعدت فرائصه حتى لم يعد قادرا على البقاء ليستمع الى ما بعد ذلك ، وخيل اليه أنه لو بقى لندت منه صيحة أو حركة تكشف لهما أمره ، فانسحب وقد ابتل جسمه عرقا من شدة الكرب الذى اعتراه ، وصعد مسرعا الى سطح البيت حيث وقف يستنشق الهواء الطلق لينفس به بعض ما احتبس فى صدره ، ولكن رجليه ما لبثتا أن أسلمتاه الى الأرض حيث جلس مرتفقا الى حائط السطح ، مادا ركبتيه مسترخيا فى وهن شديد واعياء بالغ . وقد أحس كأن الأرض تدور به ، وكأنه يوشك أن يغشى عليه ، فبقى كذلك برهة لا يدرى كم كان طولها ، تنازعته فى خلالها شتى الهواجس والخواطر ، فذهبت به كل مذهب ، وهامت به فى أودية سحيقة يسودها الظلام والضباب ، ويملؤها الخوف والرعب والأوهام والأشباح .

وحاول أن ينهض لينزل الى سمية فيلوذ بها ، ويجد عندها مثابة وأمنا ، ولكنه أحس بالوهن الشديد يحول دون ذلك كأنما فقد القدرة على الحركة ، وهم أن يصيح لعلها تسمعه فتصعد لاسعافه ، فكأنما فقد القدرة على الصوت أيضا ، فاستسلم واستكان .

وتتابعت فى عينه صور مخيفة تتراقص أمامه كالأشـباح ثم تتلاصق وتتضام وتتحد فى صورة واحدة ، يتضاءل حجمها شيئا فشيئا فاذا هى وجه أبيه ! وترددت فى أذنه أصوات منكرة من زئير وفحيح وعواء ونهيق وقباع ونعيق ، تتناوب على سمعه ثم تختلط وتتمازج فى صدى واحد ، يتخافت شيئا فشيئا فاذا هو صوت أبيه!

ثم انقشع الظلام والضباب فاختفت الأوهام والأشباح ،وأخذت تتجلى له الحقائق سافرة يؤيد بعضها بعضا ، ويجلو بعضها وجه بعض ، فاذا خيانات أبيه كبيرها وصغيرها وقديمها وحديثها ، تطير عنها هلاهيلها ، فاذا هى عارية لا يكسوها شىء !

لقد كان يحتملها ويلتمس لها المعاذير ، اذا كان العهد عهـد فساد مستطير فى كل شىء ، والأمور فيه فوضى مختلطة ، فلاتتميز فيه الخيانة من الأمانة ، ولا يتبين فيه الصلاح من الفساد . أما فى هذا العهد الجديد فأى شبهة تستطيع أن تستر تلك الخيانات أم أى معذرة تستطيع أن تغفرها ؟ ! كلا ، لا شبهة ولا معذرة .

وهذه التى اقترفها اليوم ليست بأبشع من أخواتها اللائى سبقتها الا أنه رآها بعينيه وسمعها بأذنيه . آه ! ياليته لم يكشفها اليوم ، فبقى له فى الدنيا رجل يستطيع أن يسميه أباه ! بل ليته كشف أخواتها من قبل فاستطاع أن ينقذ نفسه من وهم عاش دهرا فيه .

يا ويلتاه ! هذه خيانة صريحة لمصر وللعرب والمسلمين !

ماذا يصنع ؟ أيبلغها لأسد الدين ؟ اذن يقبض على أبيـه ، ويحكم عليه بالموت ، فماذا يكون حاله هو ؟ بل ماذا يكون حال والدته العجوز التى تقدس زوجها تقديسا حين تفجع به وتفجع فيه ، ماذا يكون موقفها من ابنها اذا علمت أنه هو الذى وشى

بأبيه ، فقدمه الى سيف الجلاد ، وألبسها الحداد على الحداد ، وضرب عليها وعلى نفسه المذلة والعار ؟ أيكون ذلك جزاء حبها له وحنانها عليه ؟ ان هذا اذن لعقوق أى عقوق !

ولكن كيف يتركه هكذا يخون مصر ويخون العرب والمسلمين دون أن يبلغ عنه ؟ اذن ليكونن مسئولا أمام الله وأمام العرب والمسلمين ، ولتحلن عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين .

آه ! ليت أباه قد مات من قبل فاستطاع اليوم أن يزور قبره ويترحم عليه ؟ أو ياليت أمه توفيت فضمن أنه لا يؤذيها اذا قام بواجبه فآثر حرمة الله والوطن على حرمة أبيه !

وتراءى له فجأة شبح ضرغام ، واقفا أمامه برأس مقطوع ، يحوم فى الفضاء حول عنقه ، ثم يستقر على العنق ، فاذا هو يقول : « ويحك يا شجاع ! أعرفت اليوم حقيقة أبيك ؟ وقبل أن يتمكن شجاع من جوابه ، اضمحل الشبح واختفى فى طرفة عين » .

مسكين ضرغام لقد سبق زمانه فقتل . لو عاش حتى اليوم لانسجم مع هذا العهد الجديد . آه ! كيف فضلت أبى عليه ؟ لقد كان حقا وفيا لدينه ووطنه دون أن يبالى مايقول الناس عنه ،فظنوه خائنا وهو أمين ، فأين منه أبى الذى يزعم أنه أمين وهو خائن ؟

يا ليتنى كنت ابنه لا ابن شاور وياليتنى لقيت مصرعى فى الجسر الأعظم معه ، فقال الناس يومئذ : « الحمد لله الذى أراحنا من ضرغام وابن ضرغام » فذلك خير عندى من أن أكون ابن هذا الخائن!

رباه !.. لم جعلتنى ابن شاور ؟هلا جعلتنى ابن ذاك السقاء الصالح نعمان بن عبيد ، أو ابن ذاك الفلاح الأمين الذى يعمل فى ضيعتنا

بقليوب ، أو ابن أى رجل فى الأرض سوى شاور ؟ اذن لاسترحت من هذا العذاب الأليم عذاب الحيرة والهوان !

استغفرك اللهم لااعتراض على قضائك يارباه ، ولكن اذ قضيت على بما قضيت فأنر لى السبيل ، وألهمنى خير ما أعمل ، هـذا الرجل يخون الدين والوطن فكيف أسكت عليه ؟ ولكنه والدى فكيف أقوده الى القتل وأفجع والدتى به ؟

وكأنما سمع الله دعاءه اذ انقدح فى قلبه خاطر ، لم يكد يجتليه حتى اطمأن اليه : لم لا يطلع أسد الدين على ما يعـلم من سر الخيانة دون أن يكشف له سر أبيه ؟

وكأنما استرد قوته اذ ذاك فنهض عن الأرض واستوى قائما ، وأخذ يقلب بصره فى السماء ، وقد ندت عيناه بالدمع فجعل يلمع فى ضوء النجوم .

هل من سبيل الى الاتفاق مع أسد الدين على أن يكتفى منه بالخبر ليسعى فى احباط مايراد به من كيد دون أن يطالبه بمصدره؟ لم لا ؟ ان أسد الدين لفارس كريم ذو شهامة وأريحية ، فما أجدره أن يقبل هذا الشرط . ولكن لاينبغى أن يذهب هو بنفسه اليه ، فربما يستريب به فيستجلى الحقيقة التى يريد اخفاءها عنه . لابد من شخص آخر يكون واسطة بينهما ، فمن يكون ؟ أبو الفضل ؟ لا .. لا يؤمن أبو الفضل على شاور . القاضى الفاضل ؟ انه وفى لشاور ، فيما يعلم ، ولكنه قد صار اليوم كاتب انشاء أسد الدين، فليس بمأمون حتى لو أراد الوفاء لشاور ، فقد يدرك أسد الدين الحقيقة بالتخمين لما بين القاضى الفاضل وشاور من قديم الصلة .

كلا ، لا يصلح لهذا الأمر الا شخص لا يخطر ببال أسد الدين أن له أيما صلة بشاور أو آل شاور •

وتذكر حينئذ أنه قد أطال المكث بالسطح واشتاق الى سمية ليفضى اليها بذات صدره عسى أن تسرى عنه أو تخفف بعض ما به فبرح مكانه فى السطح ونزل •

١٢

كان صلاح الدين يسمر فى الديوان مع خاله ، شهاب الدين الحارمى والقاضى عيسى الهكارى ونفر آخر بينهم القاضى الفاضل ، اذ سمع صوت عمه أسد الدين يناديه من أعلى الدار فنهض من بينهم مسرعا ليصعد اليه • وكان أسد الدين قد صعد الى حجرته من أول الليل لينام مبكرا ويستريح لأنه أحس ذلك اليوم بنوبة من نوبات العلة التى أصابته منذ قليل من جراء ذلك الجهد العنيف الذى كان يقوم به فى الديوان ليل نهار •

فأشفق صلاح الدين أن يكون الوجع اشتد بعمه ، فناداه ليستدعى له الطبيب ، أو ليدلك له مكان الوجع فى أعلى ظهره ، وحول كتفيه ، كما اعتاد أن يقوم له بذلك ، ولكنه لما صعد اليه وجده واقفا فى البهو ورأى سواد شخص واقف عند باب البهو يرتدى عباءة سوداء سابغة ، فلما نظر اليه فى ضوء السراج الخافت تبين امرأة فارعة القوام ، منتقبة لايرى منها غير عينيها ، وكأنها تتهيأ للانصراف ، فارتبك قليلا حتى نسى أن يبدأ عمه بالسؤال عما يريد • وعجب ، ولكن لم يطل عجبه ، اذ ناداه عمه قائلا : « هلم يا يوسف ادن منى » ، ثم التفت الى المرأة فقال : « هذا يا أمة الله صلاح الدين ابن أخى وهو بمنزلتى وأنا وهو شىء واحد ، فاذا

جئت يوما ولم تجدينى فأفضى اليه بما عندك و لاتخافى فانه شاب صالح وسيكون موقفه منك مثل موقفى ، يسمع منك ما تريدين ولا يسألك عن شىء ولا يستوضحك شيئا ، وسأخبره الآن بأمرك وأجعله يحلف لى كما حلفت لك » .

وأومأت المرأة برأسها علامة الموافقة ، ثم انسلت خارجة .

ـ من هذه يا عم ؟

ـ تعال اجلس لأحدثك عنها .. انها امرأة عجيبة !

ـ من هى ؟ وماذا جاء بها ؟

ـ احلف لى أولا أنك لاتبوح بسرها اذا أنا أخبرتك .

ـ والله العظيم لا أبوح بسرها الا اذا أذنت .

ـ أتذكر ذلك الجاسوس الفرنجى الذى قبضنا عليه منذ شهر ؟

ـ نعم .. أفهذه هى عصفورتك ؟

ـ ويلك ! كيف علمت ؟

ـ ما علمت شيئا بعد وانما خمنت من حديثك ..

ـ أجل هى هذه عصفورتى التى نقلت لى خبر الجاسوس ..

ـ وكيف تسنى لها أن تعرف ذلك ؟

ـ هذا مالا ينبغى لنا أن نسأل عنه ، قد اتفقت معها وأعطيتها عهد بذلك ..

ـ لكن ...

ـ كلا ، لا تقل لكن .. هذا العهد يسرى على وعليك ، فلا أقبل منك أى مراجعة فيه .. عليك أن تجهز نفسك الليلة لترحل غدا الى الاسكندرية .

ـ الى الاسكندرية ؟

ـ نعم •• فقد أبلغتنى اليوم أن الفرنج قد يهاجمونها فى الشهر القادم من البحر ، فاذهب وتفقد وسائل الدفاع هناك • وأنذرهم ليستعدوا لمنازلتهم فى البحر بما تم صنعه من قطع الأسطول ••

ـ وما يدريك أنها صادقة ؟

ـ أنا واثق من صدقها ، وقد صدقتنى فى الاولى !

ـ ألا تخشى أن تكون هذه دسيسة علينا من العدو ليستدرجنا الى مكيدة مدبرة ؟

ـ أوه ! دعنى يا يوسف من وساوسك ••

ـ هذه ليست وساوس ياعمى •• هذا احتياط واجب •

ـ فماذا تريدنى أن أصنع ! أرفض خدمتها لنا وأقول لها انقطعى ، فانا لا نريد أخبارك ؟

ـ كلا ياعمى ، ولكن يجب أن نعرف أولا من أين تستقى هذه الأخبار ••

فاحتد أسد الدين قائلا : « قلت لك انها حلفتنى ألا أسألها عن شىء غير ما تخبرنى به ، وقد قطعت لها على نفسى عهدا ، فحذار يا يوسف أن تنقض عهدى ، فتفسد على أمرى » •

فقال صلاح الدين معتذرا : « لا تغضب ياعم ، فستجد عندى من كمال الطاعة ما تحب • »

١٣

وتوجه صلاح الدين فى نفر من رفاقه الى الاسكندرية ، وهو فى حيرة من أمر هذه المرأة التى يسميها عمه عصفورة ، فظل طول الطريق مشغول الفكر بها ، فاذا سأله رفاقه عن سبب وجومه ، تنصل من ذلك منتحلا عذرا من الأعذار •

وبلغ الاسكندرية ففرح أهلها بمقدمه ، وتذكروا سالف عهده معهم ، فاستقبلوه استقبالا رائعا ، ثم توافدوا عليه حيث نزل ضيفا على صـديقه ابن رشيد الذى صار عاملا على الاسكندرية فى هذا العهد .

وأسرع صلاح الدين فنفذ أمر عمـه فى تفقـد وسائل الدفاع وتجهيز ماتم صنعه من سفن الأسطول لمنازلة أسطول الفرنج ، وان بقى فى شك من مجيئهم الى أن أقبلوا بأسطولهم حقا ، فلما رأوا الاسطول المصرى واقفا لهم بالمرصاد سقط فى أيديهم ، فانسحبوا بعد معركة قصيرة احترقت فيها بعض سفنهم .

ورجع صلاح الدين الى القاهرة بعد أن سبقته بشائر النصر اليها ، فعانقه أسد الدين ورجاله فرحين مستبشرين ، وما لبث أبو الفضل أن اقترح مضاعفة الاهتمام بانشاء الأسطول وزيادة عدد سفنه ، بحيث يكون قادرا لا على مدافعة سفن الفرنج فحسب بل على مهاجمة مدنهم وحصونهم على سواحل الشام فى المستقبل ، فتحمس أسد الدين لهذا الاقتراح وأمر بتنفيذه . وقد زاده حماسة بعد ذلك ورود كتاب من نور الدين يهنئه بانتصاره على الفرنج فى تلك المعركة البحرية ويوصيه بمزيد الاهتمام بالأسطول ويقول له : « انك تعلم أننا لا نملك سفنا بالشام ولا سواحل فعلى مصر أن تسد نقصنا فى هذا السبيل » .

أما صلاح الدين فقد ظل التفكير فى أمر العصفور شاغلا قلبه ، ولا سيما بعد ما تبين صدق ما أخبرت به فى هذه الواقعة .

وحدثته نفسه أن يراجع عمه فى أمرها ليوافق على السـعى لاكتشاف حقيقتها ، ولكنه عدل عن ذلك لما يعلم من اصرار عمه

على رأيه ، فآثر أن يجاريه فى الظاهر ، واعتزم أن يراها بنفسه حين تجىء الى عمه ولعله يستطيع أن يكتشف شيئا من أمرها بالتوسم والتفرس ، فظل أياما يترصد مجيئها دون أن يلفت نظر عمه الى ذلك .

فلما أحس بمجيئها ذات عشية أسرع فصعد الى عمه متعللا ببعض الأمور ، فما كان من أسد الدين الا أن دعاه فدخل ، فما أن رآها حتى داخلتــه هيبة عظيمة لا يدرى ماسرها ، فغض بصره وسمعها تتحدث الى عمه فى صوت خافت ولكنه ثابت لا يضطرب ولا يرتعش ، ولولا رقته ونعومة جرسه لظنه صوت رجل .

وما لبثت العصفورة أن انصرفت ، ولما يسمع صلاح الدين منها غير كلمات معدودة ، ولم يتمكن من تأملها الا خلسه أو خلستين ، فما وعى سمعه من حديثها معنى تاما ، ولا وعت عينه من صورتها غير خصلة من شعر !

ولم يستطع صلاح الدين أن يسترســل طويلا فى سرحان ذهنه ، اذ مالبث عمه أن نبهه قائلا : « ماخطبك يا يوسف ؟ اياك أن تكون وقعت فى سحرها فانها ليست خالية . »

ــ متزوجة ؟

ــ أجل .. عصفورها معها ، فابحث لك عن عصفورة أخرى .

ــ لا والله ياعمى ، مابى شىء مما ذكرت .. ومابى غير التعجب من أمرها ..

ــ وأنا والله أشد تعجبا منك ..

ــ وكيف علمت ياعمى أنها متزوجة ؟

ــ أنا سألتها فأخبرتنى ...

ــ كأنك تعلم ياعمى من هى ؟

ــ كلا •• انها أبت أن تخبرنى من هى •• وأخذت على العهد ألا أبحث عن ذلك •

ــ ألا يريبك هذا منها ؟

ــ قلت لك دعنى من ظنونك ووساوسك •

ــ لقد رابنى منها الليلة أن شعرها فى لون الذهب ••

ــ شعرها ؟ أين رأيت شعرها ؟

ــ لمحت خصلة منه تدلت من تحت النقاب •

ــ هب أن شعرها كما ذكرت فأى بأس فى ذلك ؟

ــ قد تكون من أصل أجنبى •

ــ ماشاء الله •• ان كان هذا مبلغ فراستك فانها لا تساوى عندى بصلة ! هذا أبو الفضل مثلا هل تشك فى مصريته وعربيته ؟

ــ معاذ الله •

ــ فشعره أصفر كلون الذهب •

ــ أعرف ذلك يا عمى ، وانما أنا الآن بصدد هذه المرأة التى لم تشأ أن تخبرنا باسمها ، فلا غرو أن نرتاب فى أمرها ونحتاط •

ــ دعنى من هذا •• انى سأحفظ عهدى معها ولست بخاسر ولا نادم ، فهاهى ذى قد جاءتنا بنبأ جديد كما سمعت !

ــ أنا ياعمى لم أسمع شيئا !

ــ ويلك ماذا كنت تصنع اذن ؟•

ــ ماسمعت أول حديثها ، فما فهمت شيئا ••

ــ زعيم الخلافة الذى عند العاضد يراسل الفرنج ويراسلونه•

ــ عجبا كيف علمت هى ذلك ؟

فضرب أسد الدين على صدره وهو يقول : « ويلك ! هــذا سؤال يأباه العهد الذى بينى وبينها ــ ألم تفهم بعد ؟ »

فتمتم صلاح الدين فى يأس : « بلى ! فهمت .. فهمت »

١٤

وفوجىء الناس ذات صباح بجثة ملقاة على جانب الطريق قريبا من باب زويلة وقد تمزق صدرها بطعنات وانشق بطنها فخرجت أمعاؤه . فلما تأملوها عرفوا بعد لأى أنها جثة ابن الخياط ، ولكن أحدا لم يعرف من الذى قتله ولماذا قتله .

واهتم أبو الفضل بأمر هذا الحادث ، وتذكر ماسمع من شجاع فى شأنه قبل أشهر ، فداخله شك من جهته الا أنه كتم ذلك ، ولم يكاشف به أحدا ، وقال لأسد الدين : « لقد لقى هذا الخائن جزاءه العدل اذ قيض الله له يدا مجهولة فاغتالته ، فعلام نبحث عن صاحبها ليعاقب أو يدان ؟ »

فوافقه أسد الدين على رأيه ولكن صلاح الدين اعترض وقال : « لابد من معرفة القاتل ومحاكمته والا اجترأ الناس على الجريمة غدا فاغتالوا الصالح والطالح .

فقال له أسد الدين : « انا قد بحثنا عن القاتل وما قصرنا فلم نقع له على أثر ولو وجدناه لعاقبناه وحاكمناه » .

واختلف الناس فى تأويل مصرع ابن الخياط وان اتفقوا جميعا على أنه لقى القصاص العادل ، ومآل أكثرهم الى أنه من فعل رجال الحكم وتدبيرهم لما سبق من موالاة هذا الرجل للفرنج الا أنهم كتموا ذلك حرصا على القاعدة التى سنوها من عدم محاسبة أحد على ماسلف ، ولم يخطر على بال أحد أن قاتله هو شجاع بن شاور .

فقد ظل شجاع يراقب ابن الخياط منذ اكتشف تواطؤه مع أبيه على الخيانة ، فاذا حضر اليه استرق السمع الى نجواهما كما فعل فى المرة الأولى ، الا أنه قد مرن على ذلك ، فلم يعد يتهيبه أو تخونه قواه فى أثنائه .

وسمعه ذات ليلة يبحث مع شاور فى تدبير مكيدة واسعة النطاق ، يقوم فيها ابن الخياط بدور الوسيط بين أبطالها الثلاثة ، وهم زعيم الخلافة من رجال قصر العاضد ، وشاور ، و «مرى» ملك الفرنج ، ويكون مسرحها القصر وميقاتها يوم العاشر من محرم اذ يحتفل العاضد بعيد عاشوراء وبتولية أسد الدين الوزارة تولية رسمية .

وكان العاضد قد عرض الوزارة على أسد الدين منذ زمن ، ولكن أسد الدين ظل يتنصل من قبول ذلك ويؤجله مكتفيا بأنه قد صار يحكم مكان شاور ، ولم يبق لشاور غير الاسم ، ولاسيما بعد ماترك له شاور دار الوزارة ، وترك له فيها ختمه ليوقع به أسد الدين على مايشاء من الأوراق دون الرجوع اليه .

وكانت هذه المسألة موضع خلاف بين جماعة المصلحين فانقسموا فيها فريقين : فريقا يدعو الى قبول هذا العرض من العاضد ، ومن هؤلاء قاضى القضاة ابن درباس ، وفريقا يتمسك بالرفض وعلى رأسهم أبو الفضل الحريرى . وحجة الأولين أن العاضد مازال هو الحاكم الشرعى فى البلاد ، فهو مصدر السلطات كلها ، وحجة الآخرين أنهم عازمون على خلع العاضد فى أقرب وقت مناسب ، فهو فى حكم المخلوع من اليوم ، فلا ينبغى أن يستمد أسد الدين السلطة منه ، وقد بايعه بها أهل الحل والعقد من المصريين . ثم انتصر رأى الفريق الأول فى آخر الأمر فبعث أسد الدين الى

العاضد يخبره بالقبول ، فرأى العاضد أن يبالغ فى تكريم أسد الدين فاختار أن تجرى التولية يوم عاشوراء تيمنا به .

أما فحوى المكيدة كما سمعها شجاع ، فأن يتولى زعيم الخلافة القيام باغتيال أسد الدين وكبار رجاله ، ويقوم شاور بقيادة أجناد الدولة لمواجهة جند أسد الدين اذا ثاروا ، ويبعث ابن الخياط الى ملك الفرنج يستعجله القدوم للقضاء على فلول جيش نور الدين وقطع دابرهم من مصر فلا يطمع نور الدين فى الاستيلاء عليها بعد ذلك ويعود شاور الى الحكم ، ويأمن العاضد على عرشه وعرش آبائه . فلما أبدى شاور ارتياحه لهذه الخطة أخرج له ابن الخياط الرسالة التى كتبها فى هذا المعنى ليرسلها الى ملك الفرنج ، وقد وقع عليها زعيم الخلافة بخطه ، فما ينقصها غير امضاء شاور . وقد تردد شاور برهة وابن الخياط يحرضه ويؤكد له ألا خوف من انكشاف سره حتى رضخ شاور آخر الأمر فوقع .

وانسحب شجاع عند ذلك فنزل الى الباب الخلفى وجعل يرصد خروج ابن الخياط ، فلما خرج اقتفى أثره وهو يتسلل مسرعا فى الظلام . حتى بلغ موضعا منقطعا عن الناس قريبا من باب زويلة ، فانقض عليه شجاع وطرحه أرضا ، وكم فمه بطرف عمامته خشية أن يصيح ويستغيث ولكنه تذكر أنه لن يفعل ، فخلى عن فمه ، واستل خنجره فشرعه فى وجهه .

ــ أعطنى الرسالة والا ذبحتك ..

ــ شجاع بن شاور !.. ويلك ! ان حياة أبيك فى هذه الرسالة .

ــ حياة شاور فى جنب حياة البلاد لاتساوى عندى حياة كلب قذر مثلك .. أعطنى الرسالة ، ويلك !..

ـ قم عنى لأعطيك اياها .

ـ كلا حتى تعطينيها . أين وضعتها ؟

ـ هى فى جيب القميص .

ـ أخرجها بيدك ...

ـ هاهى ذى .. مزقها يا شجاع لتحفظ حياة أبيك .

وتطلع شجاع فى الرسالة حتى استيقن أنها هى ، فهم أن ينهض عنه ويخلى سبيله مطمئنا الى أنه لن يفشى سر أبيه ، لما فى ذلك من خطر على حياته هو أيضا ، ولكنه تذكر بغتة أنه سيتصل لامحالة بأبيه ويفضى اليه بما حدث ، ونظر فبصر بخنجر يخفيه ابن الخياط فى وسطه فاستخرجه ؟

ـ أجل .. خذ خنجرى هذا لتطمئن الى أنى لن أفتات عليك .

فأغمد شجاع خنجره وأعاده فى وسطه واستل الخنجر الجديد وجعل يقلبه فى كفه .

ـ قد أخذت الرسالة فانهض عنى .

ـ كلا لن أدعك تكتب أختها أبدا ياخائن .. سأقتلك بخنجرك كما تموت العقرب بسمها !! ..

فأخذ ابن الخياط يستعطف ويتوسل :

ـ أجل ، انى لخائن ، ولكن والله لأتوبن على يديك ، ولأكشفن لك أسرارا أخرى تهمك ، فانى أراك أعظم الناس اخلاصا لبلادك .

ـ أتريد أن تخدعنى يا فاجر ؟

ـ خل عنى والا صحت فجمعت عليك الناس فعرفوا سر ..

ولم يتم ابن الخياط كلمته هذه اذ عادت عمامته فسدت فمه ، وانبرى خنجره يغوص فى صدره ويخرج كأنه يفتش عن موضع العلة فى قلبه ليداويها !

ولم يدر شجاع ماذا حدث بعد ذلك اذ وجد نفسه عند سمية فى البيت وهى تخلع ثيابه وتغسل الدم عنه ثم تدثره فى الفراش وتتفقد خنجره فتجده أبيض ناصعا لا أثر لدم فيه ، فسمعها تقول له : « بم قتلته فانك لم تستعمل خنجرك ؟ »

وسمع نفسه يقول لها : « قتلته بخنجره ياسمية فلم ألوث خنجرى ! »

وسمعها تقول : « خيرا صنعت ياحبيبى » .

ثم لم يسمع بعد ذلك شيئا .

١٥

وأصبح الصباح فهب شجاع من فراشه فزعا وبحث عن الرسالة ، فلم يجدها فطار عقله ، ونادى سمية فأقبلت اليه :

ـ أين الرسالة ياسمية ؟ ألم تجدى البارحة رسالة بين ثيابى ؟

ـ بلى ، وجدتها !

ـ ماذا صنعت بها ؟ اياك أن تكونى مزقتيها أو ..

ـ كلا ياحبيبى ، ماكنت أفعل شيئا دون أمرك .. وانما خبأتها وحفظتها ..

وعاد اليه صوابه حين ناولته سمية الرسالة فنشرها وتصفحها مليا ثم طواها .

ـ ماذا أنت صانع بها ؟ أتريد أن تمزقها ؟

ـ كلا ، بل سأحفظها وأصونها لأهدد بها هذا الشيخ الضال اذا أراد أن يعود لمثل حماقته ..

ـ فهاتها لأصونها لك فى خزانة ثيابى فلا تصل اليها يد أخرى .

ونزل شجاع من غرفته ليصبح على والديه ويقبل يديهما

كعادته ، فدخل أولا على والدته ، فوجدها واجمة مغمومة :

ــ ما خطبك يا أماه ؟ هل تشكين شيئا ؟

ــ لا يابنى ، ولكن والدك أصبح متغيرا اليوم منذ سمع خبر الجريمة البشعة التى وقعت فى البلد ..

فبذل شجاع جهدا كبيرا ليسيطر على نفسه .

ــ أين هو الساعة يا أماه ؟

ــ فى حجرته قد أوصدها على نفسه .. اذهب اليه يابنى لعلك تسرى عنه .

ــ انى جئت لأقبل يده .

ــ ان أردت الخير والبركة يابنى فلاتقبل يده وتنصرف كعادتك كل يوم ، بل ابق عنده اليوم واجلس اليه ، وتلطف فى السؤال عن حاله .

ــ سأفعل يا أماه وكرامة عين !

واشتاق شجاع أن يسمع مايقول الناس عن الحادث أولا قبل أن يدخل عند أبيه ، فخرج الى الشارع وسمع من هذا وذاك ، فلما قضى أربه من ذلك كر راجعا الى البيت .

ودخل عند أبيه فرأى جزعا لم ير مثله منه قط ، وشهد وجوما غريبا حتى أنه لم يرد عليه التحية اذ حياه ، وانما مد اليه يده للتقبيل دون أن يتكلم كلمة واحدة . وأدرك شجاع مافى نفسه فأحس بشىء من الرثاء فى شىء من التأثم ولوم النفس ، مع شىء من الشماتة الخفية المستترة ، وخطر له ــ ولكن سرعان ماطرد هذا الخاطر ــ أن يقول لأبيه ، « اطمئن ياسيدى فان الرسالة محفوظة عندى لم يطلع ولن يطلع عليها أحد » .

وجلس شجاع أمامه جلسة الخادم المتهيىء لأن يؤمر فيطيع ،

فما لبث شاور أن نظر اليه نظرة فيها ذل وانكسار ، وفيها تنصل واعتذار ، وفيها استغاثة واستنصار ، وشجاع صامت كأنه يقـــول بلسان حاله : « ان بقى عندك ثقة بابنك ، فأفض اليه بذات صدرك ، فانه يخشى أن يبدأك بالسؤال فتصده وتكسر خاطره » .

ــ سمعت بحادثة ابن الخياط ياشجاع ؟

ــ نعم ياسيدى ، أفمصرع هذا الرجل هو الذى ساءك اليوم وكدرك ؟

ــ كلا يابنى ماساءنى ذلك ولا كدرنى .

ــ ياليتك ياسيدى ماصادقت هذا الرجل ولا قربته بعد الذى جاهر به من موالاة الفرنج وبعد أن ضربته أنت بنفسك على جاسوسيته .

ــ لقد غرنى يا شجاع واستدرجنى .

ــ فاحمد الله اذن اذ أراحك اليوم منه .

ــ ويحك يا بنى ! انك لا تعرف ماذا كان يحمل معه حين اغتيل البارحة .

ــ كان يحمل خنجرا .

فأجفل شاور وظهر فى وجهه الارتياب الشديد :

ــ كيف علمت ذلك ؟

ــ سمعت ذلك من الناس .. قالوا انه قتل بالخنجر الذى كان يحمله

ــ فسرى حينئذ عن شاور .

وكأنما كان لهذه الاسترابة التى استرابها ثم زالت عنه أثرها فى ازالة كل مابقى فى قلبه من قلة الثقة بشجاع ، فلم يلبث أن تبسط اليه غير متحرج ولا متحفظ فصارحه بكل شىء ، وحكى

له القصة بأكملها ، ثم قال له فى النهاية : « أنا خائف يابنى أن تقع تلك الرسالة فى يد أسد الدين » .

وتاقت نفس شجاع أن يؤنب أباه على خيانته ، ويقرعه تقريعا ، فهذه أول مرة أمكنه فيها من نفسه اذا اعترف بخيانته ، غير أنه لم يشأ أن يفعل ، لأن جانب الرثاء كان قد غلب جانب الشماتة فى نفسه ، بعد ما تأيد ذلك بسرور شجاع من صراحة أبيه ، فتجدد فى نفسه الرجاء أن يرعوى أبوه عن هذه الغواية فى المستقبل ، ويلزم جانب الحكمة والسداد .

وهاله فى أول الأمر مارأى من جزع أبيه على غير ماعهد فيه من الجلادة والثبات ولكنه عاد فعذره فى ذلك ، اذ لو كان هو مكانه ولم يكن مطمئنا الى وجود الرسالة عنده ، لكان جزعه على أبيه أشد من جزع أبيه على نفسه . وكاد يخبره بسر الرسالة ليطمئن لولا أنه استنجد بكل ما أوتى من قوة ليثبت على الخطة التى اعتزمها من قبل فى شأن أبيه .

ــ ان كنت ياسيدى تخشى من جهة الرسالة فاطمئن .

ــ كيف ؟

ــ لا ريب أنها لم تصل الى أسد الدين والا لما أمهلك حتى الآن ، فانها ناطقة بخيانتك للدولة والوطن والعرب والاسلام ، فلو صدرت من صلاح الدين ابن أخيه ما أمهله ..

ــ ربما تصل اليه بعد قليل .. لعلها فى طريقها اليه !

ــ كلا ياسيدى ، هذا بعيد .. لاريب عندى أنها قد مزقت أو أتلفت أو سلمها الملعون الى صديق له قبل مصرعه والالوجدت معه ولوصلت الى أسد الدين فى الحال ، فان أحدا لا يجرؤ على

استبقائها عنده لحظة واحدة . فليطمئن بالك من هذه الناحية ، وتب الى الله من هذا الاثم العظيم ليتوب الله عليك ..

١٦

ومكث شاور أياما فى قلق وجزع حتى صار لاينام ليلا ولا يهدأ نهارا وحتى عزم أن يهرب من البلاد قبل أن يقبض عليه ، ولكن شجاعا منعه من ذلك وسفه له فكرة الهروب لأنها ستثير الريبة حوله ، وربما تثبت التهمة عليه ، وحينئذ لاينجيه مهرب ولا معتصم الا اذا تمكن من اللحاق بالفرنج أعداء الله ، وفى ذلك غضب الله ولعنته ، مع ماقد يتوقع من اعراضهم عنه وسومهم اياه الخسف والهوان حين يرونه لاجئا عندهم مهينا لم يعد له قوة ولا سلطان . فاقتنع شاور بكلامه فعدل عن عزمه ، ثم أخذ جزعه يخف قليلا قليلا كلما مضت الأيام ولم يظهر من جانب أسد الدين ما يخشاه ، حتى اطمأن آخر الأمر وكأنما نسى كل شيء .

وأخذ يفكر حينئذ فيما يكون من أمر تلك المكيدة التى كانت موضوع الرسالة المفقودة ، هل ينفذها زعيم الخلافة فى ميقاتها ، أم يضرب عنها صفحا . وأحس من جديد بالرغبة فى عدم مكاشفة ابنه بما يجول فى نفسه من الخواطر والفكر ، فكتم عنه هذه المسألة بالذات ، وتجنب الخوض فيها معه من قريب أو من بعيد .

ولكن شجاعا لم يتركها ففاتحه فيها ، فغمغم ولم يجب بجواب قاطع

— قد كفانى الله شر هذه البلية ، فلأنفض يدى منها ، فلا شأن لى بشيء .

— كلا ياسيدى يجب أن تنذر أسد الدين بهذه المكيدة الأثيمة فربما ينوى زعيم الخلافة تنفيذها بعد .

ـ ويحك يا بنى ! لا سبيل الى ذلك مالم نكشف له سر الرسالة المفقودة .

فأطرق شجاع مليا ثم قال ، وقد تبين له صواب رأى أبيه فقرر فى نفسه أن يسلك سبيلا آخر : «صدقت ياسيدى ، لا سبيل الى ذلك ، ولكن فكر فى هذا الأمر ، وسأفكر أنا أيضا لعلنا نهتدى الى حل

أما شجاع فقد قر عزمه على أمر فنفذه فى الحال دون أن يخبر أباه ، وأما شاور فليس يعنيه مايعنى ابنه من سلامة أسد الدين ونجاته ، وانما يعنيه شىء آخر يتصل بمصلحته هو لا بمصلحة أحد سواه ، فاشتاق أن يعرف ماذا ينوى زعيم الخلافة أن يفعل ، وقد اشتد به هذا الاشتياق حتى هم أن يتصل به سرا ليرى ماعنده ، غير أنه تخوف ، فتردد ثم أحجم .

الى أن فوجىء ذات يوم برسول من زعيم الخلافة يخبره بأنه سيجىء لمقابلته سرا ، فليستعد للقائه على انفراد ، دون أن يشعر بهما أحد ، فسر شاور سرورا عظيما وأخذ يستعد له ويرتقب قدومه بفلوغ الصبر .

واختلى الرجلان فتناجيا طويلا ، فيما كان و فيما ينبغى أن يكون فاتفقا آخر الأمر على أن تجرى الأمور مجراها الذى كان مرسوما من قبل دون تغيير أو تعديل ، وسيتكفل زعيم الخلافة من جهته بمكاتبة ملك الفرنج ليسرع بالقدوم .

وانسل زعيم الخلافة خارجا تحت ستار الليل فانصرف فى سلام ، ولم يكد شاور يخلو الى نفسه حتى ظهر له شجاع كأنما انشقت عنه الأرض ، فأجفل شاور وارتعد ثم تماسك وتجلد :

ـ أين كنت يا شجاع منذ قليل ؟

ــ كنت ياسيدى خلف هذا الباب .

ــ ماذا كنت تصنع ؟

كنت أتطلع وأتسمع .

فاستشاط شاور غضبا .

ــ ويلك ! من أذن لك بذلك ؟ كيف تجرؤ على أن تتسقط أحاديثى ؟ أفهذه عادتك معى يا قليل الأدب ؟..

ــ حاشاى يا سيدى أن أفعل ذلك ، ولكنى رجعت الليلة قبل موعد رجوعى لصداع ألم بى فلمحت هذا الرجل يدخل متسللا عندك ، فارتبت فى أمره وخشيت أن يقصدك بسوء ، فوقفت أرقبه من خلف الباب .

ــ وسمعت حديثنا ؟

ــ نعم سمعته كله من أوله الى آخره .

فانطرح شاور على الأريكة فبقى برهة واجما يتلون وجهه ويتمعر .

ــ لو كنت أعلم ياسيدى أنك تريد أن تخفى هذا الحديث عنى لسددت أذنى ووقفت أحرسك دون أن أسمع . لقد ظننت أنك لا تكتم عن ابنك سرا !

ــ ويلك ! هذا ليس سرى بل سر غيرى ائتمننى عليه ..

ــ لا سر لمثل هذا الخائن ياسيدى فليطب بالك ! يجب علينا أن نبلغ أسد الدين عنه فى الحال ..

فأطرق شاور مليا يفكر ويقدر ، ثم تطلق وجهه فجأة ، فنهض الى شجاع فأجلسه بجانبه وأخذ يطبطب على كتفه وهو يقول : « لله درك يا بنى . والله ما عدوت مافى نفسى ، لقد استدرجت أنا هذا الرجل لأكشف سره لأسد الدين ، وكان فى عزمى أن أخبرك

وآخذ رأيك ولكنك سبقتنى بهــذه الطريقة التى لا أرضاها لك فأغضبتنى منك . هذا مسلك لا يليق بولد شاور ، وانما يأتيــه أولاد السفلة والرعاع » .

ــ سامحنى ياسيدى ، ولكن أحقا كان هذا عزمك ؟

ــ نعم ، أو تشك أنت فى ذلك ؟

ــ لا ياسيدى ولكن ...

ــ اسمع يابنى .. لاتظنن أنى أفعل ذلك من حبى لهؤلاء القو م، فانى والله لأكرههم كره الموت ،ولكنىقد تبتالىالله منذ نجانى من تلك البلية وستر على فأردت أن أتقرب اليه بانقاذ البلاد من شر هذه الفتنة .

فكاد شجاع يطير من الفرح .

ــ الحمد لله ياسيدى .. لا أحد يطلبمنك أنتحبهم ، فذلك ليس فى ملكك ، ولكن يكفى ألا يحملك شنآنهم على الاضرار بمصلحة الدين والوطن .

ــ قد شرح الله صدرى لذلك يابنى ، فالحمد للهعلىكل حال .

ونهض شاور وهو يقول : « هلم رافقنى الآن »

ــ الى أين ياسيدى ؟

ــ الى أسد الدين .

ــ علام تتعب نفسك ياسيدى فى هذا الليل ؟ سأذهبأنا لأبلغه عنك ...

ــ كلا ياشجاع .. لقد آليت أن أسعى اليه فأبلغه بنفسى ، وتحضر أنت معى لتصديق قولى ..

ــ حبا ياسيدى وكرامة ..

١٧

وأقبل يوم عاشوراء ، فأقيمت الزينات فى قصر العاضد احتفالا بهذا العيد وبتولية أسد الدين الوزارة • واستعد العاضد من الصباح لاستقبال أسد الدين ، وكبار رجاله عند الضحى ، ولكنه لم يشعر الا بجنود أسد الدين قد اقتحموا القصر فى الصباح ، فقبضوا على زعيم الخلافة وأعوانه فى القصر فساقوهم معهم ، فأسقط فى يد العاضد : وأيقن أنهم ينوون خلعه فى ذلك اليوم •

وكان قد توقع الخلع منذ زمن ، وأدرك أن القوم يتبعون فى ذلك سبيل التدريج ، لئلا يثيروا ثائرة أجناده المخلصين للعرش ، فقد رآهم يستولون باللين واللطف على أملاكه وأمواله شيئا فشيئا بدعوى حاجتهم الى الانفاق منها فى مشروعاتهم الاصلاحية ، ثم أخذوا يستولون على قصوره باللين واللطف أيضا لاستعمالها فى مختلف الأغراض ، حتى لم يبق له غير القصرين الشرقى والغربى ، وكانوا يستأذنونه قبل ذلك ، فلا يسعه الا أن يأذن لهم ، اذ يعلم أن الرفض لن يجديه شيئا •

ولكنه لم يتوقع أن يتم الخلع فى هذا اليوم الذى يحتفل فيه بتولية رئيسهم منصب الوزارة ، فماذا يريدون ؟ وسأل من حوله من رجال القصر فلم يجد عند أحد منهم جوابا مقنعا ، أترى القوم قبضوا على زعيم الخلافة لشىء رابهم منه هو ولا شأن للعاضد به ؟ ولكن ماذا فعل زعيم الخلافة ؟ انه لم ير منه شيئا يريب ، ولو كان عنده شىء لأخبر العاضد به ، فليس من عادته أن يكتم عنه شيئا •

وحار العاضد ماذا يصنع ، وشعر اليوم أكثر من أى يوم آخر أنه قد أصبح وحيدا ، لا قوة له ولا ناصر • حتى الأجناد المخلصون

لعرشه قد حيل بينه وبينهم ، فلايتصلون به ولا يتصل بهم الا من طريق هؤلاء القوم ، وكان قد ألح على أسد الدين أن يقبل ماعرض عليه من توليته الوزارة تولية رسمية ليستدر بذلك عطفه ، ويكتسب رضاه لعله يبقى على عرشه ، فكان يقلق ويجزع كلما تنصل أسد الدين وسوف ، فلما أعلنه بالقبوع فرح فرحا عظيما وقوى أمله أن يضرب أسد الدين صفحا عن نية خلعه ، ولكن حادث اليوم قضى على أمله ، وضاعف جزعه وقلقه .

ولم يجد أمامه سبيلا غير الصبر والانتظار ، حتى يرى مايكون من أمرهم معه . وهم أن يبعث الى أسد الدين ليكلمه فى الأمر ويستوضحه ماحدث لعله ظن به سوءا لم يقع منه فيبين له براءته وحسن نيته ، ولكنه تذكر أن أسد الدين لم يبعث فى الاعتذار عن حضور حفلة التولية فمن المنتظر أن يحضر الى القصر فى ميعاده ؛ فعلام يستدعيه ويستعجله ؟

ــ وانه لفى حيرته وقلقه لايدرى ماذا يأتى وماذا يدع ، اذا بالحجاب يعلنونه بقدوم أسد الدين وصحبه فتهيأ لاستقبالهم .

ودخل أسد الدين وصحبه الى الايوان ، كأن شيئا لم يحدث اليوم ، فصافحوا العاضد ، ثم أخذوا مجالسهم حوله دون أن يبدو فى وجوههم أى أثر يدل على الاستياء منه أو العتب عليه . وحذا العاضد حذوهم ، فلم يلح فى وجهه أى أثر للحيرة أو القلق .

وتليت وثيقة التولية ، وهى من انشاء القاضى الفاضل ، اد حرص العاضد أن يتولى القاضى الفاضل كتابتها بأسلوبه مبالغة منه فى تكريم أسد الدين ، « هذا عهد لا عهد لوزير بمثله من عبد الله ووليه أبى محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين الى السيد

الأجل المنصور سلطان الجيوش ولى الأئمة مجير الأمة الامير أبى الحارث أسد الدين شيركوه .. »

ولما انتهى الحفل اختلى أسد الدين بالعاضد فحدثه عن المكيدة التى كان قد دبرها زعيم الخلافة لاغتياله واغتيال كبار رجاله اليوم فى القصر ، وكيف اعترف أعوانه عليه لما وضعوا تحت العذاب ، فجعل العاضد يبدى شديد أسفه ، ويلعن زعيم الخلافة ويقسم أغلظ الأيمان ماكان له أى علم بذلك ، فصدقه أسد الدين وقال له : « وقد تحقق عندنا ألا يد لك يامولاى فى ذلك ولا علم ، فحمدنا الله على كمال رضاك عنا وحاشاك أن تغدر بنا هذا الغدر . »

— عاقبهم أيها الوزير عقابا شديدا ولا تأخذنك بهم رأفه ولا رحمة

— انا قد وضعناهم فى السجن .

— السجن لا يكفى .

— سينظر فى أمرهم حين تتم محاكمتهم .

ولم يكد ينصرف أسد الدين حتى أقبل مؤتمن الخلافة على العاضد:

— مولاى أمير المؤمنين كيف تحرضه على عبدك وخادمك زعيم الخلافة ؟

— كاد الملعون يقضى اليوم على عرشى .

— بل كاد والله ينقذ عرشك لولا سوء الطالع ووشاية شاور .

— شاور !

— أجل ، كان قد اتفق مع شاور فغدر به شاور .

— وكنت أنت على علم بذلك ؟

— كنت أعلم وكانى لا أعلم .

— فعلام لم تخبرنى ؟

ــ لم نشأ أن نخلطك معنا يامولاى ، فان يكن النجاح فهو لك وان يكن الاخفاق فهو علينا ..

فسكت العاضد قليلا ثم قال : « هذه مساع لافائدة منها الآن وضررها أكبر من نفعها » .

ــ غدا يامولاى تتاح فرص ..

ــ ويلك ! اياك يا مؤتمن الخلافة ، اياك ..

ــ اطمئن يامولاى فانى ــ ان فعلتها ــ لن أكون مثل زعيم الخلافة .

١٨

وفرح الناس جميعا بتولية أسد الدين الوزارة تولية رسمية ، اذ رأوا فى ذلك تثبيتا لحكمه ، وتوطيدا لأركان هذا العهد الجديد ، فتوافدوا عليه مهنئين بتوليته وبنجاته من تلك المكيدة الأثيمة .

ولم يستطيعوا أن يصدقوا أن العاضد برىء منها ، فاشتد سخطهم عليه وتساءلوا عما يمنع أسد الدين من التعجيل بخلعه بعد أن كان منه ما كان .

ودعا أبو الفضل جماعته فعقدوا اجتماعا بعد صلاة العشاء ، فى دار الوزارة حيث صاروا يعقدون اجتماعاتهم فى كثير من الأحيان ، كأنهم قوم دعاهم أسد الدين للتشاور أو للتسامر ، فلما انتظم عقد مجلسهم ، تذكروا فى أمر العاضد فمال أكثرهم الى وجوب خلعه فى الحال ، وعلى رأس هؤلاء أبو الفضل ، وحجتهم فى ذلك أن العاضد وان لم يثبت اشتراكه فى المكيدة أو علمه بها فان فى بقاء قصره وكرا للدسائس والمكايد مايكفى لوجوب القضاء عليه فى الحال حتى لا يتكرر مثلها فى المستقبل .

ولكن أسد الدين عارض فى ذلك متمسكا برأيه القديم من

وجوب التدرج فى خلعه لأسباب كثيرة منها اتقاء مايخشى من ثورة الأجناد المخلصين بعد للعرش ، ومنها الحيلولة دون صيرورة مصر ولاية تابعة لنور الدين اذا تم خلع العاضد فى الحال ، ومنها أنه لا يليق أن يخلع اليوم ، ولما يجف عهد التولية الذى كتبه لأسد الدين فلا أقل من مجاملته الى حين •

وانتهوا بعد التناقش الى رأى وسط يضمن ألا تحاك الدسائس فى القصر مرة أخرى ، فقرروا أن يبعد أكثر رجال القصر منه ، ولا سيما أولئك الذين لا يؤمن شرهم حتى لا يبقى من حاشيته معه الا القليل •

ومنذ نفذ هذا القرار أصبح العاضد فى حكم المخلوع لا قوة له ولا سلطان ، ولا أثر له فى شأن من شؤون البلاد ، ولا يرجع اليه فى أمر من الأمور ، حتى كاد الناس ينسون وجوده ، ولولا أن اسمه مازال يذكر فى الجوامع أيام الجمع لعده الناس فى الموتى !

واضمحل شأن القصر ، شيئا فشيئا ، حتى صار كأنه سجن مهجور يقضى العاضد بقية أيامه سجينا فيه •

١٩

واعتزم أسد الدين ذات يوم أن يرحل بنفسه الى دمياط ليتفقد الاستحكامات التى تم انشاؤها لتعزيز هذا الثغر ، ولما بلغه من العصفورة أن الفرنج قد أوعزوا الى بعض جواسيسهم فى البلاد ليقوموا بنسف المصانع التى تبنى فيها السفن على ساحل دمياط ، وتدميرها خشية أن يصبح لمصر أسطول كبير يغزو سواحلهم فى المستقبل ، ويقضى على أسطولهم الذى يتفوقون به على نور الدين فلا يقوون على الوقوف أمامه بعد ذلك •

وأقام صلاح الدين نائبا عنه فى أثناء غيابه فأظهر صلاح الدين

كفاية وحسن تدبير وسرعة فى بت الأمور المعلقة وتوفيقا فى حل المشاكل المعقدة حتى شعر الجميع فى هذه الفترة القصيرة أنه لا يقل عن عمه بل يتفوق عليه فى كثير من الأحوال .

وفوجىء ذات عشية بتسلل العصفورة اليه ، فأحس بقلبه يدق فى صدره دقا عنيفا حتى أشفق أن يخونه جلده ، فيقع منه أمامها مالا يرضاه لنفسه من الوهن والاضطراب ، وحتى حدثته نفسه أن يعتذر عن مقابلتها لولا خشية أن يكون لديها خبر مهم تتوقف عليه سلامة البلاد . ومنذ رحل عمه فناب هو منابه لم يشعر قط بثقل الأمانة التى يحملها على كاهله شعوره اليوم ، فود لو بقى عمه ورحل هو مكانه . وعجب لذلك من نفسه فى أول الأمر ثم استهجنه منها ولامها عليه ، ولم يلبث أن استجمع قوته ورجولته فتوكل على الله وقابل العصفورة الرهيبة !

ورآها تقف أمامه مثل موقفها أمام عمه من قبل ، ثم سمعها تحدثه مثلما سمعها تحدث عمه من قبل دون اختلاف فى الحالين .

ولم يكد ينظر اليها من خلال نقابها الأسود وعباءتها السوداء السابغة ويسمع صوتها الثابت المطمئن حتى سكنت نفسه بعد اضطراب وهدأ قلبه بعد وجيب وأحس كأن أخته هى التى تقف أمامه وتتحدث اليه ، فعجب من نفسه كيف داخلته تلك الهيبة من قبل واعتراه ذلك الاضطراب ؟! .

وكان الخبر الجديد الذى جاءت به أن الجواسيس لما علموا بمسير أسد الدين الى دمياط قرروا تأجيل ما اعتزموه من نسف مصانع السفن الى وقت آخر ، فقال صلاح الدين لنفسه : « هذا خبر لا يستحق أن تتجشم من أجله هذا العناء » ، ثم خطر له أنها

ربما حرصت على ابلاغه خشية أن يشك أسد الدين فى صدق خبرها السابق ، فاستحسن ما صنعت .

وقد ساعده سكون جأشه هذا على التفكير فى أمرها فى أثناء استماعه اليها ، فما ان أتمت حديثها وتهيأت للانصراف حتى قرر فى نفسه أمرا .

وشهدت بعض شوارع القاهرة من أول الليل عباءة سوداء تدرج فى الظلام كأنها سحابة سوداء تسرى فى سماء حالكة . ومن خلفها على بعد منها سحابة أخرى أقل منها سوادا ، تسرع اذا أسرعت الأولى . وتتمهل اذا تمهلت ، وتتوقف اذا توقفت ، وتميل اذا مالت !

وكانت الأولى متوجهة فى سبيل ، ثم توقفت مترددة ،فعدلت عنه ويممت سبيلا أخرى ، الى أن وقفت أمام دار كبيرة ، فقرعت بابها ، فانفتح الباب وانسربت فيه ثم انغلق .

ووقفت السحابة الأخرى من بعيد تنظر وتتأمل وكأنما ضلت سبيلها بعد ماغابت أختها الهادية ، فلبثت برهة لاتدرى أين تسير ، ثم كأنما بدا لها أن تنقلب راجعة من حيث أتت خشية أن تضيع فى ظلمة المساء ، ولكنها ماكادت تتحرك من مكانها فى طريق العودة حتى سمعت حسا من ورائها فاستدارت فاذا باب تلك الدار قد انفتح مرة أخرى وأضاء واذا السحابة الهادية قد برزت أمام الباب ، فوقفت قليلا ثم تحركت ، واذا خلفها سحابة أخرى أصغر منها تتبعها . وكأنما فرحت السحابة الضالة اذ وجدت أمامها هاديتين لاهادية واحدة ، فانطلقت تقفو أثرهما وقد اطمأنت أنها لن تضل مرة أخرى ، حتى انتهى بها المطاف الى دار فخمة فوقفت

مرة أخرى تنظر من بعيد كأنها تخشى ألا يؤذن لها بالدخول ولو من بابها الخلفى الذى انفتح لهاديتيها فغابتا فيه .

وما ترددت سحابتنا هذه المرة ولا حارت ، بل سارت فى طريقها مسرعة لا تلوى على شىء حتى بلغت مستقرها فى دار الوزارة !

وبات صلاح الدين ليلته ساهرا يفكر فى العصفورة : من تكون؟ لقد اهتدى الى عشها الأول ، ثم الى عشها الثانى ، وكلاهما معروف لديه فمن تكون ؟

وكانت المشكلة فى الحقيقة يسيرا حلها على صادق فراسته وثاقب فطنته ، ولكنه مكث يدور حولها ويعقدها على نفسه ، كأنما يشتهى ألا يهتدى الى حلها سريعا ، ولا يدرى لماذا تذكر عمه عند ذلك وتذكر كلماته التى قالها له من قبل : « هذه عصفورها معها ، فابحث لك عن عصفورة أخرى ! »

قد عرفت الآن من تكون .. لاشك عندى الآن أنها هى ! .

ولكن من أين تستقى هذه الأخبار ؟ وماذا يحملها على سلوك هذا المسلك العجيب ؟ أليس فى وسعها أن ترسل بها الينا دون أن تتجشم هى هذا العناء وتحتمل هذا الحرج ؟ انها تعلم أن أباها صديق لنا ، فلم لا تخبره هو ليبلغنا ماتريد ؟ وزوجها ! هل يعلم زوجها بصنيعها هذا أم تقوم به من وراء علمه ؟

وأخذت هذه الأسئلة وأمثالها تضطرب فى رأس صلاح الدين فشغلته عن النوم بقية ليلته .

٢٠

ولما رجع أسد الدين من رحلته الى دمياط لم يجد صلاح الدين بدا من اخباره بما صنع مع العصفورة ، فغضب أسد الدين غضبا شديدا ، وطفق يلومه ويعنفه ، وصلاح الدين يهدئه ويعتذر

اليه ، فلا يسمع له كلاما ولا يقبل له عذرا :

ـ ويلك ! كيف طوعت لك نفسك نقض العهد ؟

ـ لست أنا الذى قطعه ياعمى ولست أنت الذى نقضه .

ـ ويلك ! هذه شاورية لا أرضاها لنفسى ! ما أقطع من عهد فأنت ملزم به ..

ـ قد علمت ياعمى أنهذا سيغضبك ، ولكنى خشيت يومئذ أن تطير هذه العصفورة عنا يوما فلا تعود الينا أبدا فتضيع منا فرصة الاهتداء الى الخائن الذى يتعاون مع العدو فى قلب البلد .

ـ فهل اهتديت الآن اليه ؟

ـ نعم ، هو شاور ..

ولم يستبعد أسد الدين هذا من شاور ، غير أنه تردد قليلا اذ ذكر أن شاور قد أفشى له سر المكيدة التى دبرها زعيم الخلافة فكيف يتفق ذلك مع استمراره فى الكيد أو الخيانة ؟

فلما سمع صلاح الدين ذلك قال لعمه : « ان صح ظنى فيه فانه أراد التمويه علينا بما فعل حتى يبعد الشبهة عن نفسه ! »

فقال أسد الدين : « والله ان هذا لمعقول ! »

ثم أخذ صلاح الدين يشرح لعمه كيف استنتج أن الذى يتعاون فى البلد مع العدو هو شاور ، وأن العصفورة وزوجها يراقبانه ويحصيان عليه ، ويتسقطان الأخبار منه ، حتى اقتنع أسد الدين بصحة ماذهب اليه .

ـ اذن فزوجها هو الذى يبعثها الينا بالأخبار ؟

ـ نعم ، لا ريب عندى فى ذلك .. يريد أن يؤدى واجبه نحو الدولة و لايريد أن يكشف خيانة أبيه .

وطفق أسد الدين يستعرض فى ذهنه سيرة شجاع منذ عرفه أول مرة فى بلبيس ، اذ جاء رسولا من ضرغام اليه والى شاور ، وكيف قاد فرقة الموت فيها بعد ذلك ، ثم حاول الاصلاح بينه وبين أبيه ، وفى أطفيح اذ قدم اليه محاولا جمع كلمته وكلمة شاور على الفرنج ، وفى الصعيد كيف بعث اليه ينذره بعزم أبيه وحلفائه على محاصرة الاسكندرية ، وكيف كان الساعى بعد ذلك لعقد اتفاق الاسكندرية ، وكيف زالت دولة أبيه فما ثناه ذلك عن التطوع فى تدريب حى العسكر حتى اليوم ، فما وسع أسد الدين الا أن يستصوب رأى ابن أخيه .

ــ وماذا علينا أن نصنع الآن يا يوسف ؟

ــ الرأى لك الآن ياعمى وقد عدت ..

ــ كلا .. قد خالفت أمرى فى البــداية ، فامض فى هذا الشأن الى غايته . التبعة كلها عليك !

ــ ان كنت تريد رأيى ، فلنستدع الينا شجاع بن شاور لنكاشفه بالحقيقة .

ــ وأبو الفضل ؟

ــ سنخبره قبل ذلك وندعوه ليسمع معنا كلام زوج ابنته .

ــ أجل ، لابد من حضور أبى الفضل ..

٢١

كان شجاع منهمكا فى عمله بمركز التدريب فى حى العسكر كعادته كل يوم ، اذ جاءه رسول فأخبره أن أبا الفضل يستدعيه فى ديوان الوزارة ليكلمه فى أمر هام ، فاستأناه شجاع حتى ينتهى من بعض عمله ، ولكن الرسول آكد له أنه مطلوب فى الحال ، فترك مابيده ومضى معه .

ولغيه أبو الفضل فاختلى به برهة كاشفه فى خلالها بكل شىء ، ثم أخبره أن أسد الدين سيستفهمه ويستجليه ، فعليه أن يقول له الحقيقة كاملة ، وقال له : « لاتخف ياشجاع فان أسد الدين يحبك ويعزك ، ويقدر فضلك واخلاصك ، وعسى أن تشفع اليه فيشفعك فى أبيك .

وارتاع شجاع فى أول الأمر اشفاقا على أبيه ، ولكنه لم يجد بدا من مواجهة الأمر ، فتجلد وتجمل ، وكان لكلمات أبى الفضل أثرها الجميل فى تثبيت قلبه .

ثم دخل به أبو الفضل عنــد أسد الدين ، فاذا هو جالس فى حجرته الخاصة ، وليس عنده غير صلاح الدين ابن أخيه ، فنهضا لشجاع ورحبا بمقدمه وأكرما مجلسه ، ثم أخذ أسد الدين يلاطفه ، ويباسطه ويسأله عن حاله وحال أبيه ، ويثنى على تطوعه فى تدريب شباب حى العسكر حتى سكن شجاع واطمأن .

ـــ لعل أبا الفضل قد بين لك ياشجاع لأى شىء دعوناك اليوم .

ـــ نعم ياسيدى . قد كاشفنى الساعة بذلك ..

ـــ انا لا نريد أن نؤذيك يا شجاع أو نؤلمك ، ولكن هذا أمر خطير يتعلق بسلامة الدولة ومصلحة العرب جميعا ، وقد قال الله تعالى فى محكم كتابه : « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه » فهل أنت معينى ياشجاع على كشف الحقيقة بما عندك من علم ؟

وأرتج على شجاع لحظة وجعل يغالب عبرة تترقرق فى عينيه ، ثم قال بصوت متهدج : « نعم يا أسد الدين سأفعل ما تريد » .

ـــ هل كان شاور حقا هو الذى يتعاون فى البلد مع العدو أم شخص سواه ؟

ـ بل هو يا سيدى ، واحسرتاه ! .

وهنا ستر وجهه بيديه ، وانفجرت دموعه تسيل على خديه ، فدنا منه أبو الفضل فلف ذراعه حول ظهره يسكنه ويواسيه ، وضلوعه تعلو وتهبط بشدة كأنما تريد أن تتقصف .

واغرورقت عينا أسد الدين بالدمع ، رثاء له وعطفا عليه ، فبقى برهة طويلة واجما لايدرى مايقول .

وأدركت الرقة صلاح الدين أيضا الا أنه استطاع أن يتجلد حين رأى عمه قد عجز عن الكلام ، فقال : اما كان جديرا بك ياشجاع ان تبلغ عنه فى الحال ولا تنتظر حتى ينكشف لنا أمره ؟

فتقلص دمع شجاع حينئذ ورفع رأسه قائلا : « قد بلغت عن أعماله ومكايده فى حينها . »

ـ ولكنك تسترت على شخصه .

ـ ألا تعلم ياصلاح الدين أنه والدى وأننى ولده ؟

ـ ان الأمين لايتولى الخائن وان كان أباه !..

ـ هذا كلام تقوله فى السعة ياصلاح الدين . لو ابتليت أنت بمثل هذه المحنة لكان لك قول آخر ، ولما كان عملك خيرا من عملى بحال

وكأنما أشفق أسد الدين أن يحتدم الحوار بين هذين الشابين فيقع مالا تحمد عقباه ، فاجتذب هو عنان الحديث وقال : « على رسلك يايوسف ، والله لقد صدق شجاع . انها لمحنة قاسية . أنا نفسى لا أعلم ماذا كنت أصنع لو كنت مكانه ، وربما لا أجد القوة على التبليغ حتى عن عمل والدى خشية أن ينكشف أمره من جراء ذلك ! »

فلان شجاع حين سمع ذلك فقال : « حاشاك ياأسد الدين !

حاشاك أنا والله ما أردت أ نأزكى نفسى ، وانى لمعترف بتقصيرى ولكن ..

ـ امض فى حديثك يابنى .. استمر ..

ـ ولكنى كنت أشفق أن يقتل أبى على الخيانة فلاترجى له توبة أبدا .. وأنوء أنا بالمذلة والعار ماحييت ..

ـ كلاياشجاع،ألم تسمع قوله تعالى: «ولاتزروازرةوزرأخرى»

ـ بلى ياسيدى ، ولكنى كنت أحبه حبا لايد لى فيه ، وكنت أطمع دائما أن يهديه الله فيتوب من سوء عمله ويتوب الله عليه ..

ـ والآن أما زلت تطمع فى توبته ؟

ـ نعم ياسيدى ، اذا أعنتمونى على ذلك .

ـ ماذا تريد منا أن نصنع لك ؟.

ـ أن تعفوا عما سلف منه اذا أنا أقنعته بالرجوع الى صوابه .

فأطرق أسد الدين قليلا ثم قال : «والله ان ذلك ليسرنا من أبيك ياشجاع ، ولكن هل تضمن أنت ذلك ؟ »

ـ انى سأبذل غاية جهدى ، وعندى أمل كبير ، فليس هو بمفطور على الشر ، وانه لسخى النفس كريم اليد ، ولكنه رجل ذو أنفة وكبرياء ، وقد استمرأ لذة الحكم قديما ، فعز عليه أن يفطم منها ، وهو يشكو أنكم أهملتموه واطرحتموه .

ولم يستطع صلاح الدين أن يصبر فقاطعه قائلا : «هو الذى دفعناالى ذلك ، فقد أمهلناه كما أمهلنا أمثاله برهة كافية ليظهروا تعاونهم معنا فما وجدنا منه غير النكوص والازورار ، وها هو ذا يتبين اليوم أنه يمالىء العدو على بلاده وأمته » .

ـ مهلا يا ابن آخى ، دعه يتم حديثه ..

ـ لقد صدق ابن أخيك ياسيدى وقال الحق .. ولكن لا بأس أن تجاملوه قليلا فترضوا غروره وكبرياءه لعل ذلك يميل قلبه اليكم فيثوب الى سبيل الرشد .

ـ اقترح علينا كيف نجامله ؟ نوليه منصبا رفيعا فى الدولة ؟

ـ لاياسيدى .. لاينبغى أن يتولى شيئا .. حسبكم أن تدعوه الى زيارتكم وتستشيروه فى بعض الأمور و ..

ـ وماذا يا شجاع ؟

ـ وحبذا لو تفضلتم فزرتموه فى بيته ، فان ذلك سيفرحه كثيرا ، ويزيل مافى نفسه .

وتكلم أبو الفضل حينئذ فقال : « أجل يا أسد الدين ، ان شاور يحب اقامة الولائم ، فأرى أن تلبوا دعوته الى وليمة عنده »

قال أسد الدين : « لا مانع عندنا من ذلك ، فليدعنا . »

فتهلل وجه شجاع سرورا ونهض قائلا : « هل تأذنون لى الساعة لأنطلق اليه فأبشره ؟ »

قال أسد الدين فى مرخه ودعابته : « اذهب يا شجاع وقل لأبيك يكثر لنا من اللحم ، لحم الضأن ، فانى مشتاق الى أكله . »

ـ تذكّر ياعمى أوامر الطبيب ..

ـ ليذهب الطبيب الى الجحيم .. لقد كفى ماجوعنى هنا ، أفيمنعنى عن أكله هناك ؟ اذهب ياشجاع ، قل له يكثر من اللحم لأعوض ما فاتنى ..

وانصرف شجاع وهو يضحك ..

ألا تنصح عمى يا أبا الفضل فى اللحم فانه يضر صحته ويضاعف علته .

ـ لا تصدقه يا أبا الفضل فانه يريد أن يأكله وحده من دونى •
ـ أجل يا أسد الدين ، اقتصد فيه وأطع الطبيب ومتعنا بنفسك •
ـ لو قد أطعت الطبيب يا أبا الفضل لما وجدتنى اليوم حيا أرزق •• هذا يريد ألا أذوق اللحم ألبتة •

فقال صلاح الدين : « سبحان الله ! أأنت أعرف بالطب منه ؟ »
ـ نعم •• أنا أعرف بطب نفسى ، والله ما أورثنى العلة أكل اللحم كما يزعم ، ولكن طول قعودى عن قتال الفرنج !••

٢٢

وبلغ شجاع المنزل ، فانطلق مسرعا الى أبيه فقص عليه كل ما يرضيه مما دار بينه وبين أسد الدين ، وطوى عنه مالا يرضيه ، فسر شاور ، ولم يكد يصدق ما سمع •
ـ أتقول أنه سيدعونى ويستشيرنى ؟
ـ نعم •• وسيزورك ويأكل عندك اذا أولمت له • ولقد قال لى :
« قل لأبيك يا شجاع يكثر لنا من اللحم ، لحم الضأن • »
ـ اذن والله لأعملن له وليمة يتحدث عنها الصيادون فى رشيد ، والفخارون فى أقصى الصعيد !

ولم يملك شجاع نفسه من الفرح أن انطلق الى أمه فبشرها ، ثم صعد الى سمية فحكى لها ماجرى من أوله الى آخره : فاغتمت سمية فى أول الأمر ، وشق عليهـا أن ينقض أسد الدين العهـد الذى بينه وبينها ، ثم تذكرت أن صلاح الدين هو الذى قابلها آخر مرة اذ كان عمه غائبا فى دمياط ، فألقت التبعة عليه • ولكنها لما رأت زوجها لا يكترث لذلك ، بل رأته مسرورا بما حدث مستبشرا

به ، يرجو موراته أن يصفو الجو بين أبيه وبين رجال العهـد الجديد ، فيكف عن الدس عليهم والكيد لهم ويتعاون معهم على مافيه مصلحة البلاد ، ماوسعها الا أن تشاركه فى فرحه واستبشاره .

وجاء أبو الفضل يزور شاور فأكد له ماسمع من شجاع وأخبره أن أسد الدين يرجوه أن يتفضل بزيارته ، فذهب شاور معه الى دار الوزارة ، حيث استقبله أسد الدين مرحبا محتفيـا وأكرمه وعظمه حتى تهلل وجه شاور وانبسطت أساريره .

وجرى بينهما تعاتب طويل ولكنه جميل انتهى بأن أعتب كلاهما الآخر ، واتفقا على أن يتناسيا مافات ويستأنفا بينهما المودة والصفاء والتعاون على مافيه خير البلاد .

وفى خلال هذا التعاتب جرى ذكر شجاع ، وكيف أنهم لم يسندوا اليه منصبا مع كفايته واخلاصه ، فاعتذر أسد الدين بأن ذلك لم يكن عن اهمال متعمد بل كان عن سهو غير مقصود . وانه يختار له اليوم منصب قائد فرقة الجيش المصرى الجديد لأنه أولى الناس بهذا المنصب ، فرضى شاور وشكره .

وكان لطلاقة أسد الدين ومرحه ودعابته وطيبة قلبه ، أحسن الاثر فى تهيئة هذا الجو الودى السعيد .

وقد بلغ من هشاشته وصفاء قلبه أن أشار هو الى الوليمة التى يطمع أن يقيمها شاور له حتى ضحك شاور وقال : « ويحك يا أسد الدين ! انى قد جئت والله لأدعوك اليها فأبيت الا أن تسبقنى » .

قال له أسد الدين : « ما يدرينى يا أباشجاع ألا تنصرف من عندى دون أن تدعونى اما نسيانا منك أو بخلا . وأنا قد منيت

نفسي بلحم آكله عندك على رغم ذلك الطبيب المأفون الذى يمنعنى منه ، وابن أخى هذا الذى يخطفه منى ويأكله دونى » .

فضحك شاور طويلا ثم اتفق معه على تحديد يوم الدعوة بعد غد ذلك اليوم . وانصرف من عنده ضاحكا مسرورا ، وأقبل على ابنه فبشره بمنصبه الجديد .

وأخذ شاور يستعد للوليمة ويحتشد لها بكل ماعرفه عنه من سخاء وكرم فدبت الحركة فى بيته كما دبت فيه روح الهمة والنشاط .

٢٣

وما ان أشرق صباح يوم الوليمة حتى تم اعداد كل شيء ،فأخذ شـاور يطوف بنفسه على المطبخ ، وعلى قاعـة الطعـام ، وبهو الاستقبال ، ويلقى أوامره ووصاياه على الطباخين والفراشين والندل، وغيرهم من سائر خدمه وعبيده .

وكان شجاع مبتهجا أشد الابتهاج ، يسعى مع أبيـه تارة ، ويتفقد وحده تارة أخرى ، ويصعد حينا الى زوجته ووالدته ليطلب منهما شيئا أو يحدثهما بماتم اعداده ، وينزل حينـا الى جواده (أدهم) كعادته كل يوم ليتفقده ويطمئن على غذائه وشرابه .

وانه لفى الاسطبل واقفا أمام جواده يداعبه ويناغيه ويمسح عرفه ومتنه اذا سمية قد أقبلت مسرعة اليه ، فأخذت تتلفت حولها لتستوثق أن المكان خال الا منهما ، ثم أخبرته بنبأ عظيم ، لم يكد يسمعه حتى ذهل واصفر وجهه ووقف هنيهة حائرا لايدرى مايفعل ثم قال لها : « سأصعد اليه الآن وأصارحه بالأمر حتى ينتهى عن فعلته » .

قالت : « أليس خيرا من هذا أن تكتفى بانذار أسد الدين ؟ »

ـــ كلا ياسمية لابد أن أنذره هو أولا وأهدده ..

وصعد شجاع مسرعا الى غرفته فأخذ خنجره ودسه فى وسطه ثم نزل يلتمس والده فوجده واقفا فى قاعة الضيوف ، وعنده عبده الجديد ياقوت ، كأنه يساره ويناجيه ، فلما رأى شجاعا أجفل ، فلم يبق عند شجاع شك فى صدق ماأخبرته سمية ، فدق قلبه دقا عنيفا ولكنه تجلد :

ـــ هل لى أن أكلمك ياسيدى على حدة ؟

فنظر شاور اليه فى ارتياب ثم نظر الى ياقوت نظرة ذات معنى .

ـــ دعنى الآن يا ياقوت ولاتذهب بعيدا فسأحتاج اليك والى الآخرين ، أوصد الباب خلفك ..

فخرج ياقوت وأوصد باب القاعة خلفه .

وجلس شاور على احدى الأرائك ونظر مرة أخرى يتفرس وجه شجاع .

ـــ هات الآن ماعندك يابنى .. خير ان شاء الله ..

ـــ أى خير وأنت تدبر هذه الغدرة التى يستنكف من ارتكابها حتى قطاع الطرق ؟

فصعق شاور من هول ماسمع .

ـــ ويلك ! ماذا تقول ؟

ـــ لا تحاول الانكار فقد علمت كل شىء ..

ـــ ماذا علمت ؟

ـــ انك تدبر مكيدة لأسد الدين ورجاله .

فتكلف شاور الابتسام وهو يقول : « ويحك يابنى ! ترانى

قد اصطلحت معهم وتراني أقيم لهم هذه الوليمة الفاخرة ثم تظن بي هذا الظن ؟ »

ـ ما أقمت هذه الوليمة الا لتغتالهم وهم على مائدتك !

ـ ويلك ، من ذا لفق لك هذه الفرية المضحكة ؟

ـ لفقها لي ياقوت !

ـ ياقوت ..

ـ أجل ، مايعلم بهذا السر غير ياقوت هذا العبد الخبيث الذي اصطفيته وقربته واتخذته نجيك دون أهلك وولدك ..

ـ كذبت ياوغد ، بل كنت تتجسس على .. تتجسس على أبيك .

ـ أجل ، ان من نكد الدنيا على أن يكون أبر عمل أقوم به لديني ولوطني هو التجسس عليك لأحول بينك وبين جرائرك وفواقرك

فاستشاط شاور غضبا ومد يده فلطمه لطمة عنيفة .

ـ أي جرائر ياوغد ؟ وأي فواقر ؟

ـ الطمني واضربني ياسيدي ماشئت ، وسبني واشتمني ماشئت ، فوالله ان ذلك لايغضبني لوكنت وفيا لاتخون بلدك ولا أمتك .

ـ اخسأ يا وغد .. لا يقول هذا عني غير أعدائي .

ـ من هم أعداؤك ؟

ـ أولئك الذين اغتصبوا حقي .

ـ هؤلاء لايعرفون خيانتك مثلما أعرفها أنا ابنك !

ـ كلا ، لست ابني بل أنت عدوي .

ـ وماذا جعلني عدوك وقد كنت أحبك الا خيانتك ؟

ـ أكفف عن ذكر الخيانة يا وغد ، فما أنا بخائن !

ـ ومراسلاتك لملك الفرنج واتصالاتك بجواسيسه ؟ ألا تعد ذلك خيانة ؟ حنانيك ياسيدى ! ان أعداءنا الفرنج قد أصابهم الهلع لما قام هذا العهد فى مصر وأيقنوا ألا بقاء لهم فى بلاد الشام ولا فى غيرها من الوطن العربى اذا بقى هذا العهد ، وقد أيسوا من القضاء عليه بالقوة ، فلجأوا الى المكايد والدسائس فكيف ترضى لنفسك أن تكون لهم مطية ؟

ـ كلا ، هذا باطل كله ولايستطيع أحد أن يثبت على شيئا .

ـ اعلم اذن أن الرسالة التى وقعتها مع زعيم الخلافة محفوظة عندى

فنظر اليه شاور نظرة هائلة :

ـ أنت اذن ..

ـ أجل ، أنا قتلت صاحبك الخائن ابن الخياط لأنقذك وأنقذ البلاد

ـ أين الرسالة ؟ هاتها ..

ـ هيهات لأسلمنها اليوم الى أسد الدين مالم تنفذ ماأقترح عليك

ـ ماذا تريد ؟

ـ أصرف هذه العصابة التى أحضرتها اليوم لتستعين بها على تنفيذ مكيدتك .

ـ ويلك ! هؤلاء صنائعى الذين كانوا فى خدمتى ، فظلموا فى هذا العهد من أجلى ، وقد دعوتهم لشهود الوليمة عرفانا منى لجميلهم

ـ هذه وليمة أسد الدين ، فادع هؤلاء الى وليمة أخرى ان شئت ، واطرد الساعة ياقوت ومن معه من عبيدك الجدد .

ـ ومن يقوم على خدمة الضيوف اذا جاءوا

ـ أنا وميمون وباقى الخدم .

ـ أصبحت تأمرنى ياشجاع وتنهانى ؟! لابأس .. سمعا وطاعة .

وصفق شاور فدخل ياقوت وثلاثة من رفاقه العبيد الجدد فصاح بهم شاور : « اقبضوا على هذا الولد العاق » .

فتردد العبيد لحظة ، واستل شجاع خنجره ، وصاح فى وجه أبيه قائلا : « ان تحرك منهم أحد ، أغمدت هذا الخنجر فى صدرك . مرهم أن يرموا أسلحتهم هناك فى الارض والا فوالله الذى لا اله الا هو لأقتلنك !

ـ أطيعوا هذا المجنون ..

وماكاد العبيد يطيعون أمر سيدهم حتى دخلت سمية فجأة فالتقطت مارموه من الخناجر والمدى ثم خرجت من حيث دخلت .

وتمتم شاور فى غيظ : « بنت أبى الفضل ! »

فأجابه شجاع متمتما : « بل زوجة شجاع بن شاور ! »

ومرت ساعة حرجة !

ـ مر هؤلاء أن يغادروا الدار الساعة ..

ـ ما ذنبهم يا بنى حتى تطردهم ؟

قال شاور ذلك وأهوى بضربة شديدة على يد شجاع فسقط الخنجر منها ، فأسرع ياقوت فالتقطه .

وكانت سمية قد رأت حرج الموقف وأشفقت أن يستنجد شاور برجاله الآخرين ، فأسرعت الى خالتها زبيدة ، فجرت يدها لتنزل معها قائلة : « الحقى ابنك شجاعا فان أباه قد أمر رجاله بقتله » .

فنزلت زبيدة تهرول من أعلى الدار وسمية تتقدمها ، فلما دنتا من القاعة رن فى أذنهما صوت شاور صائحا فى غضب « اقتله يا ياقوت ! أسرع » ثم صوت ياقوت : « تذكر ياسيدى أنك أنت الذى أمرتنى »

فاندفعت سمية الى الباب كالسهم فوجدت العبد قد طعن زوجها ، فترنح ثم خر على الأرض ، وشاور يصيح : « أجهز عليه يا ياقوت ! » ولكن العبد لم يجب الابصيحة عالية اذ طعنته سمية من خلفه فى عنقه فسقط على الارض يخور كالثور الذبيح ، ولم تتركه كذلك بل انهالت عليه طعنا فى صدره وحلقه ووجهه حتى برد .

وأذهلت المفاجأة شاور وعبيده الثلاثة ، فاضطربوا قليلا ثم هموا أن يفعلوا شيئا ، لولم تدخل زبيدة حينئذ مولولة صائحة : «ماذا فعلت بابنى ياشاور ؟ قتلت ابنى ياشاور قتلته ياعديم الرحمة !

فارتعد شاور حين رآها ، وجف حلقه وتعثرت الكلمات فى لسانه وهو يقول : « انه أراد أن يقتلنى يازبيدة » .

ولم تسمع زبيدة لكلامه ، فقد انطرحت على ابنها الصريع فى الأرض تحضنه وتحوطه وتبلل وجهه بدموعها وهى توسعه لثما كأنما تريد أن تعتصر مابقى من أريجه قبل أن تفارقه الحياة ، والى جانبها سمية وهى تسد بكفها موضع الطعنة من جنبه لتمنع انبثاق الدم منه .

واقترب شاور فى ذلة وخجل ، فصاحت زبيدة فى وجهه : «ابتعد عنى يامجرم ، أتريد أن تجهز عليه ؟ . أنت أقسى على من ضرغام . لقد أبقى عليه ضرغام فقتلته أنت .. اغرب من وجهى » .

ــ أريد أن أساعدك يا زبيدة ..

ــ كلا ، لا أريد مساعدتك ...

وكان ميمون وسائر خدم الدار قد دخلوا اذ ذاك فوقفوا ينظرون حائرين لايدرون ماذا يصنعون ، الى أن صاح بهم شاور :

«ويلكم ! ساعدوا مولاتكم .. احملوا سيدكم الى حيث تأمركم» .

فحملوا شجاعا بين أيديهم وسارت أمه وزوجته حتى صعدوا به الى غرفته . أما زبيدة فقد أذهلها الخطب ، فصارت كأنها لا تعى ماذا تفعل ، وأما سمية فقد طفقت تمسح الدم عنه ، وتسد جرحه بالقطن والخرق ، وقد أرسلت ميمونا فانطلق الى أبيها ليخبره الخبر ، ويحضر معه الطبيب .

وبقى شاور فى القاعة برهة لايدرى مايفعل ، فقد ملكت الحيرة عليه كل مذهب حتى خيل اليه أنه قد شل عن التفكير وعن الكلام ، وعن الحركة . ووقف عبيده الثلاثة حوله لايدرون أيضا ماذا يصنعون ، وهم ينظرون الى جثة رفيقهم ملقاة بين أيديهم ، كأنها متاع لا يؤبه له .. الى أن دخل عندهم أولئك الرجال الذين أحضرهم شاور من صنائعه ليشهدوا الوليمة وليستعين بهم على تنفيذ مكيدته فتعجبوا مما شهدوا اذ لم يكونوا قد علموا بعد بما دعاهم شاور من أجله .

فلما رآهم شاور استيقظ من غفلته فأمرهم بالانصراف الى بيوتهم لئلا يلحقهم أذى وأن يكتموا ما شهدوا فلا يتحدثوا عنه الى أحد ، فانصرفوا واجمعين .

وأعمل شاور حينئذ فكره وهو يذرع القاعة جيئة وذهوبا ، ويمر بجانب جثة العبد القتيل فلا يلتفت اليها من شدة استغراقه فى الفكر ، الى أن اهتدى ألا سبيل أمامه غير الفرار ناجيا بنفسه قبل أن يرسل أسد الدين من يقبض عليه . فقد أيقن أن الخبر سيبلغه وشيكا ، فالتفت الى عبيده ، وأمرهم بأن ينطلقوا فيسرجوا له جواده فى الحال . وانطلق هو فارتدى ثياب سفره وتقلد سلاحه ،

ونزل مسرعا الى حيث ينتظره عبيده فى فناء الدار ، فما راعه الا كوكبة من الفرسان قد أقبلوا فأحاطوا بداره ثم اقتحموها من كل باب ، فأيقن ألا أمل فى الفرار من أيديهم فاستعد للقائهم ومنازلتهم حتى يقتل ، الا أنه أشفق آخر الأمر على زوجته أن تزعجها جلبة الصدام والقتال وهى فيما هى فيه فاستسلم لهم قائلا : « خذونى الى حيث تشاءون ولاتحدثوا ضجة تزعج أهلى ، فكفى ماهم فيه »

واذا أسد الدين وصلاح الدين وأبو الفضل يدخلون ، فزوى شاور وجهه عنهم خجلا ، فقال أسد الدين لابن أخيه : « خذه معك يا يوسف حتى نرى رأينا فيه » .

ثم صعد أسد الدين ومعه طبيبه يتقدمهما أبو الفضل وأمامهم ميمون حتى انتهوا الى غرفة شجاع ، وكانت أمه قد انسحبت الى حجرتها حين علمت بقدومهم ، فما وجدوا عنده غير سمية واقفة على رأسه وهو طريح الفراش يئن أنينا خافتا .

فوقفوا حوله ، وطفق الطبيب يفحصه ، وكان الدم لا يزال ينزف من جرحه من خلال الضماد الذى عملته سمية ، فأخذ يغسل الدم وينظف الجرح ويطليه بمرهم أحضره معه ، ثم أحكم ضماده ، وربطه ، وبعد مافرغ من ذلك أفرغ له شرابا فى قدح فأوجره له ..

وانتظروا قليلا فاذا شجاع يصحو صحوة فينادى : « سمية ! سمية ! »

ـ نعم يا حبيبى ..

ـ الرسالة التى عندك ياسمية . « مزقيها .. مزقيها . » لاتدعى أحدا يطلع عليها ..

وما لبث أن عاد الى غيبوبته ..

فتعجب الحاضرون من كلامه ، والتفت أبو الفضل الى سمية ،

فأسرت اليه بالخبر ، فأمرها باحضارها ، فترددت سمية قليلا ثم قامت الى خزانة ثيابها ، فأخرجت الرسالة منها فسلمتها لأبى الفضل فجعل يتصفحها ، ويريها لأسد الدين ، فيحركان رأسيهما متعجبين . ثم طواها أبو الفضل ودسها بين ثيابه وهو يقول لابنته بصوت خافض : « قد مزقتها أنت يا سمية ! . »

ثم تحرك شجاع مرة ثانية وفتح عينيه ، ففرحت سمية وأقبلت عليه:

ـ أين أنا ياسمية ؟ وأين أسد الدين ، هل أصابه شيء ؟

ـ لا يا حبيبى .. ها هو ذا بين يديك ..

ـ هأنذا ياشجاع ، ألا تعرفنى ؟

ـ الحمد لله على سلامتك ونجاتك .

ـ وأنا يا شجاع ألا تعرفنى ؟

ـ أبو الفضل .. الحمد لله .. أنت أيضا سلمت ..

ثم تغير وجهه وبدا فيه كالخجل وهو يقول : « وماذا صنعتم يا أسد الدين بشاور ؟. »

فتردد أسد الدين قليلا لايدرى كيف يجيبه .

ـ هل ..

ـ انا قد قبضنا عليه ياشجاع لئلا يقتلك ..

ـ انه لم يرد أن يقتلنى .. فالذى طعننى هو ياقوت العبد ، وقد انتقمت لى سمية منه فقتلته . أرأيت يا أبا الفضل كيف نفع اليوم تدريبى لسمية ؟

ـ صدقت يابنى ، قد رجعت عن رأيى الى رأيك ..

ـ وشاور يا أسد الدين ، ماذا أنتم صانعون به ؟

ـ سنطلقه لك اذا عوفيت ، والا اقتصصنا منه لأنه هو الذى أمره

ـ كلا لن أموت ، سأشفى حالا ان شاء الله .. انها طعنة يسيرة

ـ نرجو ذلك يا شجاع .

ـ انى لا أريد أن أموت حتى أرى الكتائب تنطلق من مصر لتحرير بلاد الشام من سلطان العدو الدخيل .

ـ ستراها وتشهدها ان شاء الله .. وتقـود الجيش المصرى الجديد بنفسك .

ـ الجيش الجديد . معذرة يا سيدى لقـد كنت أريد أن أشكرك اليوم اذ عينتنى قائدا له .. ولكن ..

ولم يتم كلمته اذ تأوه من ألمه ثم مالبث أن أغمض عينيه وغاب عن وعيه من جديد .

واقترح الطبيب أن يتركوه وحده ليستريح ،فخرجوا من عنده ودخلوا حجرة أخرى مجاورة ليؤدوا فيها ماوجب من صلاة العصر .

وعادت زبيدة فأخذت سمية تسارها بما شـهدت فاطمأن قلبها قليلا وبدا فى وجهها بريق الأمل .

وكان أسد الدين شديد القلق على شجاع ، فما ان سلم من صلاته خلف ابى الفضل حتى التفت الى الطبيب عن شماله فعزم عليه أن يصدقه مارأى من حالة شجاع ، فأجابه الطبيب بأن الأمل فى نجاته ضعيف لكثرة مانزف من الدم ، ولأن الطعنة قد نفذت الى جوار القلب ، فاكتأب أسد الدين وأصابه وجوم .

أما أبو الفضل فمتجلد لايظهر عليه غير قليل من الأسى ، وهو يحدث جليسيه بأشتات مما يعرف عن سيرة شجاع فى مختلف أطوار حياته والطبيب يستمع فى شغف واهتمام وأسد الدين ساكن كالمذهول لاتتحرك منه جارحة الاحين يمسح الدمع عن مقلتيه الفينة بعد الفينة .

وبينما هم كذلك ، اذ أقبل ميمون فأخبرهم أن شجاعا يطلبهم ، فنهضوا من مجلسهم بين الوجل والأمل حتى عادوا اليه فوجدوه شاحبا كالقرطاس ونفسه يتردد متلاحقا ، كأنه يجود بنفسه ، فنظر الطبيب الى أسد الدين كأنه يقول له : انه فى النزع ! »

ووقفوا ينظرون اليه لا يجرؤ أحد منهم على الكلام ، وأحس بهم شجاع بعد لأى فقال بصوت ضعيف : «تعال ، ادن منى يا أسد الدين ، وأنت يا أبا الفضل .. ومن هذا الذى معكما ؟ » فأجابه أبو الفضل : « هذا طبيب أسد الدين قد جاء به ليعالجك » .

ـ هو الذى عمل لى هذا الضماد ؟

ـ نعم ...

ـ جزاك الله خيرا أيها الطبيب وان حم القضاء فلم تكن لك معه حيلة !

فقال أسد الدين فى حنان : « انك بخير يا شجاع ، وستشهد معارك التحرير » ، فقاطعه شجاع قائلا : « هيهات يا أسد الدين قد علمت أنى لن أعيش حتى ذلك اليوم المجيد . فهل لك يا سيدى أن تأخذ جوادى (أدهم) فتحفظه عندك ، حتى يجىء يوم الجهاد فتركبه أنت الى الميدان أو تركبه لصلاح الدين ابن أخيك فيكون لى فضل شهود ذلك اليوم ..

فقال أسد الدين والدموع تتحادر من عينيه : « حبا وكرامة يا شجاع سوف أركبه أنا بنفسى ان أحيانى الله حتى ذلك اليوم »

فلاح السرور فى وجه شجاع حتى كأنه يهم أن ينهض وهو يقول : «الحمد لله ، الآن اطمأن قلبى عليك يا أدهم فسيركبك سيد الأبطال»

ولكن سروره مالبث أن غاض وحل مكانه الأسى وهو يقول :
« ولكن شاور يا أسد الدين ، لقد أردت أن أعيش لتطلقوا سراحه فاذا قضاء الله أسبق ! فهل لك ياسيدى فى معروف آخر تسديه الى ؟»

ــ نعم يابنى ، اطلب ما تشاء ..

ــ اذا قضيتم عليه فلا تقتلوه حتى تستتيبوه عسى أن يتوب الله عليه ، فانى أخشى ..

ــ ماذا تخشى يابنى ؟

ــ أخشى ياسيدى ألا أراه فى الدار الأخرى أبدا ..

ــ سأفعل يا شجاع ، سأفعل ..

وخشى أسد الدين أن يغلبه النحيب فانسحب من جواره .

ــ وأنت يا أبا الفضل ؟

ــ نعم يابنى ..

ــ أوصيك بسمية خيرا ، اياك أن تغاضبها مرة أخرى .

ــ هى التى غاضبتنى ياشجاع .

ــ سامحها اذن ، فانها صالحة مجاهدة ،أين هى؟وأين والدتى؟

فخرج الثلاثة من عنده لتدخل أمه وزوجته .

ونظر شجاع الى أمه فغامت عيناه بالدمع وجاش صدره كالمرجل وهو يقول : « سامحينى يا أماه فانى تسببت اليوم .. »

ولم تدعه زبيدة يتم كلمته اذ مالت بوجهها على وجهه فجعلت تقبله وهو يقبل وجهها ورأسها حتى اختلط دمعها بدمعه ، وهى تقول : « نفسى فداؤك يابنى ، ليس الذنب ذنبك . »

ــ خذى بالك من سمية فانها وديعتى عندك .

ــ اطمئن يابنى الحبيب ..

ـ وأنت يا سمية أوصيك بأمي خيرا ، فانها خالتك ، وليس لها أحد فلا تتركيها وحيدة حزينة ..

فطفقت سمية تقبله وهى تقول : « سأفعل يا حبيبى . سأفعل » وكانت سمية تغالب جزعها وتتجلد جهد ما تستطيع الى أن سمعته يقول لها « كنت أريد ياحبيبتى أن أشهد مولد هذا الجنين الذى فى أحشائك ولكن .. »

فحينئذ خانها جلدها المنهوك فانفجرت تنشج وتنتحب .

وامتدت يده الواهنة فأخذت تجول فى وجههـا وتمسح دمعها كأنها تستدفىء بحرارته مما يسرى فيها من برودة الموت .

ـ كلا ، لا تبتئسى يا سمية ، فان أبا الفضل سيكون له أبا خيرا منى .. ماذا تريدين أن تسميه يا سمية ؟!

ـ كما تريد يا حبيبى .. سنسميه شجاع بن شجاع ..

ـ كلا يا سمية بل سميه ضرغام بن شجاع ..

فقالت زبيدة كالمنكرة : « ضرغام ! » .

ـ أجل يا أماه .. هذا اسم حبيب الى نفسى .. ولقبوه أسد الدين .. أسد الدين ضرغام بن شجاع .

ـ وان جاء أنثى يا بنى ؟

ـ أنثى .. فليكن اسمها زبيدة بنت شجاع .

وكأنما أحس بكرب اشـتد عليه فجحظت عينـاه وتسـارعت أنفاسه ، فأخـذ يردد الشهادتين ، ثم أجفـل كأنما تذكر شـيئا يريد أن يقوله :

ــ سمية :

ــ لبيك يا حبيبى •••

ــ كلا ، لا تجيئى به أنثى يا سمية •• لا أريد الأنثى •• أريد ولدا بطلا يجاهد فى سبيل الله !

وما أتم كلمته حتى لحقته غشية ، فهمت أمه وزوجته أن تنوحا عليه ، لولا نفس خافت ما زال يتردد فى صدره ، فحبستا أنفاسهما تتطلعان اليه فى قلق بالغ •

واذا هو يفتح عينيه ويتحرك حركة أشد مما فى وسعه كأنمايريد أن ينهض أو يجلس ، واذا هو يرنو أمامه كأنه يرنو الىشىء بعيد : ونظرت زبيدة وسمية الى حيث نظر فما أبصرتا غير شفق المغيب !

واذا صوته يهدر فى سمعهما كأنه آت من عالم آخر :

انظروا ! انظروا ! ذاك ابني يقـود جيش مصر ! أسـد الدين ضرغام يقود جيش التحرير •• الله أكبر •• انهزم جيش العدو •• وانتصر جيش مصر •• انتصر العرب •• وانتصر المسلمون •

واذا هذه آخر كلمة قالها شجاع •

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابورى بالحلمية الجديدة